



رسم يوضح « أُر الاشعة الكونية في نشوء الاحياء وتطورها » فانك ترى الكرة الارضية في نصف الصورة اليسرى وزاويته العليا مغمورة بفيض من هذه الاشعة. وفي نصف الصورة اليمين وزاويته ترى رسماً يوضح مرآب النشوء

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين

٢٥ محرم سنة ١٣٥١

١ يونيو سنة ١٩٣٢

دارون ومذهبه

بعد خمسين سنة

تحول المذهب واتجاهاته الحديثة

في ١٩ ابريل سنة ١٨٨٢ مات تشارلز دارون ، الذي قال فيه الاستاذ وليم باتسن « ان دارون لم يخلف نظرية بل علماً » والسر فرنسيس غلتن احد مؤسسي علم الوراثة الحديث وعلم اليجينية : « ان كتاب اصل الانواع دستور (Magna Carta) الحريات الفكرية » . والاستاذ هنري فرفيلد اوزبورن « حلقات تحرير العقل من قيود الاوهام ثلاث : الاولى لكوبرنكس الفلكي . والثانية كتاب اصل الانواع لدارون . والثالثة كتاب تسلسل الانسان لدارون كذلك . فهو في تاريخ المعارف ثاني ارسطوطاليس » . فيجدر بنا ان نقف هنيهة عند ذكرى وفاته سائلين : اين نحن الآن من آراء دارون كما بسطها في اشهر كتبه « اصل الانواع » و « تسلسل الانسان » ؟

ان مقام « نظرية التطور العضوي » — وهي في رأي طائفة كبيرة من العلماء اعظم ماضيف الى مجموعة الفكر الانساني في القرن التاسع عشر — لا يزال يحوطه كثير من الابهام في اذهان العامة ، لكثرة الحقائق التي كشف عنها الباحثون في ميدان علوم الاحياء بعد وفاة دارون وتشعب مدلولاتها ، واضطراب ما يكتبه الكتاب المعارضون عن انهيار نظريته من دون ان يحشموا انفسهم مؤونة البحث العلمي في حقيقة ما يقال في تفسير الحقائق الجديدة ومعرفة صلتها بنظرية دارون الاصلية

ما اضافهُ دارون

ان ما اضافهُ دارون الى البحث في هذا الموضوع ذو ناحيتين . (فأولاً) جمع من الادلة المؤيدة لحدوث التطور العضوي طائفة تفوق ما جمعه غيره من الباحثين . ويكفي ان نعلم في هذه الناحية ان رحلته على السفينة « بيغل » استغرقت خمس سنوات لم ين في خلالها عن جمع المشاهدات الطبيعية وتدوينها ، وانه قضى ثمانى سنوات وهو يبحث في السريديا (Cirripedia) وهي طائفة من الحيوانات الدنيا فكشف له البحث القناع عن ناموس الانتخاب الطبيعي . ثم ان اعداد كتابه « اصل الانواع » وتمحيصه استغرق احدى وعشرين سنة ولو لم يتفق للعالم ولس Wallace ان اهتدى حينئذ الى تعليل تحول الانواع بالانتخاب الطبيعي وعزم على نشر ذلك ، لما نشر دارون كتابه سنة ١٨٥٩ كما فعل (و ثانياً) انه اول من اخرج مذهباً علمياً معقولاً لتعليل الطريقة التي تم بها التطور .

كان بعض العلماء الفلاسفة قد تناولوا هذا الموضوع قبل دارون ، ولكن احداً منهم لم يوفق الى نظرية توضح اسلوبه . فظل زعماء الفكر العلمي معرضين عن تأييد « حقيقة التطور » حتى اخرج دارون اصل الانواع وكتبه الاخرى . ولا بد من ان نقول هنا ان العالم « الفرد رسل ولس » يحسب حقاً قسم دارون في خفا اكتشاف مبدأ « الانتخاب الطبيعي » .

ولكن كلا منهما اكتشفه على حدة . فدارون استخلصه من مشاهداته الواسعة النطاق لتغيير الاحياء . ثم قرأ كتاب ملثوس (الذي ذهب فيه الى ان عدد السكان اسرع زيادة من موارد الغذاء) فخطر على باله ان ثمة تنازع بين الاحياء وان التباينات الموافقة للبيئة تبقى وغير الموافقة تندثر فينجم عن ذلك نوع جديد من الاحياء . اما ولس فاكتشف هذا المبدأ في ومضة وحي اذ كان يعاني سكرات الحمى سنة ١٨٥٧ ، وكان قد قرأ كتاب « رحلة البيغل » الذي وضعه دارون فبعث بمخلاصة فكرته في رسالة موجزة الى دارون جاء فيها « واذا كان هذا الرأي على جانب كاف من الخطر فأرجو عرضه على السر تشارلز ليل » (الجيولوجي الكبير)

ماذا يفعل دارون ؟ كان قد قضى عشرين سنة وهو يعالج هذا الاكتشاف محاولاً تأييده بألوف الادلة الطبيعية ، فهل يضرب ببحته عرض الحائط مؤثراً نشر رسالة ولس على كتابه او يخفي رسالة ولس الى ان تظهر آراؤه ؟ ولو انه فعل هذا لقلنا استولى عليه ضعف الطبيعة البشرية واشفق على عشرين سنة من حياته تذهب هباءً . ولكنه عزم في الحال ان ينشر رسالة ولس ، التي اؤتمن عليها . ولولا اصرار العالمين هوكر (النباتي) وليل (الجيولوجي) — وكان قد تناقش معهما في مذهب من قبل — على وجوب تلخيص آرائه في رسالة تتلى مع رسالة ولس في آن واحد لما فعل

اما عن ثبوت وقوع التطور فأمر لا ريب فيه . وما زال العلماء يجمعون الادلة حتى اصبح

التطور في نظر كل عالم يؤبه له « حقيقة » لا جدال فيها . وأما عن طريقة التطور فثمة اختلاف . فقد كان الاتجاه من نحو ثلاثين سنة الى اهل « نظرية الانتخاب الطبيعي » ورفض حسابها كافية لتعليل التحوّل المشهود في الاحياء . فاذ يطلع القارىء على قول احد الكتاب المبسطين للعلم بأن « المذهب الداروني قد قضى عليه » فالغالب ان الكاتب يشير الى هذا الاتجاه الخاص ، اي عدم التسليم بكفاية « الانتخاب الطبيعي » لتعليل التطور . « ولكن الاعتراض على « الانتخاب الطبيعي » قد ضعفت وطأته الآن — على حد قول الاستاذ جوليان هكسلي — وفي الحقائق الجديدة التي كشفت في العقد الاخير ، والآراء التي بنيت عليها ما يحمل علماء الاحياء على التسليم بأن الانتخاب الطبيعي — هو كما قال دارون نفسه — اهم العوامل المحدثة للتباينات في الحيوان والنبات التي تجمعها لفظة تطور » . فلنعمد الآن الى تلخيص ما اصاب « مذهب التطور » من التحول بعد وفاة دارون

ادلة التطور

نلتفت اولاً الى الادلة المثبتة لحقيقة النشوء . في هذا الميدان ارتقت علوم الاحياء ارتقاءً عظيماً ، فكشف الباحثون عن تاريخ تطور الحياة كما يبدو في آثار الحيوانات والنباتات المتحجرة . فلما كتب دارون كتابه « اصل الانواع » لم يعرف الباحثون سلسلة كاملة من الآثار المتحجرة تبين ارتقاء نوع واحد من انواع الحيوان . ونظرة واحدة الى ذلك الكتاب تبين ما كان يشعر به دارون من الغصة والحسرة لوجود هذه الهوة بين الرأي والواقع . ولكن الهوة قد ردمت الآن . وفي استطاعة الباحثين ان يتابعوا تطور الحياة كما يبدو في الآثار المتحجرة التي خلفتها طائفة كبيرة من الحيوانات والنباتات . والمثل الاشهر الذي يضرب في هذا الصدد هو « تطور الفرس » . ولكن ثمة مجموعات كاملة تبين تطور الفيل والرتسا والبير وغيرها . والخلاصة انه حيث نجد مجموعة وافية من آثار متحجرة حيوان معين او لنبات معين ، نجد دليلاً قاطعاً على حدوث تطور متدرج من البسيط الى المختص المعقد وهو اساس النشوء . وقد كان الانسان البدائي والقردة يعيشون في احوال لا تؤاقي حفظها كلها آثاراً متحجرة في بطن الارض . ومع ذلك لدى علماء الاحياء وعلماء تاريخ الانسان ادلة جلية على حدوث التطور . فبين الطراز الذي يمثله قرد من القروء العليا ذو دماغ متوسط الحجم وفكين بارزين وذقن مرتدة ، وبين الانسان الحديث ذي الدماغ الكبير والفكين الصغرين والاسنان الدقيقة والذقن البارزة ، نجد آثار ستة امثلة او سبعة من الاحياء متوسطة بينهما متدرجة في صفاتها كانت بمثابة مراحل قطعها الثاني في تطوره من الطراز الاول . ولا يمرُّ عقد من السنين الا ويأتي بامثلة جديدة . ففي السنوات العشر الاخيرة كشفت جمجمة الجليل في كهف تبعا بفلسطين ،

وحجمة جنوب افريقية في تو نغز بالترنسقال، وحجمة بكين بالصين

اما الادلة الاخرى فليس هنا مقام بسطها وانما نكتفي بالاشارة اليها اشارة موجزة. فدليل التفريق الجغرافي من اوضحها دلالة واكثرها استرعاء للعناية . واذا كانت الحال الحاضرة لم تنشأ بفعل التطور ، فكيف نستطيع ان نعلل ان حيوانات الجزائر المنشورة في المحيطات محصورة في نطاق يشمل الحيوانات التي تقطع البحار على اجنحة التيارات الهوائية او عالقة بارجل الطيور . اوخذ جزائر ارخبيل غالباغوس ، التي يقال انها قمم براكين كانت قائمة على سطح شبه جزيرة ، فلما حدث لشبه الجزيرة ما اغرقها ظلت قمم البراكين جزائر منشورة على سطح الماء . فمن الحيوانات الخاصة بهذه الجزائر «السلاحف الضخمة او الجبارة» . ولهذا النوع من الحيوان عشرة اصناف مختلفة موزعة على جزائر الارخبيل العشر . والاصناف التي على الجزائر النائية اشد تبايناً من الاصناف التي على الجزائر المتجاورة . ثم انك تجد خمسة اصناف مختلفة في نواح مختلفة من جزيرة واحدة هي اكبر الجزائر مساحة وتعرف بجزيرة «البمرل» . فاذا نحن انعمنا النظر في هذه الحقائق لم نجد سبيلاً الى تعليلها الا اذا فرضنا ان هذه الاصناف المتباينة نشأت من اصل واحد كان يقطن شبه الجزيرة ، وانها تغيرت تغيراً طفيفاً متدرجاً بحسب احوال الجزيرة ، وان الحواجز المائية منعت التزاوج المفضي الى اشتراك الطائفة كلها في ما اصابه بعضها من التغير — لا يخفى ان هذه السلاحف الجبارة لا تستطيع السباحة — اما اختلاف الاصناف على جزيرة واحدة فلعل سببه تكوين سطح الجزيرة نفسها وقيام حواجز بين البقاع التي تقطنها الطوائف المختلفة فتمنع اتصالها ، لان الجزيرة اصلها بركاني وسبل السير فيها وعرة . ويقال ان دارون زار هذه الجزائر اذ جاءها في رحلة « البيغل » فلحظ ان لكل جزيرة منها صنفاً خاصاً بها من هذه السلاحف فقال ان هذه المشاهدة « قربته من عمل الخلق نفسه »

ثم هناك الادلة المستمدة من البناء التشريحي . فذراع الانسان، وجناح الخفاش، وزعنف الحوت ، وقائمة الحصان الامامية ، وجناح الطائر ، وذراع الزرافة كلها اعضاء مختلفة الشكل والمظهر . ولكنها مع ذلك تحتوي على نفس العظام الاساسية والعضلات والاعوية الدموية والاعصاب . ما اصعب تعليل هذا التشابه الكائن بين هذه الاعضاء بمذهب الخلق المستقل ! على ان فكرة النشوء تطلق الضوء في طريق فهم هذا التشابه العميق رغم الاختلاف السطحي . ثم هناك الدليل المستمد من علم الاجنة ، ومؤداه ان نمو الفرد يلخص لنا تطور السلالة التي يمت اليها، والدليل المبني على درس الاعضاء الاثرية وتعليلها بعدم الاستعمال فتضمر ولكنها لا تضمحل ، والدليل المستخرج من تجارب مؤصلي الحيوانات والنباتات، فالحماسة البيئية نشأت تحت رعاية الانسان من الحماسة الجبلية

اضف الى ذلك ما عثر عليه الباحثون في انحاء الارض من الحقائق الجديدة عن تحول

الانواع . فقد وجدوا مثلاً أنه يندر ان تجد نوعاً واحداً من النبات او الحيوان وقد وجد من دون تحويل في بقاع واسعة . ومعظم الانواع يمكن تقسيمها الى اقسام اصغر تعرف « بارداف الانواع » (شرف) Sub - species وهي تعرف كذلك بالسلالات الجغرافية . والفروق بين ارداف الانواع هذه دقيقة جداً ، ولكن اذا قام بين ردفي نوع فاصل جغرافي يصعب عليهما اجتيازه ، انبتت الصلة بين الردفين واصبح كل منهما طرازاً جديداً Type . وهذا يبين لنا فعل التطور كما هو جار الآن . فالنوع يتحول الى سلالات جغرافية جديدة يشهد الاختلاف بينها باشتداد الفواصل . ثم ان بين كل الطوائف التي يتكون منها نوع معين فروقاً طفيفة جداً تجعل اسم « النوع » مجرد اصطلاح تصنيفي لان تيار الحياة لا يعرف الجمود فهو دائماً التجزؤ الى جداول وسواق ، ودرس هذه التحولات الجغرافية يرينا مراحل التجزؤ هذا فيما يتعلق « بحقيقة » التطور . فان الادلة المتجمعة من ميادين البحث الحيوي تثبت اثباتاً قاطعاً للشك وليس ثمة عالم يؤبه له ينكر وقوعها

طريقة التطور

وليست الحال كذلك فيما يتعلق بالطريقة أو الاسلوب الذي جرى عليه التطور . فثمة بين العلماء تضارب في الاراء . ويمكننا تلخيص رأي دارون بقولنا : — كل الحيوانات والنباتات تخلف من النسل اكثر مما يحتمل بلوغه مدى الحياة . واذا نجد بينها نزاعاً على البقاء . ولما كان التغير أو التباين (Variation) حقيقة شاملة لا ريب فيها فلا بد ان تجد اختلافاً أو تغييراً — مهما يكن طفيفاً — بين افراد النسل . ففي النزاع على البقاء يكون بقاء الافراد الذين يتصفون بتغيرات موافقة تعدتهم للحياة الجديدة ، اكثر احتمالاً من بقاء الافراد الذين لم يتصفوا بهذه الصفات أو ما يشبهها ، فيعجزون عن مجاراة عوامل البيئة فيقضى عليهم قبل نموهم واخلافهم نسلًا . ثم ان طائفة ليست قليلة من هذه التغيرات تورث ، فينتقل بعض التحسين في النسل ، الذي تم بهذا الانتقاء أو الانتخاب ، الى الجيل الثاني ، فيبدأ الحياة على مستوى اعلى قليلاً من الجيل السابق . فاذا توارث هذا الفعل في اجيال متتابة حدث ارتقاء مطرد . وقد دعا دارون بالانتخاب الطبيعي . ولتأييد هذا الرأي اشار الى ما يفعله مربو الحيوانات الداجنة ، « بالانتخاب الصناعي » فيغيرون شكلها وطبائعها

والفرق الاساسي الوحيد بين رأي دارون هذا وبين الرأي الحديث في الموضوع دائر حول « تورث التغيرات » التي تحدث في الاحياء . ففي القرن التاسع ، وعلوم الاحياء لا تزال ضيقة النطاق ، كان يتعذر على دارون ان يفرق بين طائفتين من التغيرات — الاولى التغيرات التي تحدث بفعل البيئة وتغير عادات الحيوانات وسلوكه وهي لا تورث . والثانية التغيرات

التي تنشأ من تحول في بناء الكائن الحي ذاته ، وهذه توثر . ومن الواضح ان التغيرات التي من النوع الثاني — وتعرف الآن عادة بالتحولات الفجائية Mutations — هي التغيرات التي ينطبق عليها فعل الانتخاب الطبيعي فينتخب منها ما يصلح وينبذ منها ما لا يصلح والعقبة الكبيرة التي حالت دون تسليم العلماء بعد وفاة دارون بصلاح مبدأ الانتخاب الطبيعي لتعليل التطور ان التحولات الفجائية لم تسد مسد التغيرات التي تقتضيها النظرية . فمعظم التحولات الفجائية التي تناولها البحث اولاً ظهر انها اختلافات كبيرة في صفات الحي الذي تظهر فيه ، فقالوا اذا كانت هذه التحولات اساس التطور وجب القول بأنه يتم قفزاً ، بدلاً من ان يتم تدريجاً على نحو ما هو ثابت في سلاسل الآثار المتحجرة لحيوانات ونباتات مختلفة . ثم ظهر ان بعض هذه التحولات الفجائية قد لا يناسب الحي الذي يظهر فيه بدلاً من ان يناسبه ، وعليه فلا يصح حسابها اساساً للشوء عن طريق الملاءمة على ان الماضي في البحث اثبت ان الى جنب التحولات الفجائية الكبيرة ، تقع تحولات فجائية صغيرة . والواقع ان هذه التحولات هي الغالبة ، وانما يصعب اكتشافها . ثم ثبت ان التحولات الفجائية الكبيرة تُفقد الحي الذي تظهر فيه التوازن ومن هنا ضررها . اما التحولات الصغيرة فأكثرها مفيد او غير ضار . ومعظم علماء الاحياء الآن متفقون على ان الانتخاب الطبيعي هو افعلى عوامل التطور . وانه يتم بانتخاب ما يلائم البيئة الجديدة من التحولات الفجائية الصغيرة

فصل هـ

وقد فتح الاستاذ ملر الاميركي في العقد الاخير فصلاً جديداً من فصول « التطور » باكتشافه طريقة تصطنع هذه التحولات الضئيلة . في الاحوال الطبيعية السائدة نرى التحولات الفجائية نادرة الوقوع ، ولعلها لا تزيد على تحول واحد في ١٠ آلاف فرد من صنف ما . ولكن الاستاذ ملر اثبت ان تصويب اشعة اكس من امواج ذات طول معين الى ذبان الفاكهة مثلاً يسرع ظهور التحولات الفجائية فيه . وخطر اكتشافه من الوجهة النظرية افساد القول بأن حدوث التحولات الفجائية في الاحياء يقع من تلقاء نفسه ، واننا نعجز عن السيطرة عليه او التأثير فيه ، كما عجزنا عن التأثير في انحلال العناصر المشعة اسراعاً أو ابطاءً . ثم ان له خطراً عملياً ، لأنه قد يمكننا من استعمال هذه الطريقة ، بعد فهمها كل الفهم ، في احداث التحولات في النباتات والحيوانات ، مما يمهد السبيل الى اسراع الانتخاب الصناعي ، بدلاً من انتظار التحولات الطبيعية ، وهي بطيئة كما قدمنا

وقد تلا الاستاذ ملر استاذ اميركي آخر يدعى الاستاذ جود سپيد (من اساتذة جامعة كاليفورنيا) فعالج صنفاً من نبات التبغ بأشعة اكس فاستحدث منه صنفاً جديداً . ثم تناول بابكوك وكنز (من جامعة كاليفورنيا) تجربة الاستاذ ملر وحاولا قليلاً . ذلك انهما وضعوا

طائفة من ذبان الفاكهة في نفق محفور تحت مدينة سان فرنسكو حيث اشعاع الصخور شديد جداً . فتعرضت لبعض الاشعة المنطلقة من الراديوم او الصخور المشعة التي تحتوي على مركباته فنشأت منها اصناف جديدة لها صفات لاعهد للطائفة الاولى بها قبل تعريضها لهذه الاشعة — كلون الاجنحة وطولها وقصرها ولون العيون وغير ذلك

ويرى الاستاذ جولي استاذ الجيولوجيا في جامعة دبلن — ويجاريه بعض الفلاسفة — ان الاشعة الكونية هي التي بعثت الحياة على سلم النشوء . فالمعلوم في علوم الاحياء ان النشوء سار سيراً بطيئاً جداً بعد ظهور الحياة على الارض ثم اسرع قبيل العصر الكمبري وفي اثنائه ظهرت الوف من الانواع الجديدة . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من كل انحاء الفضاء على السواء ، وان النظام الشمسي في سيره السريع في الفضاء يخترق آناء منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتفعل في الاحياء فعل اشعة اكس في ذبان الفاكهة فتكثر فيها التحولات المفجائية فيسرع التطور وتكثر الانواع . ثم يخترق منطقة اخرى — بعد عصور طويلة — تضعف فيها الاشعة فيبطئ النشوء وهكذا دواليك

مدى الحياة على الارض

من الاتجاهات التي جدت في هذا الميدان بعد دارون ما يرتبط بطول الزمن الذي استغرقه تطور الاحياء . ففي القرن الماضي حسب لورد كلفن ان عمر الارض لا يزيد على ٤٠ مليوناً من السنين . فكان ذلك في نظر البيولوجيين قصيراً جداً لا يكفي لتطور الاحياء وبلوغها في تنوعها وتخصصها المرتبة التي بلغتها . فلما كشف عن الراديوم ، انقلبت المسألة ونقّس علماء الطبيعة رأيهم في عمر الارض ، فاذا هو اطول جداً مما ذهب اليه كلفن ، فاغتبط بذلك علماء الاحياء لان ذلك يفسح المجال لفعل التطور البطيء

فالعناصر المشعة تمكن علماء الطبيعة من تقدير عمر الصخور التي في قشرة الارض تقديرأ لا يحتمل كثيراً من الخطأ . فالراديوم يفقد قوته فقداً بطيئاً بانحلال ذراته ، فاذا مضى عليه ١٦٠٠ سنة اصبحت قوته في نهايتها نصف ما كانت في بدايتها . والسبب ان الراديوم يتحول الى شيء ليس راديوماً — سمه نفاية الراديوم — خرام من الراديوم يتحول نصفه في اثناء ١٦٠٠ سنة من راديوم صاف الى نفاية الراديوم واذن فقوة الراديوم قد نقصت نصفها لان قدر الراديوم قد نقص نصفه . فاذا أعطينا مزيجاً من الراديوم ونفايته كان في الامكان أن نعلم مدى تحول الراديوم حتى أصبح له هذا القدر من النفاية . وما يعلم عن الراديوم يعلم عن العناصر المشعة المختلفة . فقد قاس العلماء مدى انحلالها وتحولها من شكل الى آخر فعنصر الاورانيوم يستغرق نحو ٤٥٠٠ مليون سنة ل يتم فيه هذا الفعل

وفي قشرة الارض يعثر الجيولوجيون على قدر من الاورانيوم ونفايته في صخر من الصخور .

وقد ثبت ان مقدار النفاية في كل ما وجد اقل من مقدار الاورانيوم نفسه، أي أنه لم يعض على الاورانيوم ٤٥٠٠ مليون سنة وهي المدة التي يستغرقها لتحول نصفه الى نفاية. على هذا الاساس يقدر العلماء عمر الارض بنحو ٣٠٠٠ مليون سنة وعمر الصخور الرسوبية بما لا يقل عن ١٥٠٠ مليون سنة والمرجح ان الحياة ظهرت على الارض من نحو الف مليون سنة. ولما كانت الصخور الاولى قد تعرضت لضغط شديد وحرارة عالية في اثناء تكون القشرة الارضية فمعظم آثار الاحياء الاولى قد زالت، أو هي لشدة الضغط والحرارة لا تمكن معرفتها الآن. واقدام الصخور الرسوبية التي توجد فيها آثار متحجرة للاحياء يرجع تكوينها الى نحو ٥٠٠ مليون سنة، وكانت اشهر طوائف الحيوانات قد ظهرت حينئذ مثل الديدان، والاحياء السرطانية، والاسفنج اما الحيوانات الفقارية فلم تظهر الا من نحو ٤٠٠ مليون سنة. ولم تستعمر الاحياء اليابسة الا من نحو ٣٠٠ مليون سنة وفي ذلك تقدمت النباتات على الحيوانات. اما الحيوانات الفقارية التي استعمرت اليابسة اولاً فهي الامفيبات (مثل السلمندر) وظهرت الزحافات من نحو ٢٥٠ مليون سنة ثم الطيور، واما الحيوانات الثديية فمن نحو ١٥٠ مليون سنة. على ان الطيور والحيوانات الثديية الاولى كانت تختلف كل الاختلاف عن مثيلاتها في هذا العصر. فالطيور والثدييات التي من الطراز الحديث ترد الى فترة تقباين من ٥٠ الى ١٠٠ مليون سنة. وهذا يصح كذلك على النباتات الزهرية وعلى انواع الحشرات

ان زمن وجود الانسان على الارض، ازاء هذه العصور المتطاولة يكاد يكون كطرفة عين. فاقدم آثار الانسان وادواته ترجع الى مدة لا تزيد على مليون سنة. وليس ثمة شك في ان انفصال الانسان عن اصله المشترك مع القرد تم من نحو خمسة ملايين سنة الى عشرة ملايين. وكان الانسان الاول اشد شبيهاً بالقروء منا. فالانسان العصري من الوجهة البيولوجية حديث العهد لان معظم الآثار التي خافها لا ترتد الى ما قبل ١٠٠ الف سنة

بهذه الروح يجب ان ينظر الانسان الى مستقبله. فعلماء الطبيعة والفلك يقولون بان امامنا عصوراً متطاولة لا تقل عن العصور التي وراءنا، وقد تنقضي ١٠٠٠ مليون سنة اخرى قبلما تبرد الارض حتى تصبح الحياة على سطحها متعذرة وهي طول المدة التي استغرقها نشوء الجنس البشري من المنطقة الحية الاولى. فليس ثمة سبب يحملنا على الاعتقاد باننا القمة التي يمكن ان تبلغها الحياة. وباتساع نطاق المعارف يجب ان يتمكن الانسان من الاكباب على ترقية جنسه. فالزمن امامه ممتد الى ثانيا المستقبل البعيد، وهو الكائن الوحيد، على ما نعلم، المتصف بصفة الشعور (Consciousness) بها يستطيع ان يتجرد عن نفسه هنيهة ليرى علاقته بالكون الذي يحيط به ومصير السيار الذي يقطنه. بها يستطيع، اذا شاء، ان يكون الامين على فعل التطور فيسير به الى غاياته المجيدة!

مصير العالم الاقتصادي

الغيوم المتلبدة في الجو واشعة الامل الضئيلة

— ١ —

ان المشكلة التي يعانها العالم الآن وتشتد حاجته الى حلها تختلف عن المشكلة التي كان يعانها من سنة. فن سنة كنا نسأل كيف نستطيع ان نخرج من الازمة الصناعية والتجارية بزيادة ما ينتج من البضائع حتى يعود الى مستواه الطبيعي. اما الآن فالمشكلة الاساسية هي « كيف نجنب انهيار النظام المالي ». فليس ثمة امل في اعادة الانتاج الى مستواه الطبيعي في المستقبل القريب . وجهودنا متجهة الآن الى تحقيق آمالٍ اضيق نطاقاً من ذلك تدور حول استطاعتنا ان نمنع انهيار البناء الذي يقوم عليه النظام الرأسمالي ؟ واذ نرى افلاس الزعامة المالية في بلدان العالم والاختفاء المستولية على اذهان اولي الامر من حيث اسباب الازمة وعلاجها ، يأخذنا العجب ويستولي علينا الشك في امكان ذلك . على كل حال لا يختلف اثنان في ان اجتناب الانهيار المالي مشكلة اجدر بالعناية الآن من محاولة انعاش الصناعة وانتشالها من ركودها . ان الاسباب المباشرة للذعر المالي العالمي — والازمة الحاضرة ليست الا ذعراً — واضحة . فهي ترتد الى هبوط القيمة النقدية للبضائع وغيرها من السندات المتباينة . فزالت بذلك الثقة التي يقوم عليها نظام المعاملة الحالي القائم على « الكريدي » . وفي كثير من البلدان اصبحت ممتلكات البنوك ، اذا قدرت قيمتها تقديراً محافظاً ، لا تعادل ما عليها من الديون لاصحاب الودائع فيها . وامسى المدينون يرون ان ودائعهم لا توازي ديونهم . وقل بين الحكومات حكومة تجدد في دخلها ما يكفي لسداد ديونها

ثم ان انهياراً كهذا يغتذي بنفسه . فنحن الآن في طور من اطوار الازمة يمتاز بان خطر الخسارة الذي يعرض له اصحاب الودائع يحملهم على الذعر فالتسابق الى تصفيتها . وكل من ينجح في تصفية ودائعه يخفض بعمله ثمن الودائع الاخرى التي في دور التصفية ، فيشتد الذعر وفقد الثقة والزحام على التصفية مهما تبلغ الخسارة . والزحام على التصفية قد تعدى الآن الافراد والشركات الى الامم والحكومات . فكل حكومة تحاول الآن ان توازن دخلها وخرجها بتحديد الواردات وبذل السعي لزيادة الصادرات . ونجاح اية حكومة منها في مسعاها معناه خيبة حكومة اخرى تسعى السعي نفسه . ثم ان كل امة تثبط من همة اصحاب الاموال الاجانب

الذين يريدون تدمير اموالهم فيها خوفاً من زيادة جانب الدين في موازنتها العالمية . ومع ذلك فان مدى نجاحها يتوقف على بذلها لجاراتها في منع كل منها الاموال الاجنبية من ان تثمر فيها فلنا في هذا مثل بليغ على « التنافر » بين الافراد والامم . ان كل امة في محاولتها تحسين حالتها بالنسبة الى حالة جاراتها ، تسلك سبلاً تضر برخاء جاراتها . ولما كان عملها غير مقتصر عليها ، فانها تخسر بما تفعله جاراتها من هذا القبيل اكثر مما تجنيه بعملها هي . والواقع ان معظم العلاجات المقترحة الآن هي من هذا النوع الفشاك . فالمسابقة الى نقص اجور العمال ، وتعليق الحواجز الجمركية ، وتصفية الممتلكات والودائع الخارجية ، وتخفيض قيمة العملة ، وحث الناس على التوفير ، كلها من هذا القبيل . ولا يخفى ان خرج الانسان الواحد دخل الآخر . فاذا امتنعنا عن الانفاق وقرنا ولا ريب مبلغاً من المال ، ولكننا ننقص بعملنا هذا ثروة آخر . فاذا فعل كل الناس الفعل نفسه نقصت الثروة العامة . فقد يضطر احد الناس ان ينقص نفقاته اضطراراً فيفعل وليس ثمة من يلومه . ولكن عمله هذا ، يجب الا يحسب عملاً وطنياً نبيلاً اذا لم يفعله مضطراً . فالتمول العصري اشبه شيء بربان لا يحب السفر الا في البحر الرهو . فاذا هبت العاصفة تخلى عما يجب عليه من تبعة الملاحه ، بل هو ، في محاولته تخليص نفسه باغراق جاره ، كأنه يحرق المركب الذي قد يعود به سالماً الى البر .

ومن نكد الدنيا ان الذهن العام قد تربى تربية بعيدة عن الحقيقة والمنطق السليم . فالانسان المتوسط قد تعلم ، بما يكتب ويقال ، ان ما يقضي به عقله السليم ، من ان التبادل اساس الفلاح ، قول باطل . ولقد فقد الناس ثقتهم بالعلاجات الناجعة ، لان تطبيقها كان يعوزها الجرأة والحزم . ولعل الاختبار القاسي علمنا فاصبحنا اميل الى الاخذ بنواصي الحكمة . ولكن زعماء الامم السياسيين كانت تعوزهم البصيرة والجرأة والحزم في تطبيق العلاجات الناجعة تطبيقاً حاسماً . فاستفحلت الازمة حتى لقد يفقد النظام المالي العالمي مرونته ومقدرته على الانتعاش وفي الوقت نفسه نرى مشكلة التعويضات وديون الحرب غيمة قائمة يكفهر بها الجو . ونحن نعلم ان ليس ثمة امل في تسديد مبالغ كبيرة منها . ومشكلتها ليست مشكلة مالية ، بل سياسية ونفسية معاً . فاذا اقترح الفرنسيون ، في المستقبل القريب ، اقتراحاً معتدلاً معقولاً ، لتصفية المسألة تصفية نهائية فالراجح ان الالمان يقبلون ، رغم اعتراضهم بعجزهم عن الدفع ، وعندي انهم يحسنون فعلاً بالقبول . ولكن الظواهر تدل على ان الفرنسيين مصممون على رفض اي حل من هذا القبيل مؤثرين خلق حالة تحمل المانيا على اعلان عجزها رسمياً عن التسديد . فرجال السياسة الفرنسيون (ومثلهم رجال السياسة الاميريكون اذ يعربون صراحة عن رأيهم) يفضلون ، بسبب المناورات الحزبية في بلادهم ان يخسروا كل شيء بعجز المانيا ، على التسليم بقبول مبلغ معتدل منها . ثم انهم يرون ان عدم التسليم بنقص التعويضات وتوقف المانيا عن الدفع ، حرج يمكن استعالمها

ولو ان بريطانيا تمكنت من الاحتفاظ بالذهب اساساً لعملتها، لكانت حالة العالم البعث على اليأس، والافلاس اوسع انتشاراً. ذلك ان عمل بريطانيا اسفر عن نتيجتين خطيرتين . الاولى انه وضع حدًا لهبوط اثمان العروض بالعملة المحلية المختلفة، في بلدان مترامية فوق سطح الكرة. اذكر اسماء البلدان المرتبطة بالجنيه الاسترليني بدلاً من الذهب تجد بينها استراليا والجزائر التي حولها والهند

وسيلان ومالايا
وافريقية الشرقية
والغربية، ومصر
والبلدان
السكندينية -
ثم هناك جنوب
اميركا وكندا
واليابان فانها
مرتبطة بالاسترليني
فعلاً ان لم يكن
اسماً. وانك لا تجد
في خارج اوربا الا

لا نجد موضوعاً اجمع لعناية الناس في هذا العهد من موضوع «الازمة الاقتصادية العالمية» وبواعثها ووسائل علاجها. لذلك عنيان بنواحي هذا البحث فنشرنا «رواية الازمات الاقتصادية» وقصة الجنيه الاسترليني «وبحثاً في «مال التعويض وديون الحرب». وها نحن اليوم نلخص فصلاً لعالم من اكبر علماء الاقتصاد المعاصرين «جون مينرد كينز» الذي كان الممثل الاول للخزينة البريطانية في مؤتمر فرساي ومؤلف «رسالة في الاحتمال» و«نظرية النقد: مجردة ومطبقة» و«النتائج الاقتصادية لمعاهدات السلام»

الولايات المتحدة وجنوب افريقية بلاداً لا تزال عملتها على اساس الذهب . وليس بين الامم الكبيرة الا فرنسا والولايات المتحدة الاميركية حيث العيار الذهبي اساساً حر المعاملات والخروج عن قاعدة الذهب افضى الى تخفيف الضغط الناشئ عن ارتفاع سعر العملة وانخفاض سعر البضائع . ففي بلدان مترامية يحصل المنتج الآن على اسعار لبضاعته - بعملته

ضدّ ألمانيا في حلّ المسائل المعلقة بين البلدين التي خلقتها معاهدة فرساي. وعليه فلست ارى شعاعة امل في هذه الناحية من الاقتصاد الدولي - ٢ -
لقد رسمت الصورة بأقلم الالوان . فهل للصورة وجهة اخرى؟ وما هي عناصر الامل التي يمكن تبينها في هذا القتام؟ واي عمل مفيد نستطيع القيام به لاجتناب الكارثة؟

الباعث الاول
على الامل ان النظام المالي ابدى حتى الآن قدرة غريبة على احتمال العبء الذي اناخته عليه الازمة الحالية. ولو ان احد تنبأ من سنة ان الحالة سوف تبلغ ما بلغت اليه الآن، لما كان احد يستطيع ان يتصور ان الامور تسير

في اعنتها الطبيعية كما هي سائرة الآن . وإن مقدرة النظام الرأسمالي على تحمل تبعه اخطائه من دون ان ينهار اقوى بواعث الامل على امكان تأليب القوى المعمرة لانتزاع الفوز من انياب الفشل ثم انني ارى ان خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب حادث خطير لم يتح لنا بعد ان تقدر الفائدة العظيمة التي تجني منه . فانا اعتقد انه ينطوي على مغزى مفيد في دائرة واسعة النطاق.

الخاصة ببلادهم — اذا قيست بديونه ونفقات انتاجها لم تكن باعثة على السخط . وهذه الحوادث قريبة العهد لم تفر بالعناية الوافية بها بعد . وثمة بلدان كثيرة ، يصح ان نقول عنها ، انها من الوجهة المالية والاقتصادية قد اخذت ترتفع من الحضيض ، بعد خروج بريطانيا عن قاعدة الذهب . وهذا قول يصحح على استراليا مثلاً . وعندى انه قد يصدق على الأرجنتين والبرازيل . وقد تحسنت الحال في الهند تحسناً بادياً ، حيث خرج الذهب ، الذي كان مخبوءاً قبلاً بسبب غلاء الجنيه الاسترليني ، فساعد خروجه على حل المشكلة المالية فيها

اما بريطانيا نفسها فاننا ننسى غالباً التحول الكبير الذي تم فيها بعد سبتمبر الماضي . وهذا التحول ان لم يكن تحسناً مطلقاً فانه نسبي على الاقل . فعلمها العاطلون عن العمل يقلدون الآن ٢٠٠٠٠٠ عامل عما كانوا عليه في سبتمبر الماضي — وليس هذا مما يصدق على اي بلد صناعي آخر . وقد تم هذا رغمًا من ارتفاع الاجور الفعلية وهو من بواعث التشجيع للمستقبل . فبريطانيا في الاعمال التي تمتاز بها اصبحت الآن ارخص منتج في العالم ، والقوى التي اطلقت بخروج بريطانيا عن قاعدة الذهب جعلتها اكثر البلدان فلاحاً

ولكن ثمة نتيجة ثانية من انقسام امم الارض الى فريقين — الفريق الذي خرج عن قاعدة الذهب والآخر الذي لا يزال محتفظاً بها — فالفريق الثاني بما له من الديون جعل يضغط على اسعار السندات فأنخفضت فأنجبه تيار الذهب اليه تسديداً لما له من الديون . واما الفريق الاول فهو الذي كان متأثراً بهذا الضغط وكان الذهب يخرج منه متجهاً الى الاول . فخرج هذا الفريق عن قاعدة الذهب خطوة في سبيل اعادة التوازن الاقتصادي . وسوف يظهر اثره المباشر في فرنسا ، التي ينتظر ان تضعف مكائنها كأمة دائنة قبل آخر سنة ١٩٣٢ . واهم البواعث عليه هو — توقف المانيا عن دفع مال التعويضات ، وخسارة فرنسا من اموال السياح الذين كانوا يؤمونها من اميركا وانكلترا وغيرها ، وضعف تجارة الصادرات فيها ازاء البلدان التي خرجت عن قاعدة الذهب (لان بقاء فرنسا على قاعدة الذهب يجعل ثمن بضائعها في بلد ما اعلى من ثمن البضائع الانكليزية) وازدياد مقادير الذهب في خزائنها

وقد لا يتم الاثر نفسه في الولايات المتحدة الاميركية بمثل السرعة التي يتم بها في فرنسا ، لان اموال السياح الاميركيين التي تخسرهما فرنسا هي وفر في حساب اميركا . ولكن الاتجاه واحد ، تم عاجلاً او آجلاً . ولا بد ان يأتي يوم يعدل فيه الذهب الخارج من الهند والمستخرج من المناجم الذهب المخزون في فرنسا واميركا . وهكذا بدأت حركة قد تنتهي الى تعديل فعل « التقلص المالي » . والمسألة الآن « هل يتم ذلك قبل انهيار النظام المالي العالمي ؟ » فاذا تم فالراجح ان السبيل بمهدٍ لعمل مشترك ، وارجح ان يكون بزعامة بريطانيا ، غرضه توسيع نطاق رؤوس الاموال ورفع اثمان العروض في بلدان العالم . واذا لم يتم فاني لا ارى الا زوال نظام

«الكريدي» القائم الآن فيتلوهُ نظام جديد يقوم على اسس جديدة وما يلي هو في رأيي تسلسل الحوادث التي قد تقضي الى الخروج من المأزق الذي نحن فيه — اسوقها من دون ان ابيد رأيي في احتمال حدوثها . قد تتلاشى الازمة قبل حدوث الانهيار ولعل ذلك واقع الآن . ولعلنا اجتزنا او عر الحوائل في بضعة الشهور التي انقضت . وفي الوقت نفسه يخفُ الضغط التقلصي الذي تحدته فرنسا والولايات المتحدة الاميركية بفعل ما لها من الديون الخارجية ، اذ تقل ديونهما بفعل القوى التي وصفت . وحينئذ ندخل طوراً تكون فيه النقود رخيصة . وهذه هي المرحلة التي كان يبدأ عندها الانتعاش في الازمات السابقة . على اني لست واثقاً من ان رخص النقود يكفي الآن ، لان صاحب المال ، وقد تبددت اوهامه في اثناء الازمة ، قد لا يرضى باقراضها الا اذا اعطي فائدة كبيرة لا يرجو المقرض ان يجني ربحاً يوازيها . فاذا حدث هذا فلا مناص من ان تطول الازمة وقد لا تنتهي الا بتدخل الحكومات لتشجيع تسمير الاموال وتأييده

— ٣ —

ويجب ان نذكر أن الازمة التي نعانيها ليست ازمة « فقر » بل ازمة « كثرة وفيض » . ان ما نشكوه ليس سببه بخل الطبيعة وإمساكها بل هو ضعفنا وخطأنا في جني ثمار العلم والطبيعة التي تغدق علينا ثمارها . ان الاصوات التي تدعو الى ان سبيل الخلاص هو سبيل التوفير الدقيق والامتناع عن الانفاق لهي اصوات الحمقى

ومن الواضح ان حل المشكلة الاقتصادية العالمية اليوم اصعب منه في السنة الماضية . ولكنني اعتقد اننا نستطيع الآن — كما كنت اعتقد حينئذ — الخروج من المأزق اذا اخذنا زمامنا بأيدينا . فالحوائل دون الانتعاش ليست حوائل مادية . بل هي قائمة في معرفة اولي الحل والربط واحكامهم ، ومن نكد الحياة ان معتقداتهم نشأت من خبرتهم في احوال ماضية لا تماثل قط احوالنا الآن . ففي فرنسا نجد اتجاه الشعب والحكومة مناقضاً لمنطق الآراء والحوادث الذي بسطت . وفي الولايات المتحدة يتحتم على المشتغل بالشؤون العامة ان يقول لغواً كثيراً للاحتفاظ بمكانته العامة . اما في بريطانيا فعندي ان آراء رجال البنوك اسلم وانما الامر الذي نخافه في لندن هو الاحجام عن التصرف تصرفاً جريئاً وليس اجدي على حسن المصير الاقتصادي من ان تتقدم الولايات المتحدة الاميركية صفوف الامم بحل مشكلاتها الخاصة فيكون ذلك باعثاً ومشلاً للامم الاخرى . ولكنني والحق يقال لست ارى في المستقبل القريب ما يجعل انتعاش الصناعة الاميركية محتملاً . بل ارى ان الولايات المتحدة سوف تقفني اثر غيرها . ولذلك أجزؤ فأمل أن الانتعاش سوف يبدأ في بريطانيا والبلدان التي ترى في بريطانيا مركزاً للزعامة المالية . انه شعاع ضئيل من الامل . ولكن النور الذي أتبينه في النواحي الاخرى أضال

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

مصر الاسرة الشرقية

﴿ الاسرة ﴾ : يطلق الغربيون كلمة (فاميليا) على الاسرة وهي كلمة رومانية انتقلت الى اللغات الاوربية الحاضرة بلفظها ، واصل اشتقاقها من كلمة (فامل) بمعنى الرقيق او الممتلك الدليل الذي يمتلكه السيد، ويدل هذا الاشتقاق الوضع على معناها في الازمنة الحالية ، ثم شملت فيما بعد غير ذلك من الممتلكات المنزلية في الاشياء والاشخاص ، ففي الشريعة الخامسة من شرائع الالواح الاثني عشر الرومانية التي وضعت في القرن الخامس قبل المسيح ان الرجل اذا مات من غير وصية يوصي بها ولم يكن له وارث شرعي فان اقرب المتصلين به باواصر القرابة العصبية — من جهة الذكور فقط — يرث (الفاميليا) التي يخلفها من بعده وهي الثروة «العائلية» بانواعها في الاشخاص والاشياء وقد لا تختلف هذه النظرة كثيراً عن نظرة العرب في الجاهلية اذ كان الميت يورث من بعده الاشياء والاشخاص معاً حتى امرأته فيحل لابنائهم من غيرها ان يتزوجوها كما اسلفنا وان لهذه النظرة الابتدائية الى المرأة بانها سلعة اقتصادية اشباهاً ونظائر في الاقوام المتوحشة ، وعندنا ان المساومة على المهور في الشعوب التي قطعت شوطاً في المدنية بعيداً هي من بقايا هذه النظرة الابتدائية الحقيرة . ويمكننا ان نضع قاعدة عامة فخواها ان الوسط الذي يبني فيه الزواج من الاساس على مقياس الفائدة الاقتصادية هو وسط ابتدائي في الروح الخيمة عليه ولو كان في حواضر البلدان الغربية في اوربا واميركا

ومما نورد في هذا الباب عن القبائل المتوحشة ونظرتها الى المرأة والزواج نظرة اقتصادية بحثاً ما حدثنا به صديقنا الفاضل الدكتور راجي خباز عن قبيلة (الدنكا) — وهي قبيلة منتشرة في الاصقاع من اعالي النيل الى بحر الغزال — فقد قال ان الزواج بين افرادها يجري من غير شيء من الشعائر سوى الرقص والغناء ويتم باتفاق اهل الخطوبة مع الخاطب على المهر وهو من البقر دائماً ، لان البقرة هي مقياس النقد عندهم . والاساس في الزواج هو استيلاء الاولاد لاستخدامهم في مصالح الزوج الاقتصادية . وكثيراً ما استولد الرجل العاقر امرأته من رجل آخر على طريقة زواج الاستبضاع في الجاهلية فان لم تلد بهذه العارية حق له ان يعيدها

الى اهلها ويسترد مهرها من البقر ولو بعد عشرين سنة . والبقرة المؤداة مهراً تبقى في مثل هذه الحال وفقاً على الزوج ينتفع بها فما ولدته يكون له وما مات يكون عليه . لكن هذا الحق الموقوف يسقط حالما تلد الزوجة ولداً ، كأن المولود الجديد يعادل البقرة في الاعتبار الاقتصادي ومن عادة (الدنكا) ان الزوجة اذا ماتت في اثناء الولادة وهي بكرية تعد زانية زنى بها احد اهلها ، وتذكر وهي تلد جميع من اتصلوا بها فمن صادف اسمه زول المولود يكون اباه حتماً ، ولكن مع ذلك لا يحق له ان يدعيه بل يبقى للزوج صاحب البقر فكان الزوج والحالة هذه قد أدى قيمة البضاعة — (على بوليصة الشحن) — فصارت ملكه ولا عبرة بالذي صنعها . واذا كان لرجل ابنة غير متزوجة فولدت ولداً فان هذا المولود يكون ملكاً له — لا لأنه جده لأمه بل لأنه امهر جدته بقرأ حين تزوجها ، فالحفيد مملوك بحق البقر لا بحق القرابة ! واذا اشتكى زوج من زوجة انها زنت برجل حق له ان يقاضيه ويأخذ منه بقرة ثمن الزنا ، ويتكرر هذا الحق بتكرر العمل المنكر مرتين او ثلاثاً ثم يزول اذ تصبح المرأة مومساً . والدنكيون مقتبون — يتزوجون نساء آبائهم من بعدهم — ولكن مع كل هذه الاوضاع الاقتصادية الابتدائية فهناك من حين الى آخر زواج قائم على الحب المتبادل والهرب الى الاقطار البعيدة فراراً من ضريبة البقر

✽ الانقلابات الاقتصادية الحديثة وتأثيرها في الاسرة ✽ : ذكرنا بشيء من التفصيل العامل الاقتصادي في الشؤون الزوجية وعرضنا للمتوحشين لان مجتمعهم بسيط وذو فائدة في فهم المجتمع المدني المعقد ويزيد على ذلك ان الاسرة بقيت الى زمن قريب في جميع انحاء العالم وحدة اقتصادية من الطراز الاول ففيها كانت تصنع الغزول والانوال وانواع الحياكة والادوات الزراعية وغير ذلك من الآلات . هذا كان حال اوربا واميركا في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ولا يزال في كثير من أنحاء الشرق . بل ان المصنوعات البيتية في يومنا هذا ربما بلغت ملايين الريالات في الولايات المتحدة ، الا ان التطورات الخطيرة التي اصابته الغربيين في شؤونهم في السنين الخمسين الاخيرة احدثت انقلاباً عظيماً في حياتهم « العائلية » وتهدد هذه التطورات الوحدة البيتية من اساسها على الرغم من جميع المواعظ والخطب والعقائد التي استحكت في نفوس البشر الوف السنين ، لان اشتراك المرأة الغربية في الصناعة وسعيها لاكتساب المال بالاعمال ونزولها الى حلقة الصراع في المشروعات الخاصة والعامة وطرقها ابواب الحكومات والشركات للتوظيف كل ذلك اعطاها من قوة الاستغناء ما جعل ارتباطها بالاسرة اختيارياً وتعلقها بالرجل « كفيماً » حتى اصبحت البيوت كما قال احد الاساتذة عبارة عن مساكن او (بنسيونات) يؤمها الناس فيؤدي كل واحد منهم قسطه من المصروف ويحيا حياة مستقلة . واذا كانت المرأة من الوجهة الحيوية مخلوقاً يحمل ويولد الاولاد ومن الوجهة النفسية والاجتماعية معلماً في روضة الاطفال ومعلماً في الدروس الابتدائية فن ادعى دواعي الاسف

ان تصبح هذه الوظائف الكبيرة في اوربا وأمريكا مهددة من الاساس لان المنازل هناك لم تعد مساكن السواد من النساء بل مساكنهن المعامل والمصانع والمكاتب والحوانيت ودوائر الحكومات . فهل تبلغ الحاجة الاقتصادية في العالم العربي يا ترى مبلغاً تضطر معه المرأة الى هجر بيتها في طلب الرزق كما تفعل زميلتها الغربية ام يبقى لديها متسع تحافظ فيه على القيام بوظائفها الطبيعية التي خلقت في بدنهما منذ ظهر هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً على ظهر الارض ؟ هذا سؤال يتوقف الجواب عنه على سير المدنية في العالم العربي في المستقبل وهل يكون هذا السير طبق المدنية الغربية ام سيراً خاصاً له ميزاته القومية وتقاليده الوطنية . ولا مرأ ان السيدة الشرقية ستبقى الى زمن بعيد امرأة وان كثرت بيننا النساء المترجلات او المحترفات وصاحبات المهن ذلك لان نتيجة الصدام بين الحضارتين الشرقية والغربية هي مثل سائر انواع الصدام بين القديم والحديث حضارة معتدلة بين الاثنين او تسوية وسط في الشؤون التي تتناول جواهر الحياة — اما اذا كانت هذه الشؤون جوهرية فالتقليد والمجاعة امر لا مفر منه . يعني ان الانقلاب الاقتصادي الحاضر اذا كان من لوازمه الضرورية المبرمة نزول المرأة الى حلبة العمل الخارجية وهذا ما لا نؤمن به — فلا مفر لنسائنا من المجاعة وتكليف النفس والا فالحكم قاس يتعلق بالبقاء او الانقراض ولا ثالث لهما

وقد دل الاحصاء في العالم الغربي على العمل العظيم الذي تضطلع به المرأة في الاقتصاديات في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٠ مثلاً كان اكثر من خمسة عشر في المائة ممن يتناولون الاجور في المصانع والاعمال الميكانيكية نساء فوق العاشرة من العمر . اما نحن وقد نشأنا في بلاد وسيعة لم تبلغ المزاحمة الاقتصادية فيها ما بلغته في ديار الغرب فنشك كثيراً في الربح الذي يجنيه المجتمع من خروج المرأة عما خلقت له ، واذا كنا من اكبر انصار تحرير المرأة — وقد حررناها في بيوتنا فعلاً في اعصاب الاوقات وحاربنا استعبادها كما نحارب اقصى انواع الظلم والاستعمار — فهذا لا يمنع ان نكون من القائلين بأن الطبيعة حكمت على المرأة وعلى الرجل بتقسيم الاعمال ووسمت كل منهما بوسم خاص للدلالة على هذا التقسيم ، لذلك ترى في موقفنا الحاضر الميسور ان قطرة من اللبن تدرّ مع الحنان من ثدي المرأة في فم رضيعها خير من كومة من الابرز تجمعها لتثبت بها احتقارها للأسرة واستغناءها عن الرجل . وارجو الا يستنتج القارئ من كلامي هذا انني عدو عمل النساء في جميع الاحوال بل ارى ان العمل الذي يقوم بأود البنت فيحول دون تهافتها على اول عريس تلقاه خير من بقائها كلاً على عاتق اهلهما بحيث تعرض في سوق الزواج بأرخص الاسعار

اننا نريد ان يعمل النساء ولكن في الحدود المستبانة من روح كلامنا وفي المنطقة التي تميناها لهن الخلقة والطبيعة . والقاعدة التي يمكن الركون اليها في هذا الصدد هي ان يكون

عمل المرأة الخارجي هو لدفع الحاجة اكثر منه لجلب الثروة . ولا مرأى في ان اشتراك النساء في كثير من الاعمال التي اختصت بالرجل قد خيَّب آمال اشد الناس اندفاعاً في تأييد هذا الاشتراك والدعوة اليه ، فقد يخضن غمار السياسة ويمارسن حقوق الانتخاب مثلاً ولكن رأي معظمهن عند التصويت قد يبنى على مظاهر لا تهتم الدولة ولا تروق الرجال المدربين ، ومن افطع الكوارث التي تنصب على رأس المجتمع البشري ان يتخنت الرجل وتترجل المرأة ﴿ تولد الميزات العقلية الاجتماعية في الاسرة ﴾ : من اعظم الحجج التي يدي بها علماء الاجتماع على وجوب الاحتفاظ بالاسرة ونظامها هي الميزات العقلية الاجتماعية التي يكتسبها الابناء في حجر ابويهم وبين اخوتهم واخواتهم . فالبيت مدرسة نفسية من الطراز الاول يتعلم فيها النشء الحب والتعاون والايتار والصبر وكبح جماح النفس بالطرق العملية فتولد في افرادها الارادة ويرتقي الحزم وهذه كلها صفات عقلية يبنى عليها المجتمع وزوالها يذهب بجميع تلك الخصائص التي ميزت الجمعية البشرية عن قطيع من السائمة « وفن المعيشة المشتركة بالوثام والاستفادة هو فن اساسه الحب الناشئ عن الوحدة العائلية »

﴿ تحرير الافكار وآثره في الروابط العائلية ﴾ : لقد انسابت عوامل تحرير الافكار الى جميع الطبقات ودخلت معظم البيوت حتى البيوت التي تنقاد للطريقة القديمة حيث يطبع الابناء بطابع الوالد المبجل عادة ويسيرون على سننه في كل شيء فغيرت هذه العوامل هذا الطابع العقلي او القلب الروحي ولم يعد الشذوذ عن سيرة الوالد في السياسة والافكار انشقاقاً يستحق صاحبه الجزاء والاضطهاد . ولا سلطة اليوم في ديار الغرب لوالد على ولده في النحلة والفكرة والمذهب السياسي الا ما كان بسبيل البرهان والاقناع والاتفاق

وغني عن البيان ان مثل هذا التحول يقوي الفردية الاجتماعية الغالية متى كان سليماً ومبنيّاً على قواعد التربية الحرة ، ولا خوف منه على كيان الاسرة بل الواجب ان يشجع الى درجة معقولة ، ذلك لان الجلود مرض عضال والسير في الحياة اجيالاً متتابعة على نمط واحد يحول دون الارتقاء . وقد تغيرت نظرات الناس في السياسة والعقيدة والتهديب منذ جيل الى اليوم تغيراً كلياً حتى صارت الصدمات القاسية التي كان يلاقها بعض زعماء الاصلاح امثال الشيخ طاهر الجزائري في سورية وشكري افندي الالوسي في العراق والشيخ محمد عبده او قاسم بك امين في مصر اشبه في نظرنا بمداعبات ومهارات منها بمواقف جدية ذلك لان الرأي العام اخذ في الاختمار وصار الطعن في الرجال للعقائد التي يدينون بها عن اخلاص سمجاً تأنفه النفوس . بل لا نخطيء اذا قلنا ان القضية انعكست وصار الاستسلام الاعمى للعقائد والنظريات التي درج عليها الآباء والجدود من غير تمحيص علمي عيباً يتجنبه النابهون . ومن اهم التطورات الفكرية التي استجدت في ميدان العلم الا يقبل الباحث رأياً من غير ان يعرضه لمطارق الشك

واذا نام المتقدمون على راحة اليقين فقد صحونا نحن على تعب الشك لكن هذا الشك قد ادى الى ما نراه من الانقلاب الخطير في العلوم المادية والمعنوية

«هل نتبع الغرب في تصغير الاسرة» : ان الضرورات الاقتصادية الحديثة حكمت على الغربيين بتصغير اسرتهم اذ عرفوا ان الاولاد الكثيرين الذين ينشأون في بيت معوز وينحشرون في غرف ضيقة ولا يحصلون على غير الكفاف من العيش والراحة والنزهة هم اضعف من ولد واحد او ولدين اثنين يترعرعان في رخاء ويتمتعان من عناية الابوين بالقسط الوافر مادة ومعنى . واذا نحن لم ننكر ان العادات الاجتماعية الطبيعية تضمن الضمان الكافي في الاسرة الكبيرة حيث ينمو الاطفال في بيئة تتناسب مع مداركهم وتدرجهم في المشاعر والعواطف والاختيار وهم بعيدون عن الاختلاط الدائم بالمراهقين والبالغين الا ان الاضرار التي تصيبهم من العسر وقلة ذات اليد تربي كثيراً على هذه الفضائل الاجتماعية . وقد لاحظ اهل التبعية ان الميل الى تصغير الاسرة في ديار الغرب سار كتماق الى كتف مع تناقص الاراضي الزراعية وضيق ميادين العمل . اما الناس في عالمنا العربي فلا تزال هذه الاراضي متسعة امامهم في كثير من الاقطار كبلاد العراق مثلاً حيث يوجد نحو ١٣ مليون فدان لاربعة ملايين من السكان والديار الشامية حيث عشر الارض فقط (او نحو ستة آلاف ميل مربع) يستثمر بالطرق الزراعية . اما مصر ففيها نحو سبعة ملايين فدان لخمسة عشر مليوناً من الاهلين وهذا يقضي بشيء من الاشراف على المواليد وضبطها وتحديدتها في القريب العاجل هذا اذا شاء ابناء وادي النيل ان يحسنوا النسل في النوع لا في المقدار

وقد لوحظ ان هنالك عوامل متعددة هي السبب في صغر الاسرة في بلدان الغرب منها التأخر في سن الزواج وتحديد المواليد وانتشار الامراض المعقمة وغير ذلك من العوامل . ففي كتاب للدكتور (مورو) عنوانه « الامراض الاجتماعية والاسرة » ان خمساً وسبعين في المائة من العمليات الجراحية التي تعمل للنساء وثمانين في المائة من جميع الوفيات الناشئة عن الالتهابات الخاصة بهن هي مسببة عن العدوى التناسلية . وعنده ان خمسين في المائة من النساء المصابة بالامراض التناسلية تصبح عقيمة وان معظم الزواج العاقر ليس اختياراً بل اضطراباً بسبب الامراض . وعلاوة على ذلك فالمشروبات الروحية — عند كثير من علماء الطب — متى استحكمت في الآباء اضعفت النسل وانقصته ، يدلنا على ذلك ما قام به الدكتور (هدج) من التجارب التي اجراها على الكلاب اذ وجد ان ثلاثة وعشرين جرواً نزلت من صلب كلبين ابوين اسقيا الحمر لم يعيش منها غير سبعة عشر في المائة في حين عاش تسعون في المائة من خمسة واربعين جرواً من ابوين لم يذوقا طعم الراح ثم اننا لا يهمنا عدد المواليد بقدر ما يهمنا الطاقة على تربيتهم والعناية بهم . وقد ثبت ان اشتغال المرأة المتزوجة في المعامل يقلل من هذه العناية ويدعو الى هلاك الكثير منهم .

وقد أجرى الدكتور (جورج ريد) وهو طبيب مقاطعة (ستفوردشير) في انكلترا احصاء في هذا الصدد فتبين له ان الوفيات في الاطفال دون السنة الواحدة من العمر في ست مدن من مدن الخزاين هي ١٤٦ في كل الف من مواليد النساء اللاتي تلازم بيوتهن في حين ان الوفيات تبلغ ٢٠٩ عند النساء المشتغلات في المعامل واللائي تغادرن دورهن في النهار . لكن الدكتور (جورج روبرتس) طبيب الصحة في (برمنجهام) وجد ان سوء الحال الناتج عن الفقر في الاسرة هو اشد فتكاً في الاطفال من اشتغال الامهات خارج الدور . واما في اميركا فقد دلّ الاحصاء في مقاطعة (فول ريفر) من ولاية (ماساشوستس) على ان وفيات الاطفال بسبب الاسهال والتهاب المعدة والامعاء في البيوت التي تشتغل نساؤها في المعامل تزيد ثمانين في المائة على الوفيات في البيوت التي تلازمها نساؤها ، اضافة الى ذلك ان هذه البيوت هي اقوم نظاماً ورجالها اعدل مزاجاً وابنائها اقوى بنية وعلائقها الزوجية احكم ارتباطاً

على ان واجب الاحاطة بالموضوع يقضي علينا بالاشارة الى ان انصار اشتراك المرأة في الاعمال يدعون ان الضرر اللاحق بالاطفال ليس ناشئاً عن اشتغال المرأة بل عن سبب آخر هو الفقر وان المرأة لولا فقر زوجها ما اضطرت الى الخروج من بيتها في طلب الرزق ، وخلاصة مذهبهم « ان النساء يستطعن العمل في جميع الميادين الصناعية الحاضرة مع الاحتفاظ ليس بمقياس صحتهم فقط بل برفع هذا المقياس ايضاً ، غير ان الواجب يقضي بأن تكون العمارات التي يشتغلن فيها صحية ومبنية على الاصول الفنية وان يعلمن هن ومن يستخدمن في الاعمال قواعد الصحة العملية البسيطة »

ولامراء ان اهم الاسباب في نقص المواليد هي ارادة الآباء والامهات اما لعجزهم عن اعالة الاولاد او لانصراف الوالد الى المناصب والاعمال ورغبة الوالدة في تحقيق النذائذ والمسرات بحيث يريان الاولاد عقبة في سبيلهما وان توفر المال لديها وهذا الامر شائع في الغرب دون الشرق — حتى الآن واما ما يقال عن ضعف بعض الاقوام وانحلال قوتهم الایلادیه وسيرهم في طريق العقم كما هو حال الفرنسيين مثلاً فهو موضوع دقيق يتطلب بحثاً اخصائياً لا يتسع له هذا المقال ، ومما هو ثابت ان الوسائل الصحية الحاضرة والعناية بالمرضى والمتعيين واصحاب العاهات كل ذلك ممكن الملايين من البشر ان يعيشوا ويتزوجوا ويتوالدوا مع انهم لو تركوا وشأنهم لقضى عليهم الموت من غير شفقة ولا رحمة . وهكذا نرى ان وسائل المجتمع العلمية قد حالت دون تنفيذ قانون الانتخاب الطبيعي وتطبيق بقاء الانسب . ومن يدري ان بعض الاقوام قد صرفت من قواها الحيوية واستنزفت من مخزونات الاستنتاجية ورأس مالها القومي ما وصلها الى درجة التوقف والانحلال شأن تلك الاجناس البيولوجية الاثرية الكبرى التي انقرضت ولم تترك من عظمتها الا هياكلها العظيمة بين طبقات الغبراء وتحت سطح الماء

ميزة الحضارة الغربية

للاستاذ سامي الجريديني

ميزة المدنية الغربية النظام والحرية — النظام المستمد من القانون او من الشريعة ، والخضوع لهذا النظام او لهذه الشريعة باعتبار انها تمثل ارادة الهيئة الاجتماعية وضميرها وباعتبار ان في الخضوع لها مصلحة الفرد والجمعية . ويفقد النظام مزيته وتفقد الشريعة قيمتها اذا كان الخضوع لها على اعتبار انها ارادة قوة لا تُردُّ ارضية كانت هذه القوة ام سماوية فالشريعة وهو ما يعبرون عنه بكلمة (Loi أو Law) ليست مشيئة القوي بل محاولة الوصول الى العدل ولذا كان من اركان بنيانها أن تنشأ وتنمو وتتكيف وتتغير حتى تبلغ اسمى مطامح الانسان الادبية

ولم تكن الحضارة الغربية قبل خضوعها المدنية اليونان والرومان واتخاذها هذه الحضارة طعاماً تمثلته ثم هذبتة ورقته على هذا المبدأ في تفهم الشريعة بل كانت مثل الحضارات الشرقية تقدر الشريعة على انها ارادة واحد قهار لا على انها عدل وعلى انها لا تتغير الا بمشيئة السيد وما مشيئته الا حاجة في نفسه إن كان ارضياً أو احجية لا تقسّر ان كان سماوياً

ومن صفات الشريعة أو النظام انها وليدة الخلق وليس الخلق ناشئاً عنها . فالقانون — أو الشريعة — أو النظام أو الناموس يجب أن يكون معبراً عما في ضمير الجمعية من خلق رفيع . فالخطيئة ليست في انتهاك القانون بل في انتهاك المبدأ الادبي الذي نشأ القانون منه . ولذا وجب أن يكون الناموس متغيراً متبدلاً مترقياً ماشياً وراء رقي الاخلاق السامية . لأن اخلاق البشر ابتدأت سافلة وأخذت ترتقي مع الزمن والتكيف بالوسط

إذا نظرنا الى الشريعة بهذا المنظار تبين لنا السر في ان الرجل الكريم هو الرجل الذي يخضع للقانون ويساعد على اطاعته ليس لأن تنفيذه منوط بالشرطة بل لانه يرى في تنفيذه كرامته فيملكه الشرط أو الوعد سواء أكان مكتوباً أم نطقت به شفاته . فالعهد الادبي يجب أن يسبق العهد المادي

ويترتب على هذا المبدأ مبدأ آخر هو النظر الى الشريعة كوسيلة للخير العام لا كأمر من ذي سلطان . ومن ثم يتعين على كل أحد أن يحوطها بعنايته ويحافظ على تنفيذها لا أن يتملص من قيودها وينظر اليها نظر عدو

فالمدينة الغربية في أرقى مظاهرها تفرض في شعب متمدين أن يعمَّ كل أفراد شعور
لا بطاعة القانون فحسب بل بالرضا به وبالمساعدة على تنفيذه واحترامه بحيث صار يُعَدُّ الشعب
متمديناً متى كانت أفرادهم ينظرون الى القانون نظرهم الى أداة وضعوها لهم لفائدتهم وان في
احترامها وفي المساعدة على تنفيذها عائدة خير للفرد والجمعية . فقياس المدنية الحققة في الفرد
هو في تضامنه مع الحكومة في العمل بالقانون لا بالمساعدة على التملص من قيوده . فمن ساعد
مجرماً على الافلات من حكم القانون ليس خليقاً بأن يكون عضواً في جمعية ذات حضارة
حقيقية، وواجبه ازاء القانون واجب الشرطي حذوك النعل بالنعل . ولذا ترى في الشعوب التي
لم تضرب بقسط وافر في الحضارة ميلاً الى الهروب من القانون وسروراً بل إعجاباً اذا رآوا
المجرم يقاوم الحكومة ولا تجدهم يطيعون القانون الا رهبة من عقاب او طمعاً في ثواب
وهناك مبدأ آخر يستمد من مركز النظام في الحضارة هو أن للجمعية التي يجب أن يكون
النظام لفائدتها الحق في أن تضعه هي لنفسها

لأنه اذا كان الاصل في الناموس أن يتكيف حتى يطابق ضمير الجمعية وأن يكون لفائدة
الجمعية فلقد صار لافراد هذه الجمعية أو لخيارهم الحق كل الحق في أن يتولوا أمره بأيديهم ،
وها نحن نرى الآن كل أعضاء اسرة الحضارة الغربية يقدسون هذا الحق ويستعملونه على
اختلاف في الشكل افضى الى اختلاف في أنواع الحكومات

وقد يختلف رأي بعض الناس في صحة هذه النظرية ويشككون في هل كان من الاصلاح
والاجدر أن يتولى الشعب امر التقنين أو أن يتركه لسواه ولكن ما لا شك فيه هو ان
الحضارة الغربية قد اقرت المبدأ وأخذت به إن خيراً أو شراً فصار ميزة من ميزاتها

فالنظام أو الشريعة أو القانون الذي جعلناه ركناً من أركان الحضارة الغربية جُعل
لفائدة المجموع لا لفائدة الفرد . وانه في أرقى درجاته محاولة تطبيق المبادئ الخلقية السامية
فيكون نتيجة الاخلاق لا سببها . وانه آلة متغيرة متكيفة غرضها مطمح أدبي عال . وانه على
كل أحد أن يطيع هذا النظام وأن يساعد على تنفيذه . وأن حق وضعه وتغييره من حقوق
المجموع لا من حقوق الفرد مهما كانت سلطته

هذا معنى النظام في عرف الحضارة الغربية وهو أول ميزات هذه الحضارة

أما الركن الثاني فهو الحرية وهو ثان في الترتيب ولكنه أول في خطورة الشأن
الايمان بالحرية نخر من مفاخر الحضارة الغربية لم تشاركها فيه الحضارات الاخرى
ما تقدم منها وما تأخر

والتطور مع هذا السوى . وانه ليجدر بنا أن نفهم هذا الخلق تفهماً حقاً . فرحابة الصدر في الشعوب وحب الاختلاط وازالة ما يمنع الاندماج خير ما يتاح لشعب يرغب في حياة خليقة بهذا التمدن

هذه الروح خلقت الامة الانكليزية وخلقت امة اعظم هي الامة الاميركية بل هي ام القوميات الاوربية كلها

ولكننا لم نعبأ بها في الشرق . فالترك مثلاً حكموا دهوراً على غير هذه القاعدة وكم يكون ملكهم عظيماً لو أدججوا الارمن أو العرب أو الروم واندججوا بهم اذاً لكانت هناك قومية تركية ولكنهم كانوا إلى العصبية أميل : الدينية ساعة والجنسية ساعة أخرى

بل النظر إلى تلاميذهم من سورين ولبنانيين وفلسطينيين وعراقيين ومصريين تر روح الانزواء ظاهرة ظهوراً فاضحاً . فاللبناني يفضب اذا جاوره ارمني وأحب أن يدخل قوميته والفلسطيني تقوم قيامته اذ يرى الحضارة الحالية تنصف اليهود وتعدم بشرأ لهم ما لجميع البشر من حقوق في آمال ومطامح

كل هذه آيات تدل على ان الشرقي بعيد عن الفكرة السخية في تكوين القوميات القائمة عليها الحضارة الحالية

ولهذا الخلق الذي نحن به متخلقون اسباب شتى ليس في المقام متسع لبحثها ولكنها مهما تعددت الاسباب فالاشياء بنتائجها والنتيجة المتحصلة من تلويح حياتنا السياسية والاجتماعية لا تتفق مع ما قدمنا من ميزات الحضارة الغربية

وليس معنى ذلك اننا اقوام لا نليق بشخصيات دولة مستقلة . لا ، وليس معنى ذلك اننا لن نكون اصحاب سطوة ونفوذ دولي او اصحاب حكومات توافق اخلاقنا فنعيش دنيانا عيشة راضية . لا ، بل معنى ذلك اننا بعيدون بعداً غير شاسع في بعض الاحيان وشاسعاً في بعضها عن الحضارة الغربية الحقيقية المتسلطة على العالم الآن

وقد يكون في هذا البعد السعادة عند بعضنا او الشقاء عند البعض الآخر فهذا ليس في بحثنا وليس الذي نقصد اليه . انما نقصد ان نبين اننا قد أخذنا كثيراً من اساليب الحضارة الغربية فنقلنا الكثير من قوانينها ومن طرق معاشها ومن دساتير حكوماتها فهل نقلنا مثل ذلك من الاسس التي قامت عليها عندهم هذه الدساتير والقوانين وطرق المعاش ، وأهمها أساس القومية كما شرحناه في كل ما تقدم ؟ هذه هي النكته ، أو على رأي شكسبير هذا هو السؤال إننا نخشى أن نكون قد شرعنا في البناء على غير أساس متين فأخذنا في هندسة البناء الظاهر وفي زخرفة الجدران والابواب وأهملنا الاساس . وليس ذلك تعمداً منا ولا جهلاً بل ميراثاً ورثناه عن آباءنا أو عن الارض التي أنبتتنا (عن كتاب « الرسائل الضائعة »)

الدمقراطية في الازمات

للكنور ولیم مورو

استاذ التاريخ وعلم السياسة في معهد كاليفورنيا
ورئيس قسم التاريخ في مجمع تقدم العلوم الاميريكي

ليس مثل الازمات كاشفاً لمواطن الضعف في النظام الديمقراطي . ان حسناته تبدو جليلة بهية في ايام السلم والرخاء ، اذ يسهل حفظ الشعب مكتفياً بحكومته راضياً عن حاله . ذلك ان الرخاء يفحم النقاد ، ويحمل المنتخبين على تأييد أية زعامة او القناعة بغير زعامة على الاطلاق . ولكن اذا وقفت امة وظهرها الى الجدار تدافع عن كيانها في حرب ، او اذا ارتج نظامها الصناعي فأصبح على شفا الانهيار ، بدت مواطن الضعف في النظام الديمقراطي كأساس للحكم ، فتعصف بالشعب ريح القلق والانتقال

وانت اذا وجهت النظر الى بلدان اوربا رأيت النظام الديمقراطي في السنوات العشر الاخيرة قد اخذ يفقد ما له من الثقة في نفوس الجماهير ، فزال جانب كبير من الحماسة له ، التي فاضت بها النفوس على اثر الحرب الكبرى . فمن ناحية اليسار تهاجم الشيوعية ، ومن ناحية اليمين تطغى عليه الفاشستية . نعم ان اعداءه في غير روسيا وايطاليا ، لم يفوزوا بالنصر الكامل عليه ، ولكنهم يتقدمون الى النصر بقدم ثابتة . وليس ثمة مجال للدهشة ، أن نرى المانيا تنقلب فاشستية واسبانيا شيوعية ، اذا لم تداء الازمة الاقتصادية — وهي مصدر القلق فيهما — وتخفف وطأتها . حتى في انكلترا ، لقد اصيب النظام التقليدي القائم على الحكومة الوزارية المستندة الى حزب معين ، بصدمة قوية اذ تألفت حكومة ائتلافية ، وسيلس بحق بعض الوزراء في معارضة زملائهم في الوزارة ، فأصبحت الحكومة الانكليزية وكأنها بيت منقسم على نفسه . ومن المتعذر ان نتصور كيف يتم لنظام التبعة الوزارية في انكلترا العمل في ظل النظام الجديد . ولسنا نرى النظام الديمقراطي قد سلم من التقهقر الا في فرنسا . على ان فرنسا جمهورية ذات روح امبراطورية والضائقة الاقتصادية كانت فيها اخف وطأة منها في البلدان الاخرى

ان النظام الديمقراطي هو احدث المراتب التي وصل اليها تطورها السياسي . ولكنه ليس آخرها . وهو بوجه عام نتيجة التطور السياسي في المائة — بل الخمسين — سنة الماضية .

حتى اشد انصاره ايماناً به لم ينتظر منه ان يكون نظاماً دائماً للحكم . فتوماس جفرسن مثلاً — الرئيس الديمقراطي الاميركي — لم ينتظر منه ذلك . ولقد كان جفرسن انفذ بصيرة من سائر رجال السياسة في عصره ، الى مواطن القوة والضعف في نظام تسوده وتسيطر عليه رغبات شعب شتيت العناصر . لذلك ذهب الى ان ارتقاء الصناعة وتجمع الناس في المدن ، قد يحمل الحكومة الشعبية ، عبئاً تنوء به

وقد كان جفرسن على صواب في تفسيره للتاريخ السياسي . فقد ادرك ان شكل الحكومة يجب ان يكون ذا صلة بأحوال المعيشة ، وان هذه الاحوال قد تتبدل تبديلاً كبيراً في اثناء قرن كامل . لذلك انذر ابناء قومه ، بوجوب استعدادهم لتعديل اوضاعهم السياسية ، عصرًا عصرًا ، لئلا تنبت الصلة بين الحكومة وآمال الشعب ، التي وجدت الحكومة لتخدمها . وقد كان جفرسن مؤمناً بالحكومة الديمقراطية لانه كان يعتقد انها افضل اشكال الحكومات التي تلي حاجات عصره ، ذلك ان عصره كان عصر حياة بسيطة ، يخرج فيه الناس رزقهم من الارض ، والصناعات قليلة ضيقة النطاق ، والمدن صغيرة ، والمساواة الاقتصادية بين افراد الامة تكاد تكون في قربها الى الغاية ، ابعد ما وصل اليه الناس

ولكنه لم يكن يؤمن بأن نظاماً حكومياً قائماً على سيطرة العامة ، يفي بحاجات كل الامم في كل العصور . بل ان الرجوع الى كتاباته يحلو لنا اصراره في حث الاجيال المقبلة على تقليب النظر في الانظمة القديمة ونبذ ما يتنافر منها مع حقائق الحياة في العصر الجديد . ومن اقواله البليغة « هذا العالم يجب ان يكون ملك الجيل الحالي لا ملك الاجيال السابقة »

حلت الحكومات الشعبية الجديدة محل الحكومات الاستبدادية (الاوتقراطية) في الفترة الواقعة بين الثورة الفرنسية ومعاهدة فرساي (١٩١٩) ولكن النظام الاوتقراطي لم يضعف ويهوى لانه ينطوي على خلل اساسي فيه . ففي عصر الفدنية (الاقطاع) كان النظام الحكومي الوحيد الملائم لاحوال العصر . ومضت قرون لا عمل للحكومة اهم من عمل الدفاع عن سلامة البلاد وحفظ الامن والنظام فيها ، فاستغرق هذان العاملان كل وقت الحكومة وقواها . فالملوك والامراء حكموا البلدان حينئذ لانهم كانوا الاشخاص الوحيدين الذين يستطيعون ان يجمعوا قوى البلاد تحت امرتهم في الازمات المتعاقبة تعاقباً سريعاً

ورويداً رويداً ضاقت رقعة العمل الدفاعي الذي تقوم به الحكومة ، اذ زادت تبعاتها الايجابية . ثم قضت الحال بزيادة الدخل فالتسع لطاق الضرائب التي تجبي من الشعب ، ففعل دافعوا الضرائب يطالبون بحق اشتراكهم في تقرير خطة الحكومة العامة . وهكذا حلت « حكومة دافع الضرائب » محل « حكومة ملك يملك بحق الهي » . على ان حكومة ملاك

الارض ودافعي الضرائب لم تعن حكومة ديمقراطية كما تفهمها الآن . فانها منعت حق الاقتراع عن طائفة كبيرة من ابناء الامة البالغين سنّ الرشد . اما المذهب القائل بان كل الرجال لهم حق في الاشتراك في السيطرة على الحكومة ، بصرف النظر عما يمكن ان يكون أو يدفعون من الضرائب ، فوليد الثورة العظيمة التي اكتسحت فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر ، فرددت اصداها بلدان العالم الغربيّ

ان الديمقراطية بمعناها العصري جاءت بعد اعلان حقوق الانسان و شيوع فلسفة المساواة . ولما كانت قائمة على اساس المساواة بين الانسان ، كان لا بدّ لنجاحها ، من بيئة تحققت فيها المساواة الاجتماعية والاقتصادية بعض التحقيق . ثم هي تتطلب ان تكون مسائل الحكومة بسيطة يستطيع الذهن العام ان يدركها ويبت فيها . وقد تحققت هذه الاحوال الى حد ما ، في اوربا واميركا في الجانب الاكبر من القرن التاسع عشر . فقد كانت المشكلات الكبرى في ذلك العصر مشكلات سياسية . اما المشكلات الاقتصادية القليلة التي عرضت للحكومات حينئذ ، فكانت غير معقدة تعقيداً يخرج عن طوق الذهن العام

وكلّ هذا قد تحوّل الآن . فالسياسة والاقتصاد متداخلان تداخلاً لا انفصام لعراه . فليس ثمة مشكلة سياسية لا تنطوي على اعتبارات اقتصادية . وليس ثمة مشكلة اقتصادية لا تراها مشتبكة بمسائل السياسة المعقدة . والعامّة لا تدرك عادة ، الى اي مدى اتسع نطاق الاعمال الحكومية في الخمسين سنة الماضية ، وبوجه خاص في ربع القرن المنصرم . فيد الحكومة تصل اليوم الى كل صغيرة من صغار الحياة الاقتصادية العالمية . ان اقامة الحواجز الجمرية يحوّل تيارات التجارة الدولية . ونظام الضرائب يبعث الحياة في النهضة الصناعية أو يخنقها في المهد . وسيطرة الحكومة على البنوك والعملة ونظام الاعتمادات المالية ، يمكنها من رفع مستوى الاسعار أو خفضه . ثم ان قوانينها المختلفة تمكنها من السيطرة على اسباب المواصلات والمخاطبات ، وقد تبلغ هذه السيطرة في بعض الاحيان حدّاً ، لا يختلف كثيراً عن مملكت الحكومة لهذه الاسباب المختلفة . اصف الى ذلك ان انتشار التأمين الاجتماعي — وبوجه خاص التأمين ضدّ العطلة عن العمل — قد جلب في أثره طائفة من المشكلات الاقتصادية ، عجزت الحكومات الاوربية عن حلها حتى الساعة

لقد انقضى «عهد الفردية» وعصر «دع الامور تجري في اغتها» (Laissez-Faire) والراجح ان لا رجعة لهما . ان الديمقراطية جاءت مع الفلسفة الفردية ، واقتربت بالمذهب القائل ان افضل الحكومات اقلها تدخلاً في شؤون رعاياها . وقد زال هذا المذهب وحلّ محله القول بان «الحكومة يجب الا تمتنع عن شيء اذا كانت تستطيع ان تتفوق في ايجاده

على الافراد أو الشركات ». وليس ثمة مطعن في هذا القول اذا سُمح للحكومات ان تعتمد على احكام الخبراء في معالجة المشكلات التي تعرض لها . ولكن هذا لايسمح به للحكومات المؤلفة بحسب اصول النظام الديمقراطي الحديث . اذاً لا بدّ للحكومات الديمقراطية من ان تسير بحسب رغبات الشعب ، لانها تقوم على قول روسو بان « الاكثرية دائماً في جانب الصواب ، ولو ثبت بكل دليل عملي انها على خطأ » . فعرض المسائل الاقتصادية المعقدة على الجماهير نصف الامية لا يعدو ان يكون عرضاً لها على محكمة الجبل العلي . واذن يصحّ ان نتساءل ، تساؤلاً جدياً ، كيف يرضى العالم ، وتعدد مسائله ومشكلاته آخذ في الازدياد ، ان تدار دفعةً سفينةً بهذه الطريقة ؟

انظر الى مشكلات العالم في هذا العصر ، فعظمها ناشت عن قصر باغ رجال السياسة . فالمعاهدات التي وضعت بعد الحرب الكبرى ، مبنية على اساس « تقرير المصير » وقد رسمت فيها حدود البلدان المختلفة وفقاً لانتشار السلالات والاقوام المختلفة . فلم يكن احد من واضعي هذه المعاهدات يدرس الاضطراب الاقتصادي الذي قد يورثه هذا التخطيط السياسي الجديد . فقد انشأوا مثلاً جمهورية النمسا الجديدة من دون ان يمنحوها المصادر الاقتصادية التي تعيش بها . فعملوا بذلك حكومة النمسا على عقد — او محاولة عقد — معاهدة جمركية مع المانيا ، فكانت تلك المحاولة حائلاً آخر دون التفاهم بين المانيا وفرنسا

ثم ان هذا التخطيط الجديد حمل البلدان المستقلة الجديدة على انشاء الحواجز الجمركية ، فاضطربت مسالك التجارة القديمة ، وانقطعت الصناعات المختلفة عن اسواقها الطبيعية ، وانشئت صناعات جديدة انشاءً مفتعلاً . وهذه الصناعات الجديدة « المحمية بالحواجز الجمركية » استدانّت اموالاً بالقناطر ، واخذت على نفسها تعهدات مالية لا تسوغها حالتها المالية — وهكذا امتدت سلسلة الاخطاء ، حدود جديدة ، حواجز جمركية جديدة ، فصناعات جديدة ، فتعهد فافلاس ، حلقات آخذة بعضها بعناق بعض

ثم ان انشاء الدساتير الديمقراطية الجديدة في بلدان اوربا على اثر الحرب الكبرى كان ذا صلة باشتداد الضائقة الاقتصادية . فالمانيا والنمسا والمجر وبولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا اسرعن جميعاً الى اقتباس النظام الديمقراطي في الحكم وجميع ملاساته مثل الاقتراع العام ، والتمثيل النسبي ، والتبعية الوزارية ، والاستفتاء وما اليها . والنصّ على التمثيل النسبي في هذه الدساتير كان خطأً فاضحاً ، لانه مهّد السبيل الى انحلال الاحزاب الى طوائف صغيرة ثم استناد الحكومات المختلفة الى كتل متباينة من هذه الطوائف . وهذا بدوره افضى الى الجمود الحكومي لسهولة قيام معارضة قوية في وجه الحكومة المتقلدة زمام الاحكام . ان احوال اوربا في العشر السنوات الماضية كانت تقتضي زعامة قوية وتأيداً لهذه الزعامة من المجالس النيابية . ولكن

الديتاتير الديمقراطية الحديثة في اوربا جعلت كلا الامرين مستحيلًا
ثم ان الديمقراطية الجديدة اتجهت في شؤون الاجتماع اتجاهاً طريفاً . فالسلطة السياسية
انتقلت الى ايدي اولئك الذين يرغبون في تأييد الحكومة لمصالحهم الخاصة . لذلك ترى
الحكومات الديمقراطية الحديثة وقد اقبلت على تحسين الحال الاجتماعية بمشروعاتها المختلفة
كالتأمين ضد العطلّة عن العمل والتأمين الصحي وتوسيع نطاق التعليم المجاني والمعالجة المجانية
والانفاق على هذه المشروعات كان من وراء مقدرة تلك الحكومات من الناحية المالية المجرّدة .
فلما تعذر عليها جبي الضرائب اللازمة لسدّ هذه النفقات حدث في الميزانيات المختلفة عجز
سدّت ثغرتة بطرق صدّعت اركان الثقة بالحكومة ، والمصارف والمنشآت المالية بوجه عام .
حتى في انكلترا ، سرى زعر مالي عام لارباء النفقات على الإيرادات — وسببه في الغالب الاموال
التي كانت تنفق عادة على العمال العاطلين تلبية لمطالب المقترعين الذين منحوا حكومة العمال
اصواتهم في الانتخاب السابق

وهذا الذعر المالي افضى الى حشد الذهب وهروب رؤوس الاموال فنقصت الاموال
المودعة في البنوك نقصاً سريعاً وسحبت الاموال الاجنبية من النمسا والمانيا وانكلترا . واضطر
ا كبر بنك في النمسا ان يقفل ابوابه . وطلبت المانيا موراتوريوم . وخرجت انكلترا عن قاعدة
الذهب . ان سلسلة الحوادث التي افضت الى هذه الحوادث الخطيرة سلسلة معقدة . ولكن
لا ريب في ان السبب الاساسي هو الخلل في تدبير اموال الحكومات والتبذير في انفاقه في
المصالح العامة ، والاختلال في موازنة الدخل والخرج ، فافضى ذلك الى العجز واحتمال التضخم
المالي ، وكل هذا يجب ان نسنده الى الديمقراطية الجديدة

ان التبرم العام بالوضع الديمقراطي الذي يساور الجماعات الاوربية اشدّ الآن منه في
اي عهد سابق . فاذا شئنا للديمقراطية النجاة من الزوال وجب على الولايات المتحدة الاميركية
ان تفعل ذلك ، والسنتان المقبلتان يثبتان لنا مكاننا من المقدرة والعجز . اننا لا نستطيع ان
ننجي الديمقراطية ، بالغاء ديون اوربا لنا ، ولا باقراضها ديوناً جديدة ، بل بتدبير شؤوننا اولاً ،
بنقص النفقات العامة في حكومتنا ، وزيادة ابواب الدخل من دون ارهاق الصناعات ، ورفضنا
المشروعات الاجتماعية المرهقة للخزينة والتي قد تنقلب فتضرّ الذين عملت لنفعهم ، واعادة
الثقة العامة بمنشأتنا المالية . وبكلمة يمكن تنجية الديمقراطية باقامة البرهان على ان امة ديمقراطية
واحدة تستطيع الاحتفاظ برابطة جاشها في عالم قد جُنّ



العوامل الوراثية والغدد الصماء

للكنور شريف عسيران



بيّنا في مقالاتنا السالفة ان تنوع الصفات يتوقف على تنوع العوامل وشرحنا كيفية التنوع ولكننا لم نبين في اي دور من ادوار الحياة يحصل هذا التنوع . وهو ما نتناوله الان : من المعلوم ان لتكوين الجنين ادواراً مختلفة والعوامل الوراثية لا تقوم بوظائفها دفعة واحدة بل توزعها على مختلف ادوار التكوين فبها ما تعمل في الدور الاول ومنها في الدور الثاني وغيرها في الدور المتأخر وقد يكون ثمة نقص في بعض العوامل فتي جاء دور تلك العوامل تتلاشى الصفة المختصة بها لانها ناقصة

ذكرنا في بحثنا عن الجنس انه يوجد نوع من العوامل المميتة تؤول الى موت الجنين وبيننا كيف يزيد عدد وفيات الذكور عن الاناث قبل الولادة لان في الاولى اكساً واحداً وفي الثانية اكسين فاذا كان الاكس معيوباً في الذكر فمسيره الموت واما الانثى فتحمل اكسين فاذا اعتل احدهما فالآخر يسد مسده . فعوامل كهذه تقوم بوظيفتها في ادوار التكوين الاولى ولكن غيرها تقوم بوظيفتها في الدور الذي بعده وهذا ما اختبروه في الفئران الصفر . فقد احدثوا نقصاً في احد العوامل المختصة به اخراج هذا اللون فاذا كان في الفرد عاملان عاديان او عامل عادي وعامل معيوب نشأ صحيحاً واذا كان العاملان معيوبين مات ذلك الجنين وقد وجدوا بالفعل بعض الاجنة الصفراء ميتة في بطن الام . والشئ نفسه ينطبق على النباتات فان المادة الخضراء (الكلوروفيل) ضرورية لحياتها فالنباتات التي فيها نقص هذا العامل تنمو نمواً طبيعياً الى ان يأتي دور الكلوروفيل فلا تنضج بل تموت بسبب فقد هذه المادة فاذا لقحنا النبتة المفقود منها الكلوروفيل في هذا الدور بهذه المادة فلها تنضج وتعيش

وفي الكروموسوم الرابع من عوامل ذباب الفواكه عامل وظيفته تهية الالوان الاساسية لتكوين مادة العين فاذا زرعنا مادة هذا العامل فان الذبابة تنمو نمواً طبيعياً الى ان يصل دور هذا العامل المعيوب فتتأخر الذبابة عمياء بسبب فقد اللون المذكور . والسبب نفسه يعزى الى ضعف العقل في البشر (Feeble-mindedness) . يشترك في تكوين الدماغ عدة عوامل فاذا كان ثمة عيب في بعضها نشأ الدماغ ناقصاً ولا يقوم بوظيفته الطبيعية حق القيام وهذا النقص او الضعف يورث بطريقة مندل

ان لبعض العوامل تأثيراً خاصاً كالعوامل التي ذكرناها فتؤثر في العين او الدماغ او اعضاء التناسل الخ، ولغيرها تأثير عام وقد درس پرل (Raymond Pearl) هذه الحقيقة في ذباب الفواكه فوجد بعضها يعيش عمراً طويلاً تاماً النشاط والقوة والبعض الآخر يحيى حياة قصيرة يعيش في خلالها نحيفاً ضعيفاً خاملاً ونسب طول الحياة وقصرها الى العوامل العامة التي لها سيطرة على كل الجسم وهذه الصفة ناشئة عن وجود عامل واحد له تأثير عام وهي تورث اما بقانون مندل او بالاتصال الجنسي. ومن رأي مورغن ان العوامل التي لها تأثير خاص تؤثر في عامة الجسم ايضاً. فيكون طول الحياة وقصرها وراثياً بحسب هذا التعليل

سبب اختلاف الصفات باختلاف العوامل * بيننا قبلاً ان خلايا ذوات الثدي وغيرها تختلف في بدء تكونها اختلافاً بينياً ففي خلايا الذكر مجموعة من الكروموسومات واكس واحد وفي خلايا الانثى اكسان ويختلف تطور البيضة التي فيها اكس واحد عن التي فيها اكسان. كذلك تختلف التفاعلات الكيماوية في الاثنتين ولكن في ادوار التكوين الاولى لا يمكن التمييز بين الجنسين في ذوات الثدي وقد وجدوا انه ينشأ في القسم الظهري من الجرذان او الارانب بقعة خاصة تتألف من عدة خلايا تتكون منها فيما بعد نطفة الذكر ونطفة الانثى وتسمى هذه البقعة الغدة الجرثومية (Germgland) فتكبر بعض خلاياها وينشق من هذا البعض نطفة الذكر ونطفة الانثى وتدعى تلك الخلايا حينئذ بالخلايا التناسلية (Genital Cells) وتكون الغدة الجرثومية في بادىء الامر واحدة في الجنسين وبعد ذلك يظهر اول فرق بين خلايا الذكر وخلايا الانثى فالاولى تنقسم وتصغر وتتكون منها نطفة الذكر الاولى مع الصفات التي ترافقها اما خلايا الانثى فتظل كما هي في الوقت الذي تتنوع فيه خلايا الذكر التناسلية فهذه تتنوع قبل تنوع خلايا الانثى التناسلية وبعد مضي وقت من نشوء خلايا الذكر تأخذ خلايا الانثى بالتنوع وبدلاً من ان تنقسم وتصغر تكبر رويداً رويداً وتكون البيضة او نطفة الانثى

ان صفات الذكورة والانوثة نوعان الصفات الجنسية الاولى وهي الفروق بين اعضاء التناسل الرئيسية والصفات الجنسية الثانوية واهمها خشونة الصوت ونعومته ونمو الشعر او عدمه وشكل الجسم وتناسب اعضاءه كعرض الكتفين وضيق الخصرين في الذكور وعكسهما في الاناث ونشوء قرن او عدم نشوئه الى غير ذلك من الفروق الثانوية بين الجنسين. ونذكر الآن بعض التجارب التي ترشدنا الى سر هذه الفروق الجنسية. فلو زرعنا من ذكر صغير جداً الغدة التناسلية او الخصيتين لم تظهر في هذا الذكر صفات الذكورة الثانوية كخشونة الصوت وعرض الكتفين ونمو اللحية والشارب الى غير ذلك. والشئ نفسه يحدث في الانثى اذا استأصلنا المبيضين فلا تظهر فيها نعومة الصوت وضيق الكتفين وفقدان اللحية او القرن الى غير ذلك

ومن هنا نستدل ان للصفات الجنسية الثانوية علاقة بالغدد التناسلية لان هذه الصفات ليست ناشئة عن الكروموسومات . فخلايا الانثى فيها عدد الكروموسومات الكامل للنوع ولكن فقدان الخلايا التناسلية لا يفسح مجالاً لظهور الصفات الجنسية الثانوية فيها ونفس الشيء يصدق على خلايا الذكر . فكيف تحدث الغدد التناسلية هذه التغيرات . ان نقل هذه الغدد من جنس الى آخر يكشف لنا الستار عن مخبات هذا التأثير وهذا ما فعله شتيناخ Steinach ومورز C. Moores وغيرها فانهم زرعوا المبيضين من صغار الاناث ووضعوا الخصيتين مكانهما فنمت تلك الاناث دون ان تظهر فيها الصفات الجنسية الثانوية بل ظهرت فيها صفات الذكر وكذلك زرعوا خصيتي الذكر ولقحوا مكانهما مبيضين انثى فظهرت فيه صفات الانثى الثانوية عوضاً عن صفات الذكر فينبغي ان يكون في الخصيتين والمبيضين عامل خاص غير العوامل الوراثية يؤثر في نشوء الصفات الجنسية الثانوية لاننا اذا استأصلنا هذين العضوين فلا تظهر تلك الصفات مع ان عدد الكروموسومات المخصص للنوع موجود . فلا بد من وجود افراز داخلي في هذه الاعضاء يفعل الفعل المذكور . واذا صححت نظرية الافراز الداخلي لئلا ان نجعل دم الذكر يسري في الانثى فتظهر فيها صفات الذكورة وهذا ما فعلته الطبيعة . فقد وجد لي F. R. Lillie ان الماشية كالبقرة والغنم وما اشبه تلد احياناً توأمين احدهما ذكر والاخر خليط من ذكر وانثى ورأى هذا الباحث ان الجهاز الدموي يكون متصلاً في حالات كهذه . وقد بينا ان مميزات الذكر الجنسية تظهر قبل مميزات الانثى في دور من ادوار النمو يسري دم الذكر وهو في بدء تكونه الى دم الانثى التي لم تتميز خلاياها التناسلية بعد فينشأ فيها مزيج من صفات الانثى وصفات الذكر فالصفات الجنسية الثانوية تتوقف على وجود الافراز الداخلي ولكنها تتوقف ايضاً على اكثرية الخلايا الموجودة فان كانت من نوع الانوثة تتغلب هذه الصفات والعكس بالعكس . فصفات الذكورة والانوثة تتوقف على الافرازات الداخلية التي تذهب رأساً الى الدم ويقال لها الهرمون (Hormone) وهي كلمة يونانية معناها «ميسج» ويسمون بها ايضاً الافراز الداخلي . ففي الانثى نوع خاص من الافرازات الداخلية تولد صفات الانوثة وفي الذكر افرازات مثلها تولد صفات الذكورة ، ولكن الانوثة والذكورة تتوقفان على الكروموسومات فالتى فيها اكس واحد تكون ذكراً والتي فيها اكسان انثى والكروموسومات تولد الصفات الجنسية بواسطة الافرازات الداخلية . فالصفات الجنسية تتوقف في ذوات الثدي على هذه الافرازات وتأثيرها الجنسي محدود في الطيور وفي الحشرات لا تتوقف الصفات الجنسية عليها

❖ الغدد الصماء او الغدية الاقنية ❖ — ان لافرازات هذه الغدد شأنًا لا يقل عن العوامل الوراثية وقد عزوا اليها طول المرء وقصره واخلاقه وسلوكه وقالوا انها هي المسيطرة على شخصيته باجمعها فالشباب والشيخوخة منوطان بها والجبن والشجاعة اثر من آثارها وقد اثار

ضجة في عالم الطب والعلم واستغل النفعيون هذه الفكرة فبالغوا وحرّفوا حباً بالكسب وخبط غيرهم خبط عشواء فنسبوا اليها المعجزات . ولهذا رأينا ان نبحت فيها باختصار متوخين الحقيقة ومقتصرين على ماهو ثابت علمياً وطبيعياً ، ولكي لا نشوش ذهن القارئ الكريم نبحت عنها بانتظام . ففي الجسم ثلاثة انواع من الغدد الاولى التي لها اقنية خاصة تحمل افرازها الى الخارج كغدد اللعاب وغدد المعدة والامعاء والمرارة وغيرها والثانية الغدد التي ليس لها اقنية تحمل افرازها الى الخارج بل تفرزه الى الدم او السائل الغفاوي رأساً وهي بيت القصيد من بحثنا . والثالثة الغدد المشتركة اي التي فيها نوعان من الافراز الاول تحمله اقنية خاصة والثاني يذهب الى الدم رأساً كافراز الغدد العديمة الاقنية ومثلها الخصيلتان والمبيضان . فالغدد الصماء الرئيسية خمسة

(١) الغدة الدرقية والغدد المجاورة لها (The Thyroid and Parathyroid Glands)

(٢) الغدة الصعترية (Thymus Gland)

(٣) الغدتان اللتان فوق الكلية (Superarenal Glands)

(٤) الغدة النخمية (Pituitary glands)

(٥) الغدة الصنوبرية (Pineal body) ونبحت عن كل منها باختصار مبينين اهميتها الحقيقية

﴿ الغدة الدرقية ﴾ — تتألف هذه الغدة من فصّين كل منهما على جانب من جانبي القصبة Trachea عند اتحادها بالحنجرة وطولها نحو ٥ — ٦ سنتيمترات . لقد درسوا هذه الغدة في الضفادع درساً مدققاً في جميع الحيوانات البرمائية (الامفية) ما عدا النمر اليسير يتولد فرخ صغير له ذنب وخياشيم ولكنه خلو من الاطراف وهو يستطيع السباحة ويسمى هذا الفرخ Tadpole ففي دور من ادوار حياته تتلاشى الخياشيم والذنب وينشأ له ساقاً فيحدث فيه تبدلات داخلية وخارجية تصيره ضفدعاً . فما هو سبب هذا التطور ؟ Metamorphosis وجد جودرث نالش J. F. Gudernatch اننا لو اطعمنا فروخ ضفادع صغيرة جداً قطعاً من هذه الغدة فانها تتبدل الى ضفادع سريعاً اي تتلاشى خياشيمها وذنبها ويظهر لها ساقان ولكنها تكون صغيرة كالذبابة فيحصل التبدل بسبب اطعامها هذه الغدة وهي صغيرة بعد . وبالواسطة نفسها جعلوا فرخ الضفدع من النوع الضخم Bull-frog الذي لا يتطور عادة قبل السنة الثانية أو الثالثة من عمره ان يتطور في السنة الاولى فبعد اسبوعين من اطعامه هذه الغدة يتطور ويصير ضفدعاً . ويحدث عكس ذلك اذا استأصلنا الغدة الدرقية من هذه الحيوانات فانها تنمو وتكبر ولكنها لا تتطور اي لا تتلاشى خياشيمها ويظهر لها ساقان .

وقد اكتشف Kendall سنة ١٩١٤ خلاصة هذه الغدة أو الإفراز الداخلي الذي تفرزه واسمه ثيروكسين Thyroxin فالملغرام منه يزيد الاستحالات الغذائية Metabolism في الشخص ٢ بالمائة عن معدنها ولهذا الإفراز تأثير فعال في نمو الجسم والعقل كما سرى ويعزى فعله الى وجود معدن اليود Iodine فيه . واول من اكتشف هذه الحقيقة W. W. Swinge وقد قدروا انه يوجد ١ - ٢ ملغرام من معدن اليود في كل غرام من وزن الغدة

تنمو الغدة الدرقية تدريجاً كسائر اجزاء الجسم ولا تفرز افرازها الا في دور معين من ادوار الحياة فمتى جاء ذلك الدور تفرز الافراز الداخلي وتحدث تأثيرها الخاص فيتطور فرخ الضفدع الى ضفدع. ومما يجب ملاحظته ان تأثير هذه الافرازات الداخلية يختلف باختلاف اجزاء الجسم وباختلاف الانواع والاصناف وقد درسوا هذه الحقيقة في الحيوانات البرمائية فوجدوا ان تأثير افراز هذه الغدة ناجم عن اسرعه استحالة الغذاء (ماتابولزم) فاذا افرطنا في اطعام فرخ الضفدع الغدة الدرقية خف وزنه كثيراً فتتلف انسجة جسمه ويموت واذا استمررن على اطعامه تنشأ فيه علامات تشبه الموت جوعاً ونفس الشيء يحدث في الحالة الطبيعية في اثناء تطوره فان افراز الغدة الدرقية يتلف الخياشيم والذنب وبعض اجزاء الامعاء فيتلاشى مايتلف بالامتصاص ولا يبقى من الامعاء الا جزء قصير ولكن هذا الافراز لا يفعل بالاطراف ما فعله بغيرها بل على الضد يجعلها تنمو وتنوع الى اصابع وعقد ومفاصل . واعضاء التناسل لا تتأثر به فلا تتلاشى ولا تزداد سرعة نموها بل تظل سائرة بحالتها الطبيعية كأن لم يكن ذلك الافراز . وقد عزوا تنوع فعله الى تنوع السيتوبلازم ولا تزال حقيقة امره مجهولة . وفي بعض انواع الحيوانات البرمائية تؤثر بالزعانف ولا تؤثر بالذنب فتأثيرها يختلف باختلاف نوع الحيوان فالـ Axolotl حرذون كبير ذو خياشيم خارجية حمراء بارزة وذنب صالح للسباحة وغيرها من الاوصاف التي تؤهلها للعيش في الماء فاذا اطعمناه الغدة الدرقية تطور سريعاً كما تتطور فرخ الضفدع فتتلاشى خياشيمه ويتغير شكل جسمه ويعود غير صالح للعيش في الماء فيزحف على اليابسة ويصير Amblystoma اي نوع الحرذون الذي يعيش على اليابسة . وليس عدم تطوره في الماء ناشئاً عن فقدان خلاصة هذه الغدة بل الغدة موجودة بحالتها الطبيعية ولكن عدم تأثيرها في حالة كهذه لا يزال مجهولاً . وللغدة الدرقية تأثير كبيراً في نمو الانسان الجسدي والعقلي فالاشخاص الذين تكون هذه الغدة ضعيفة فيهم أو معدومة ينشئون قداماً أو بلهاً ويدعى هذا المرض القدم (١) Cretinism وهو يحدث في الاطفال والاولاد والبالغين ويقال له في الكبار مكسدما Myxoedema واهم علاماته ضعف شديد وتوقف نمو

(١) القدم لغة العي عن الكلام في رخاوة وقلة فهم

الجسم وهزال وفقر دم وخشونة الشعر وسقوطه احياناً وانحطاط في القوى العقلية الى غير ذلك مما لا حاجة الى الاطالة فيه لان البحث عنه من المواضيع الطبية . والاقزام هم الاقوام القصار القامة وهذا القصر ناشئ عن نقص في الغدة الدرقية والقصر ينتقل فيهم بالوراثة واشهر قزم في التاريخ جفري هدرس Jeffrey Hudson الذي ولد في انكلترا سنة ١٦١٩ من ابوين معتدلي القامة ولما كان عمره ثمان سنوات وطوله قدم ونصف قدمه والده هدية الى دوقه بوكنهاشير ودعت الدوقة يوماً ما الملك شارلس الاول الى قصرها احتفالاً به وقدمت له هذا القزم كقطعة حلوى فاتبهج به الملك وابقاه في بلاطه ومنحه لقب « فارس » لاجل السخرية وبقي طوله ١٨ بوصة (انتش) من سن الثمانية حتى بلغ الثلاثين ولما مات كان عمره ٦٣ سنة وطوله ٣ اقدام وتسع بوصات . وكان له شأن في حياته فاخطفته بحارة الدانمارك ثم باعه قرصان البرابرة عبداً فهرب ورجع الى انكلترا وصار زعيماً في الجيش الملكي وقد قتل رجلاً صحيحاً لأنه سخر منه وأخيراً سجن لأنه قام بحركة ضد رجال الدين

وتضخم هذه الغدة يسبب مرض الغوتر Exophthalmic Goiter وكثيراً ما نشاهد في القسم الامامي من عنق النساء على الاخص تضخماً ناشئاً عن تضخم الغدة المذكورة ومتى ازداد التضخم يسبب جحوظاً في العينين وخفقاناً في القلب وبطئاً في ضرباته ورعشة واضطراباً في العقل وضعف في القوى الى غير ذلك . وقد نسبوا هذا التضخم الى قلة الايودين في الغدة فالسا كنون قرب البحر حيث يتوفر هذا المعدن لا يصيبهم هذا المرض اما السا كنون على شواطئ البحيرات فمعروضون له . والخلاصة ان لافراز هذه الغدة تأثيراً في نمو الجسم والعقل فضعفها او تلاشيا يعرض المرء للموت وتضخمها يسبب امراضاً فتاكة فاذا اعطي المصابين بمرض من امراضها خلاصة هذه الغدة فانهم يشفون من مرضهم

✽ الغدد المجاورة للغدة الدرقية ✽ — ان هذه غدد صغيرة طول الواحدة منها نحو ٦-٧ مليمترات وعددها اربعة وموقعها في الوجه الخلفي من فصي الغدة الدرقية حيث يوجد غدتان وراء كل فص . وقد وجدوا ان استئصالها في الحيوانات يؤدي الى الموت . ويرجح الباحثون ان وظيفتها تنظيم المواد الكسائية (الجيرية) والسيطرة عايمها فافرازها الداخلي منوط به عميل المواد الكسائية فاذا كانت ضعيفة تقلل المواد الكسائية في الدم ويتعرض الفرد لحالات عصبية قتالة . وكثيراً ما يصاب الاطفال بتشنجات عصبية يرافقها هزات عنيفة يسميها الناس « هزة الحائط » ويعززون هذا المرض الى قلة المواد الكسائية الناشئة عن ضعف هذه الغدة واعطاء المريض خلاصتها يزيل هذا المرض وقد نسبوا اليها مقاومة السموم التي تنشأ في الجسم وملاشاة تأثيرها . هذا ما هو معروف عنها حتى الآن

مملكة الخيال

منى ان تكن حقاً تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمناً رغداً

أهنية قطع الضحى ام جيلا
ماضراً فرك لو تلاً وانياً
عاجلت أحلام الدجى فطويتها
ما كان انهاها. يلون سحرها
ويثير فيهن الحياة شبيهة
راض الشفاء الشامسات على الهوى
وحنا على بؤس العفاة فما رأوا
خلع النضارة والشباب عليهم
نعم وان كانت تحول مع الضحى
اي المبهج لم تكن لتحولا

كفروا بقدرته . واومن أنها
تحنو على القلب الجريح فينثني
وترف اب حمي الهجير غمامة
وتحوّل البید الظماء خمائلاً
فكانها— فيما تزخرف من منى—
تحمي الوجود وتملك التحويلا
ريان من رحمتها مطولا
وندى وظلاً في الهجير ظليلا
سكرى وربعا ضاحكاً مأهولا
آس تحاول كفه التجميل

ان الذي خلق « الحقيقة » علقماً
تتصارعان — ولا ترى إحداها
تدعو (المنى) زمر القلوب (واختبها)
والكون بين الضرتين مقسم
واعذر على البغي القلوب فطالما
اما الدجى — والفجر من اعدائه —
خلق « المنى » للواردين شمولا
ظفراً — لتبسط حكمها وتطولا
تدعو بصائر في الوغى وعقولا
فاشهد قبيلاً يستبيح قبيلاً
قيدت وذلل صعبها تذليلا
فلقد بصرت به يخر جديلا

قل للحقيقة : ان قسوت فرما
ان تملكي الدنيا وسر كنوزها
فك الزمان أسيرك المكبولا
لم تملكي الاحلام والتأميلا

افق المنى احنى وأرحب عالمًا
صوني الكنوز عن العفا فلا ترى
وتخيرها للقوي سلافة
واذا شكا العافي فسوطك واسمعي
وتنكري للنائمين على الطوى
ما كان جودك للسعادة ضامنًا
وأحنُ أفياءً وأزين سولا
عين إلى تلك الكنوز سبيلًا
وغنى وطرفاً ناعساً مكحولاً
نغم الالوهة زفرة وعويلاً
الله قد خلق « المنى » لتديلاً
صدقا وبخلك بالشقاء كفيلاً

هذي الحياة غنت لبأسك رهبةً
وزماجرًا قامت على غمائها
ملكيت يداك هواءها وبحارها
العلم يحكم وحده متعسفًا
والعلم ان ملك القلوب فسمه
والعلم ان ملك القلوب فسمها
لا نبض ما خفقت به لكنه
اما الاكف نخيرها ذو جنة
العلم سخرها وحسب العلم ان
عفى على حرم الخيال وقده
ولقد وقفت به أناشد غائبًا
وبكيت - أجزيه - وربّ مدامع
فتسمعي لجبا بها وصهيلًا
من حكمك العاتي القوي دليلًا
والكون اجمع عرضه والطولا
لا قلب في سلطانها وميولا
وحشية وادع الحضارة غيلا
حجرًا ننوء بعبئه محمولا
صوت الحديد غدا يصل صليلا
حطم الرباب وعالج الازميلا
تزن الامور جميعها وتكيلا
او ما ترى حرم الخيال ازيلا
قفل الخليط وما اطاق قفولا
خففن كرباً او شفين غليلا

عهدي به والشعر في ادواحه
خضل المروج ترف انداء المنى
وجلا لك الدنيا - على ما تشتهي
وأعاد مطوي العصور - وأدماً
منح الخلود ولا ميول ولا هوى
غزل يحاور من احب وسره
تتغير الالوان . تغمر نفسه
يعشى القلوب اغانيًا وهديلاً
فيه السرائر بكرة واصيلاً
منها - يملق حسك المختولاً
يحنو بأدمعه على هايلاً
فأبى وأثر غربة ورحيلاً
ان فارق التكبير والتهليلاً
بالحسن ، لا نزرأ ولا ممولاً

وتبدل الالوان . نعمة خالد لم يدر في فردوسه التبديلا
 وترى بأفياء الحائل عزة * * * تخنو لتحتضن النهود جيلا
 فانعم برؤية عاشقين تلاقيا سحراً وقد هوت النجوم افولا
 واعذر جيلاً حين جن جنونه فسطا ولا غزلاً ولا تأهيلا
 نشوان يجذبها إليه — ولا يرى إثمًا — ويلهب عريها تقبيلًا
 يترشف الثغر الشهي سلافة ويرفه كالأقحوان بليلا
 ودعى وردن على الغدير وما اتقت * * * حسناء هن الشاعر الضليلا^(١)
 حتى اذا أخنى البرود وسامها أمراً رأته من الحياء جليلا
 عطفت تناشده العفاف وأتلعت جيداً — كالألاء الصباح — اسيلًا
 فأبى وتسرع نحوه عريانة خجلى — لقد حبّ الجمال خجولا
 وتطالع المجنون في اسماله * * * شلواً بأنياب السقام أكيلا
 خذلته نعماء العيون وسخرت للعبقرية ذلك المخذولا
 فهو صريعاً : بالرمال مكفنًا * * * بمدامع الصبح البليل غسيلا
 وفنى قریش^(٢) وهو يقتل طرفه ليرى الثرى والهأ مخبولا
 عبثت لتشهد منه أية لوعة تجزى واي هوى ملح تولى
 وسكينة^(٣) والشعر في ابوابها * * * والحسن يبعث شجوه فيقول
 نشوى الدلال . تعب من خمر الهوى سكرًا ويمنعها الحياء تميلًا

(١) امرؤ القيس بن حجر ويشير الشاعر هنا الى حكايته مع ابنة عمه — وكانت هوى له — حين أخنى بردها وبرود رفيقات لها — وكان يسجن في غدير — فلما اقتنيت من الماء لهواً وابتزاداً . أبى علي بن البرود . الا ان يأخذها منه واحدة فواحدة تاريت . وقد نزلن عند هواه الا ابنة عمه فقد تعللت وسوقت . ثم رضيت واذعنت
 (٢) جاء في الأغاني ان عمر بن ابي ربيعة كان مدلهاً بالثرى وكانت عرصة ذلك جمالا وتماماً وكانت تصيف بالطائف وكان عمر يغدو عليها كل غداة اذا كانت بالطائف فيسئل الركبان من الطائف عن الاخبار قبلهم . فاتي يوماً بعضهم فسأله عن اخبارهم فقال ما استطرفنا خبراً الا انني سمعت عند رحيلنا صوتاً وصياحاً عالياً على امرأة من قریش اسمها اسم نجم في السماء فقال عمر الثرى قل نعم فوجه فرسه الطائف يركضه ملء فروجه وسلك طريق كذا وهي اخشن الطرق واقربها حتى انتهى الى الثرى وقد توقفت وهي تتشوف له وتشرف فوجدها سليمة عجيبة فآخبرها الخبر فضحكت . وقالت والله أنا أمرتهم لاخبر مالي عندك . والى هذه القصة يشير الشاعر في آياته هذه (٣) سكينة بنت الحسين وهي من اطرف نساء التاريخ العربي القديم

ملؤ العيون مفاتناً لكنها ملؤ القلوب عللاً اعزاً أثيلاً
وقف العفاف يذود عن ذلك اللمى - الأمانى - شرس الذباد بخيلاً
وتذيع جنتها عبيراً ربما اخذ الشذا القدسي عن جبريلاً

وأبا نواس في مجالس لهوه قسم الليالي سكرة وذهولا
حالي الدعاب هفا وعلل ذنبه للأمين فأحسن التعليلا
حسب الحياة سلافة ومهفمفاً والباقيات من الحياة فضولا
لم يهوه غير الحسن في خفراته وأحبه عند القيان ذليلاً
من كل نافرة فار جشتها ألفت عقد نطاقها محولاً

وترى ابن برد^(١) وهو في نزواته كالليث مرهوب السطا معزولا
هتك الفضائح بعد صون وانتضى للمالكين بيانه المصقولا
فرموه بالاشراك ثم تلمسوا من حاسديه شاهداً مقبولا
حتى اذا عز الشهود تمحلوا فرأوا شهوداً في القريض عدولا
زعمته أهواء السياسة كافراً تالله ما بالكفر راح قتيلاً

متجاورين . ترى بكل بليلة عند الغدير خلية وخليلاً
متنادمين على الحمائل انشدوا غرر النسب ورتلوا التنزيلاً

سقى لنعماء الخيال ولا رأت عيناى ربعاً من هواه محيلاً
أثمت بزينته الحضارة واقتضت شر التقاضي دينها الممطولا
شوهاء تحلم بالقبور ولا ترى الآلى الاسى والشكل والترميلاً
ويعد منطقها الضجيج تناسقاً والحب علماً قد أعد فضولا
فاذا اردت الحب . فابغ نعيمه عند الكتاب وحاذر التأويلاً
وتعلم الحركات من صفحاته والدمع كيف تروضه فيسيلاً
واحذق معاتبة النجوم ولومها متوجعاً وتعمد التطويلاً

(١) بشار بن برد وقد قتلته السياسة باسم الدين

فن الكياسة في كتابك ان ترى بين النجوم على هوائك عدولا

حرم الخيال فدى رؤاك حضارة
هيئات حسنك من جمال خادع غش العيون وأحكم التضليلا

إني لألمح في الغيوب رسالة
وكتاب حق لا يبالي في الهدى
انجيل عيسى في الحنان وان يكن
وبيان أحمد قوة وعدوبة
عفى على مدنية صخابة
جبارة لا عطف في أقدارها
يمنى تعدد لك المتاع واختها
تبني وتهدم كالحياة وربما
لا عطف يخفق في الصدور ولا هوى
والعلم . ويل العلم يوم حسابه .

هذا كتاب الغيب فيه رحمة
غسل الوجود من الضغائن والهوى
ودعا « الضمير » محاسباً متأنقاً
وتلاقت الانساب . يغمر عطفه
ساوت بساطته الشعوب فما ترى
وحنت على النفس الاثيم . فأبصرت
ولدت أخيلة الشرائع فكرة
خلقت له الاسماء وهو كناية
ورمت به الانسان في نعمائه
لم ترض تعذيب الحياة فسخرت
فكأنما تلك الشرائع تقتضي

تسع البرية مترفاً ومعيلا
لتحل روح الله فيه حلولا
فكانه من آل اسرائيل
منها فروعاً سمحة وأصولا
فيها هجيناً او تعد أصيلا
إثم النفوس على النفوس دخيلا
فما بأحضان الحضارة غولا
وتخيلت ألوانه تخيلا
فتصيدته مكبلاً مغولاً
بعد الردى لعقابه « المجهولا »
عند النفوس ضغائنًا وذحولا

بدوي الجبل

٢٢ مارس ١٩٣٢

رسالة من رومية الى بغداد

في اوائل العصر العاشر

للاستاذ بارتولد عضو اكاديمية بطرسبرج

ظهرت سنة ١٩١٢ في مجلة المستشرقين الايطالية مقالة صغيرة في اللغة الفرنساوية لاسستاذ جامعة بطرسبرج ق . انستراتنسيف (C. Inostrancev) تحت عنوان « من علاقات رومية بالخلافة العباسية في اوائل العصر العاشر »^(١) اتي فيها صاحبها على ذكر الهدايا التي بعثت بها سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ — ٩٠٦ م) « ملكة الفرنك » الى الخليفة المكتفي (٩٠٢ — ٩٠٨) و اشار الى ما قد يكون لهذا الحادث من الشأن التاريخي

ومما جاء في الرسالة قولها « واني اعلم ما بينك وبين ملك القسطنطينية من المحالفة على ابي اقوى منه وعندي من معدات الحرب اكثر مما عنده وتحت سلطتي ٢٤^(٢) مملكة لا يشبه لسان احداها لسان الاخرى ورومية الكبرى باجمعها تخضع لي »

يظهر ان ادلة الاستاذ التي اوردها ليدل بها على ان « ملكة الفرنك » هي تيودورا امرأة تيوفيلكت قنصل وسناطور (عضو في مجلس الشيوخ . ج) الرومانيين التي كانت يومئذ ترأس حكومة رومية فعلاً متينة لا غبار عليها اذ من المعلوم ان تيوفيلكت وامراته كانا حقيقة يرأسان رومية في ايام الپاپا سرجيوس الثالث (٩٠٤ — ٩١١) ولقد اصاب ايضاً الاستاذ حين قال انهم بالغوا كثيراً في المكانة السياسية التي نسبوها الى تيودورا في الرسالة التي بعثوا بها باسمها اخذ صاحب المقالة خبر الرسالة من مجموعة آداب عربية (ملحق ادبية) لكتاب من اصل بربري كان يقيم في دمشق ويدعى علاء الدين البهائي الغزولي^(٣) الدمشقي (توفي سنة ٨١٥ هـ)^(٤) وهذا — على قدر ما نعلم — المصدر الوحيد الذي كان يومئذ معروفاً ولهذا لم يكن لصاحب المقالة الا ان يفترض أن الغزولي (وهو من الكتبة المقلدين) استقى هذا الخبر من مصدر اقدم

(١) C. Inostrancev, Note sur les rapports de Rome et du Califat Abbasside au commencement du X Siècle. Rivista degli Studi Orientali IV, 1911—1912, 81—86

(٢) راجع كلام ياقوت الحموي ٢ : ٦٨٩ عن ٢٤ كنيسة من اهم كنائس رومية وياقوت اخذ روايته هذه عن ابن الفقيه التي وقع فيها تحريف عند اختصارها (انظر 10, 150, Bibl. Geogr. Arab. V) والتفتيه (g) (٣) راجع عنه كتاب Brockelmann « تاريخ الآداب العربية » ٢ : ٥٥ وعن الرواية التي اوردها الاستاذ تاريخ الغزولي المطبوع في القاهرة ج ٢ : ١٣٥

(٤) يظهر ان صاحب المقالة سبى حين قال ان الغزولي « كان من كتبة العصر الثالث والرابع عشر »

واني انا ايضا كنت ذكرت في مقالتي عن « العلاقات بين الفرنك والمسلمين » التي نشرتها سنة ١٩١٥ في مجلة « الشرق المسيحي » الروسية ان خبر هذه الرسالة لم يرد الا في مجموعة آداب عربية يرجع عهدها الى العصر الرابع عشر او الخامس عشر^(١) وما ذلك الا لاننا كلانا لم ننتبه الى ان الرسالة ذكرت لأول مرة في مصدر قديم — من العصر العاشر — يعرفه كل من يشتغل بالعلوم العربية وهو كتاب الفهرست لابن النديم (في باب حروف الهجاء)^(٢) حيث قيل عن حروف الهجاء عند الفرنك اي عن الحروف اللاتينية ما نصه « وحروفهم تشبه حروف اليونان الا انها احسن منها لانها اكثر استواء فقد رأيناها احيانا على سيوف الفرنك وكتبت ملكة الفرنك كتابا الى (الخليفة) المكتفي على حرير ابيض وارسلته مع خادم (اي خصي) قدم الى املاكها من الغرب (من افريقية الشمالية) تطلب من المكتفي مهراً (صدقا) وتعرب فيه عن رغبتها في زواجه واسم هذا الخادم ألبا — (Alba) وهو من خدام ابن الاغلب^(٣) ظاهر من اول نظرة ان الغزولي لم يأخذ عبارته عن الفهرست بل — وهذا هو الأرجح — عن مصدر آخر اقدم وأصح في ما يتعلق على الاقل بهذا الخبر لان تيودورا كانت — على قدر ما نعلم ونستطيع ان نحكم — في هذا الوقت امرأة السناطور تيوفيلكت وعليه يصعب ان نفرض انها عرضت نفسها على المكتفي كما يصعب ان يكون بلغها شيء اكيد عن الخليفة وانه كان شابا وجيلا المنظر^(٤) (توفي المكتفي سنة ٩٠٨ وله من العمر ٣١ او ٣٢ سنة)

يؤخذ من عبارات الغزولي ان في رسالة « ملكة الفرنك » مضادة بين بزنية « ورومية الكبرى » القديمة وهذا محتمل لانه يتفق مع وجدان رجال ذلك العصر وميولهم السياسية والى ذلك اشار العالم غريغوروفس في كلامه عن النقود التي صكها البابا سرجيوس الثالث وكتب عليها *salus patriae* (سلامة الوطن) وانها هاجت ذكرى رومية القديمة^(٥) وعزها السالف . اما ما جاء في الرسالة عن المحالفة (او « الصلة » كما في الرسالة) بين بزنية والخليفة فهو غير صحيح ولا هو يتفق مع التاريخ في شيء . نعم ان المكتفي وملك الروم ليون السادس تراسلا وتهاديا سنة ٩٠٣ (٢٩١ هـ)^(٦) الا ان الحرب عادت فشبت بينهما حتى ان فداء الاسرى الذي كانوا شرعوا فيه في ايلول من سنة ٩٠٥ (٢٩٣ هـ) لم يتم لان الروم انصرفوا بغتة بمن كان معهم من اسرى المسلمين فحسب ذلك المسلمون غدرا^(٧) منهم ولم تتجدد المكاتبة بين

(١) مجلد ٣ ص ٢٦٤ (٢) كتاب الفهرست ص ٢٠ من طبعة اوربا (٣) المراد هنا زيادة الله الثالث آخر امراء الاغلبيين (٩٠٣—٩٠٩) (٤) الطبري ٤٠٤: ١١ « وكان ربة جملا وقيق السكون حسن الشعر وافر الجملة وافر المعجة » و (كتاب الصلة لريب ص ١٢ ب . ج)
(٥) راجع كتابه *Kleine Schriften* ١: ١٦٢ (٦) طالع عن ذلك تأليف الاستاذ ا. فاسيليف « بزنية والعرب » ٢ : ١٣٧ — (في الروسية) وهناك نجد المصادر
(٧) وقد ذكر ذلك الطبري (١١ : ٣٩٣) والمسعودي في مروجه بمبارات واحدة

الطرفين عن الصلح والقداء الا في سنة ٩٠٧ اما القداء فلم يقع فعلاً الا في سنة ٩٠٨ وذلك في خلافة المقتدر (٩٠٨ - ٩٣٢)

يصعب علينا ان نبت في هل كان الغرض من رسالة تيودورا الحصول على منافع سياسية معلومة اي انها ارادت كما يفترض الاستاذ صاحب المقالة ان تفوز بمساعدة من الخليفة ضد عرب افريقيا الذين كانوا يسطون وقتلوا من مستعمرتهم على شاطئ نهر غاريليانو Gariliano^(١) على مقاطعتها الرومانية وينهبون ويقتلون اهلها وذلك في قبيل مساعدة تقدمها له ضد بنزطية. على انه يظهر من رواية الفهرست ان اصحاب رومية لم يكونوا يفكرون في ارسال شخص ذي منصب يتفق مع خطورة مهمته السياسية وانما انتهزت الملكة تيودورا فرصة سفر احد الخدم (الخصيان) الاثين من بلاد الاغليين^(٢) الى الشرق لترسل معه رسالة الى خليفة بغداد الا اننا لا نعلم هل كان هذا الخادم اسر في احدى المناوشات التي وقعت بين الرومانيين وعرب المستعمرة المذكورة او انه هجر اراضي الاغليين لما اصابه من ولاة الامر فيها كما اننا لا نعلم هل كان يومئذ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه

يدخل في سنة ٢٩٣ الهجرية جميع الوقت الذي يبتدىء من نوفمبر (تشرين ثان) من سنة ٩٠٥ م وينتهي في اكتوبر (تشرين اول) من سنة ٩٠٦ والذي نعلمه عن هذه السنة ان المكتفي قضاها كلها في بغداد ففي ٢١ ايار^(٣) (مايو) من سنة ٩٠٦ اخرجت مضاربه من بغداد وضربت في باب الشماسية وهو الباب الشمالي الواقع على الجانب الايسر في بغداد الشرقية ومن هذا الباب كانت تبتدىء الطريق الى العراق وسوريا وقد كان الداعي الى اخراج مضارب الخليفة ان المكتفي كان ينوي الخروج الى سوريا ليقمع الثورة التي ظهرت وقتئذ في مصر الا انه ورد في اليوم الثاني خبر انتفاخ الثورة وان قائد السلطان واصحابه ظفروا بالخليجي زعيم الخارجين على الدولة مهار الاثين في ٥ ايار (مايو)^(٤) فعدل الخليفة عن الزحف وردت المضارب الى مكانها ثم صدر الامر بارسال

(١) راجع عن بنائها سنة ٨٨٣ تأليف الاستاذ فاسيليف المذكور ٢ : ١٣١ وعن تدميرها من طرف الروم والايطاليين في سنة ٩١٦ الكتاب نفسه ص ٢٠٦

(٢) كان بين هدايا « ملكة الفرنك » التي بعثت بها الى الخليفة عشرة من خصياً من اجمل خصيان صقلية (وفي الاصل استعملت كلمة خدام وهي الكلمة التي استعملها ايضاً صاحب الفهرست وقد كانت تستعمل في اغلب الاحيان بمعنى الخفي على انها وردت في العصر العاشر بمعناها الاصلي ايضاً (راجع قاموس بعض المفردات الواردة في تاريخ الطبري ص ٢١٥ اما الاستاذ Inostrancev فقد ترجمها بكلمة esclave) (وقد استعملت كلمة خفي بدلاً لخدام كقول صاحب كتاب الفخري ص ٢٣٤ : « كان في داره (دار الخليفة المقتدر بالله) احد عشر الف خادم خفي من الروم والسودان » ب . ج)

(٣) « لسبع بقين من رجب » كما يقول الطبري ١١ : ٣٩٨ (٤) الكندي (طبع Guest) ص ٢٦٢

الخليجي الى مدينة السلام فأرسل . ولما وصل اليها ادخلوه من باب الشامية للنصف من شهر رمضان (نهار الخميس في ١٠ تموز/يوليو) أما خروج الاسراء من مصر فقد كان نهار الاثنين في ٢ حزيران (يونيو) ومن هذا الباب دخل ولا شك رسول تيودورا كما كانت تدخل قبله وبعده رسل ملوك الروم .
 يحتمل ان يكون ورد ذكر رسالة «ملكة الفرنك» في كتاب الوزراء (تأليف ابي عبد الله محمد بن عبدوس — ب. ج.) الجهشيارى (توفي في سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ — ٩٤٣ م) الذي وقف فيه — كما يستفاد من كتاب الوزراء لهلال الصابىء — عند سيرة العباس بن الحسن^(١) (وزير المكتفي والمقتدر) من سنة ٩٠٤^(٢) الا ان المخطوطة الوحيدة التي وصلت الينا من كتاب الجهشيارى والتي نشرت حديثاً^(٣) تنتهي بذكر وزراء المأمون (٨١٣ — ٨٣٣) كما وقد ختمها صاحبها بهذه العبارة : « هذا آخر ما اردناه والله اعلم » مما ينتج عنه ان المخطوطة تحتوي على جميع الكتاب

نرجح ان سيكون لعبارة الفهرست « وقد كتبت الرسالة على حرير ابيض »^(٤) اشارة خاصة بمعرفة حالة الثقافة المادية في ذلك العصر

لم يذكر ابن النديم بصراحة ان كان رأى الرسالة بعينه ام لا ولكنه على كل حال لم يكن في وسعه ان يقرأها لان معرفة اللغة اللاتينية لم تكن شائعة في العالم الاسلامي ما عدا اسبانيا والقسم الجنوبي من ايطاليا حتى ان العرب كانوا — كما تفيدنا بعض الاخبار — يخطون بين الحروف اللاتينية والحروف اليونانية^(٥) الا في اسبانيا كما قلنا فانه كان بين العرب من كان يحسن قراءة الحروف اللاتينية نذكر منهم البكري احد جغرافيين الاندلس في العصر الحادي عشر فانه كان يقرأ اسماء « الجزائر السعيدة » (او الخالدة ب. ج.) Fortunatal^(٦) — باللاتينية وقد شهد له الغزولي بأن كتابه خير التأليف العربية في الجغرافية^(٧)

وليس ايضاً بواضح ان كان « تاريخ الفرنك » الذي قدمه غودمار (Godmar) اسقف مدينة جيرونا (في كاتالونيا) هي Gerona في خارطت هذا اليوم و Gerunda القديمة) الى

(١) راجع The Historical Remains of Hilal Sabi, ed. Anedros, Leyden 1904, p. ٣
 (٢) طالع عن وفاة سلفه الكتاب المذكور سابقاً ص ٣٦٠ من المتن . ولد العباس بن الحسن سنة ٢٥٠ هـ
 (٣) راجع Bibliothek arabischer Historiker من الاصل ٣٦٣ م) ص ٨٠٠ — ٨٠٤
 und Geographen, ed von H. Mzik, Bd. I, 1926

(٤) لم اقف على اخبار اخرى عن رسائل كتبت في ذلك الوقت على حرير ابيض

(٥) راجع مجلة Der Islam م ١٦ ص ٨٥

(٦) راجع كتاب Abu-Obeid-el-Becri, Description de l'Afrique Septentrionale
 صفحة ١٠٩ من الاصل و ٢٤٩ من الترجمة , Alger, texte arabe par le Bon de Glane,

(٧) الغزولي ٢ : ١٧٧ من الطبعة المصرية سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ اما تأليف البكري فلم ينشر حتى اليوم

الحكم (٩٦١-٩٧٦) يوم كان ولي العهد ، مكتوباً بالعربية ام باللاتينية اذ لم يذكر هذا الكتاب الا المسعودي ^(١) وقد رآه في القاهرة سنة ٣٣٦ (٩٤٧-٩٤٨) في اللغة العربية على ما يظهر ان كان اللهم الاصل وضع في اللاتينية وقد نبّه ^(٢) Reinaud الى ان كاتالونيه كانت من عهد شارل الكبير داخلة في حكم الفرنك وعليه يكون غودمار الذي ترأس البعثة الى الخليفة المذكور من تبعة الملك لويس (ليودشيك) الرابع المعروف بلويس « ما وراء البحر » (d, outre - mer - ٩٣٦ - ٩٥٤)

ثم لا شك في ان الرسالة شأنها لمعرفة تاريخ رومية في ذلك الوقت اذ نستطيع ان نستنتج منها ان تيودورا كانت سيدة « المدينة الخالدة » بلا نزاع وصاحبة السلطة فيها ليس فقط في نظر معاصريها بل وفي نظر الجيل التالي . زد الى ذلك ان هذه الرسالة التي بعثتها « ملكة الفرنك » الى بغداد في اوائل العهد المعروف بعهد « حكم العهارة » Pornocratie - (العبارة لبارونيوس من اهل العصر السادس عشر) في رومية تؤكد مرة اخرى رأي بعض المؤرخين في ان النساء اللواتي كن يحكمن وقتئذ في رومية ويخضعن لهن بلا حياء ولا خجل مما تقتضيه الآداب المسيحية لم يكن من النساء اللاتي لا قيمة ولا شأن لهن كما يصورهن المؤرخون الكنائسيون الذين لم يكونوا يرون فيهن الا بثورة عسيرة ودعارة

ولا بأس ان ننبه اخيراً الى ان كتاب تيودورا أرسل من رومية الى بغداد في زمن لم يكن ظهر فيه بعد نمو مدينة أمالي ^(٣) او ان العرب لم ينتهبوا الى ذلك وهذا الزمن يُعَدُّ احدي الصفحات الاولى من تاريخ علاقات اوربا الغربية مع العالم الاسلامي مباشرة اي بدون وساطة الدولة البزنطية تلك العلاقات التي مهدت للبلاد الغربية في اوربا اسباب التفوق على غيرها في ميدان الثقافة والاقتصاد

نقلها عن الروسية بامانة

پ . ج

باكو

(١) مروج الذهب ٣ : ٦٩ (من الطبعة الاوروبية)

(٢) راجع كتابه : Invasions des Sarrazins en France Paris 1856, XV, 39 p.

(٣) لم يرد ذكر امالي في كتب العرب قبل النصف الثاني من العصر العائمر (طالع . Bibl. Geogr. Arab. II, 135)

وراجع عن مستعمرة امالي التجارية في القاهرة تاليف الاستاذ بارون روزن « فاسيلوس

قتال البلغار » (بالروسية) بطربرج ١٨٨٣ ص ٢٩٥

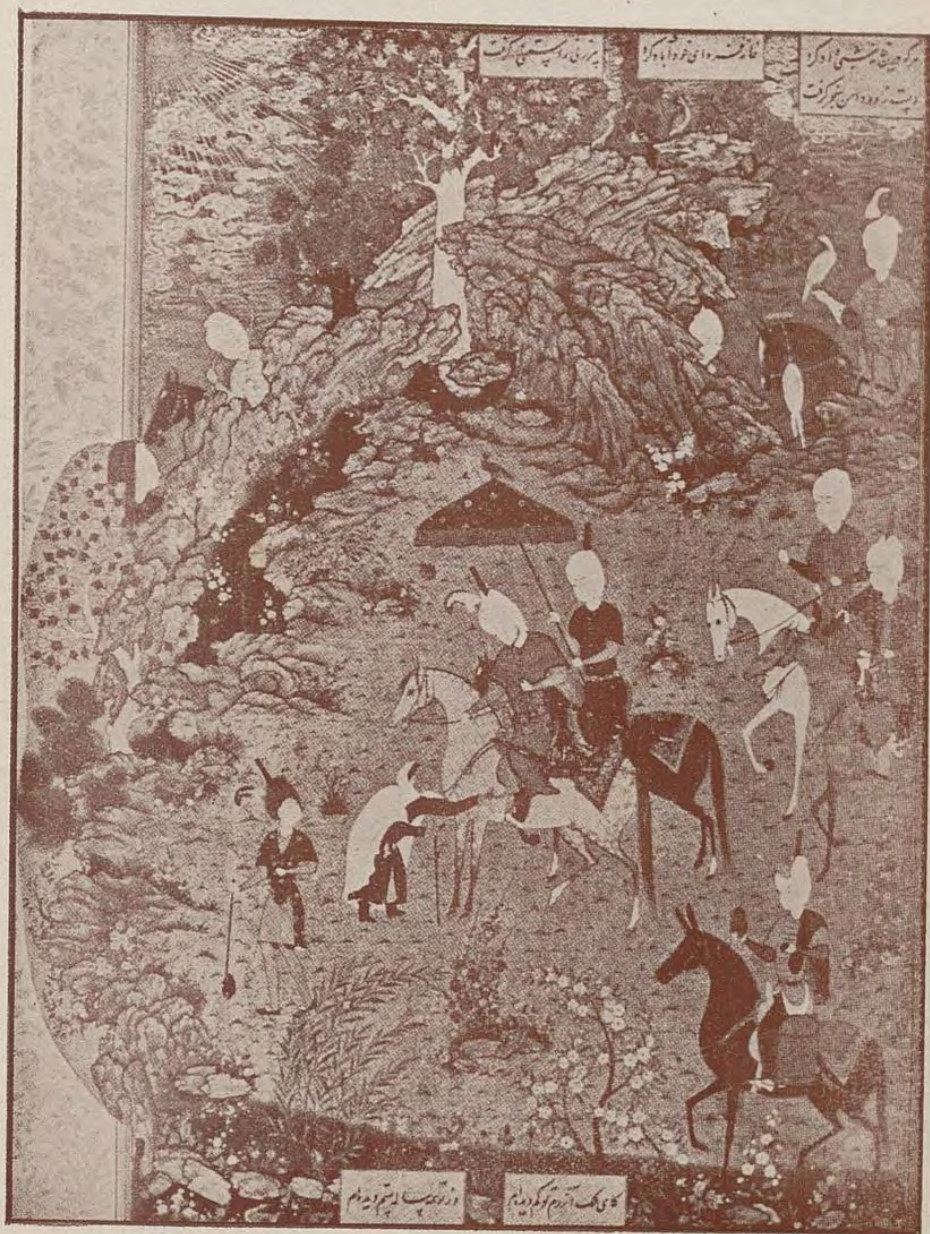
القبة والطير

أو
مثال من رسوم الملك والآله في دولة المماليك

بمصر كما وردت في صورة فارسية
بقلم مدام ر. ل. ديفونشير : تمريب محمود عكوش

لقد زاد الاهتمام في العهد الاخير زيادة لم تعهد من قبل بالصور التي تتحلل بها النخطوطات الفارسية وظهرت عنها مطبوعات لطيفة كالتى اصدرها السير توماس ارنولد والدكتور مارتين والمستر لورنس بينيون والمسيو بلوشيه والدكتور كويهنل وغيرهم فاصبح السبيل ممهداً امام الجمهور للاستفادة من هذه الطرف المصورة

وعادت هذه التسهيلات على المشتغلين بدراسة التاريخ الاسلامي بالنفع الجليل لكثرة المعلومات التي اصبح من الممكن الحصول عليها بامعان النظر في هذه الطرف . وليس الامر في ذلك قاصراً على الصور النادرة التي تمثل بعض المسامين بهيئاتهم وملابسهم بل لان هذه الطرف تجمع ايضاً كثيراً من التفاصيل النفيسة من زخرفة البيوت وادواتها وزينتها والازياء وغير ذلك وقد تملكني الفرح بينما كنت اقلب بعض الصور الجميلة التي طبعت في مجلة «ذي ستوديو» من ديوان النظامي المحفوظة اصولها في المتحف البريطاني وعني المستر لورنس بالكلام عليها اذ عثرت بينها على صورة تمثل احد ملوك فارس من القرن الثاني عشر الميلادي فيها بعض رسوم الممسك التي كان يتخذها بعض سلاطين المماليك وكنت اتلف للاطلاع عليها من زمن طويل وهي صورة « القبة والطير » المتعدد ذكرها في وصف مواكبهم الملوكية اثناء حكمهم على مصر والشام وفي الشكل رقم ١ صورة سمح لي بنقلها من الاصل المحفوظ بالمتحف البريطاني يرى فيها السلطان سنجر وهو على فرسه يستمع لامرأة عجوز وقفت تحتج عليه بسبب اطلاقه عنان الحرية لجنوده وعلى رأس السلطان المظلة الملوكية وفوقها الطير الذهبي يحملها احد الفرسان وهو في زيه الجميل



(ش ۱) السلطان سنجر علی فرسه یستمع لعجوز (المتهحف الیریطانی)

ونشر مسيو بلوشيه في كتابه « صور المخطوطات الفارسية والتركية بالمكتبة الاهلية » طبع باريس سنة ١٩١١ صورة اخرى تمثل هذه الواقعة نفسها وهي من عمل محمود المزوق المشهور في سنة ٩٥٢ هجرية الا ان المظلة المرفوعة على رأس السلطان كانت تعلقها « كرة » بدلاً من الطير . وهناك صور اخرى فيها مظلات محمولة على رأس السلطان ولكنني لم اعثر بينها على مظلة واحدة عليها الطير

ويوجد في المناظر الموضوعة عن بلاد الشرق وافريقية وفي بعض المؤلفات امثلة عديدة من المظلات التي كانت تعد من شعار المُلُك^(١)

ومن أقدم هذه الامثلة صورة من النقوش البارزة في مدينة بيرسيبوليس (تشميل منار) بالقصر الاخميني تمثل الملك اكزسيس ماشياً وبعض حجاجه يحمل المظلة على رأسه (لوحة ١٥ من كتاب « الفن ببلاد فارس القديمة تأليف سار ») . وقد ارشدني مسيو بلوشيه الذي تلطف وساعدني مساعدة قيمة في هذا البحث الموجز الى ان المظلات الصينية والانامية كانت حمراء اللون ولها حاشية يختلف لونها عن اللونين الاصفر والذهبي المستعملين في مصر واورد كآثر مير عدة نصوص عن المظلات الملوكية في بلاد الاسلام في ترجمة السلوك للمقرزي المسماة « سلاطين الممالك » وفي ترجمة « سلاطين المغل » لرشيد الدين

وذكر ابن بطوطة عن بعض حكام القسطنطينية — ممن لم تعرف شخصيتهم للآن — انه اكرمه برفع « العترة » على رأسه . وقد اطلعت في كتاب مختصر التاريخ للفضل بن ابي الفضائل (پاتولوجيا اورينتالي) طبع بلوشيه ص ٥٢٦ على قصة لاحد الامراء وكان معجباً بحمل العترة على رأسه . ونقل كآثر مير من « كتاب تاريخ دولة آل سلجوق » للفتح بن علي ابن محمد البنداري الاصفهاني ان السلطان سنجر في حربه مع الخطاقي في عدد قليل فقال له الامير ابو الفضل صاحب سجستان « قد احدثت بنا العساكر ودارت علينا الدوائر فانج بنفسك لاقف مكانك تحت العترة » . وقال الكولونيل ز . ب . جنتيل في كتابه « مختصر تاريخ ملوك هندستان أو مملكة المغل » على ما رواه عنه بلوشيه ان محمد شاه . . . توفي في ٢٢ ربيع الثاني . . . واخفت زوجته المعروفة باسم « ملك زماني » موته خشية من حصول اضطراب وكتبت الى كبير الوزراء تخبره بذلك وتطلب اليه الحضور باذن السلطان وكان صغيراً الى دهلي على جناح السرعة فاعد له الوزير عترة وفي اليوم التالي حُصِّل العترة على رأس الامير في مقدمة الجيش اعلاناً بارتقائه عرش السلطنة

وما ورد في هذه النصوص وسواها لا يعدو الكلام فيه العترة او المظلة التي على هيئة قبة

(١) قال ابن خلكان في كلامه عن فتح الاندلس : وحمل لزيق (رودريك) على سريره وقد رفع على رأسه رواق ديباج يظله (ج ٢ ص ١٧٨) المرب

ولا ذكر فيها للطير . وفي سيرة صلاح الدين ومن خلفه من الملوك من بني ايوب في مصر والشام لم يرد ذكر شيء من آلات المسلك . وربما كان السبب في ذلك تنجيهم عن هذه المظاهر لخليفة بغداد . اما الخلفاء الفاطميون في مصر فانهم اتخذوا المظلة في مواكبهم الرسمية وقد ذكرها المؤرخون بلفظها العربي « المظلة » ومعناه الشيء الذي يستظل به . وقد وصف ناصر خسرو موكب الخليفة المستنصر وكان قد شاهده وعلى رأسه المظلة وذكر المقرئ عن المسيحي المظلة المذهبة التي كانت للخليفة العزيز والظاهر انه لم يكن عليها طير بدليل ان القلقشندي ايضاً لم يذكره ضمن وصف الآلات الملوكية في « المواكب العظام » على ايام الفاطميين . وكذلك ذكر المقرئ المظلات والقضب من الفضة والذهب في تعداد ما كان في خزائن المستنصر من الذخائر . ولم يذكر طيوراً من الذهب ولو كانت موجودة وقتئذ لما اغفل ذكرها

ويظهر ان احد ارباب الوظائف في العهد الفاطمي كان مكلفاً حمل المظلة لان زيدان الذي قُتِلَ برجوان الوزير على يده بأمر الحاكم في سنة ٩٩٩ ميلادية كان يلقب « بصاحب المظلة » وفي عهد المماليك كان الذي يقوم بهذه الخدمة امير له المقام الاول بين الامراء ويلي السلطان في المرتبة ويكون في اغلب الاحيان « اتابك العسكر » وكثيراً ما كان السلطان يقتل ويخلفه في الحكم من كان يقوم له بهذه الخدمة^(١) . وفي عهد المماليك اصبح الطير ملازماً للقبة لان جميع المؤرخين المعاصرين لهم كانوا اذا وصفوا موكباً من المواكب المصرية ذكروا « القبة والطير » (شكل رقم ٢) وقد اتى ابن اياس على ذكر ما لا يقل عن اثنين وعشرين سلطاناً اتخذوا القبة والطير لهم شعاراً واكثر هؤلاء السلاطين من الدولة الثانية للمماليك الجراكسة ويكادون يكونون معاصرين له . ومما يحسن بنا الاشارة اليه ان من لم يذكر ابن اياس في كلامه عنهم القبة والطير ذكره غيره من المؤرخين فنراه مثلاً لم يذكرهما في كلامه عن لاجين سنة ١٢٩٦م ولكن المقرئ على ما ذكره عنه لين بول في تاريخ مصر ص ٢٩١ يقول ان الامير بيسري حمل له القبة الملوكية فوق رأسه . وقال المفضل (طبع بلوشيه ص ٤٧٧) ان « بيسري » حمل القبة ايضاً على رأس بركة ابن بيسر الكبير وقد فات ابن اياس ان يذكر ذلك في كلامه عن هذا الاخير ، وفيما بعد نرى ابا المحاسن يستوفي ما اغفله ابن اياس كما فعل في كلامه عن الملك الظاهر ططر سنة ١٤٢١م ولقد بحث المؤرخون في امر « القبة والطير » فقال لين بول انها مظلة تعمل من حرير

(١) جاء في كلام المقرئ عما كان يعمل بعد صلاة العيدين (ج ٢ ص ٢٢٩) على عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون قوله : ويخضع على حامل القبة والطير وعلى حامل السلاح والاستادار والجاشنكير وكثير من ارباب الوظائف . ويؤخذ من ذكر صاحب هذه الوظيفة قبل غيره من الامراء انه كان مقدماً عليهم



(شكل ٢) القبة والطير



(شكل ٤) چنکیز خان

مقتطف يونيو ١٩٣٢

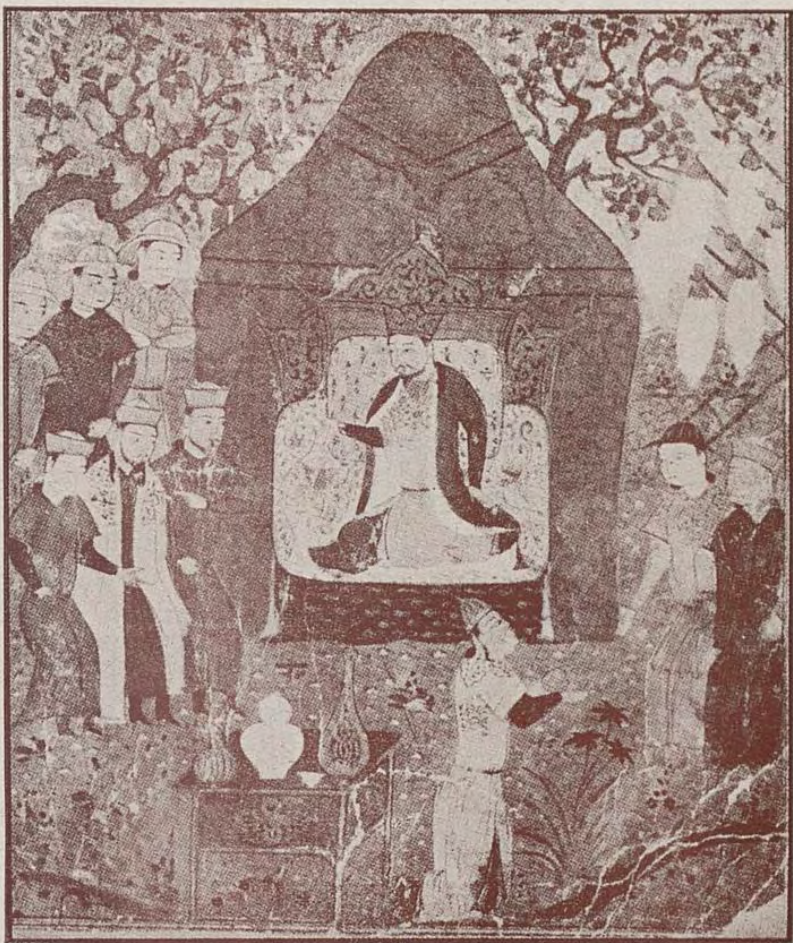
اصفر يطرز بالذهب وتتوج بطير من ذهب جاثم على قبة من ذهب وهو وصف لم اعثر على ما يؤيده وقد يكون مصدره خطأ في ترجمة قول القلقشندي ان المظلة على هيئة قبة . وقد شرح المقرئزي وابن خلدون وغيرها كيف اهلكت كلمة مظلة العربية واستعمل بدلاً منها اللفظ الهندي القديم « چتر » الذي له المعنى نفسه ^(١) . وجاء في رحلة ابن بطوطه وهي رحلة مسلمية رغم ما يتخللها من اللغو النص الآتي وهو على جانب من الاهمية : « والسلطان هناك (دهلي سنة ١٣٢٠ م) يعرف بالشطر (چتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمى بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد واما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر »

وقد اطلق ابن بطوطه على المظلة اسم القبة والطير وذلك في كلامه عن مصر خاصة ولكنه سماها چترآ في الكلام عن غيرها فقال عن « منسي سليمان » سلطان « مالي » الواقعة على النيجر سنة ١٣٥٣ م : و « يرفع له (فوق مجلس السلطان بالمشور) الشطر وهو يشبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي » . ويؤيد هذا الخبر مؤلف آخرو هو العُمري الذي ترجم كتابه اخيراً بمعرفة مسبو جود فروا دوموميين احد مشاهير المشتغلين بدراسة ذلك العهد من التاريخ الاسلامي فقال في بعض تعليقاته انه يظن ان هذه العادة نشأت في مصر . وفي الواقع نجد في قول العُمري وفي كلام المقرئزي ان موسى بن ابي بكر الذي كان متولياً الحكم قبل منسي بن سليمان سافر الى مصر والحجاز في سنة ١٣٢٣ م اثناء حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون . وقد تجددت الآن الفكرة القائلة بان اتخاذ الطير او الباز كشعار يرجع في الاصل الى المغل بدلالة ما يرى في الصور الفارسية . وفي المكتبة الاهلية صورة على جانب عظيم من الاهمية ضمن مانشره مسيو بلوشيه بعنوان « الصور والكتب الخطية الشرقية الموجودة في المكتبة الاهلية » ، وقد نشرتها الجمعية الفرنسية لنقل الكتب الخطية والصور (سنة ١٩١٤ - ٢٠ ، لوحة ١٩) وهي تحتوي على صورة محفة للسلطان محمود غازان ملك المغل بفارس (١٣٠٤ م) . وهي اذا وقع النظر عليها بدت قريبة الشبه بالمظلة وقد علاها طير من الذهب او المعدن المموه بالذهب . ويظهر انه باز او صقر وفي الصورة مظلتيان لا طير عليهما مطويتان ومربوطتان من اعلاهما اشارة الى وقت الصباح وفيها ايضاً ذيل فرس . وكان المغل والترك يتخذانه علماً وفي صورة اخرى (شكل رقم ٣) ذبول من هذا القبيل ولكنها بيضاء لا سوداء . وقد نقلت في كتاب

(١) وقد ذكر المقرئزي الجتر مراراً في كلامه عن السلطان محمد بن طغلق شاه (ج ٢ ص ١٧٤) وقال في كلامه عنه ايضاً : واذا خرج في قصره من موضع الى آخر يمر راكباً وعلى رأسه الجتر والسلاح دارية وراءه بايديهم السلاح وحوله نحو اثني عشر الف مملوك مشاة لا يركب منهم الا حامل الجتر (ج ٢ ص ١٧٥)

« الصور » لمسيو بلوشيه المتقدم ذكره . ويشاهد في هذه الصورة تيمور تكين (الذي صار فيما بعد جنكيز خان) جالساً على عرش صيني وفوقه الطير الذهبي جاثماً على ظهر العرش لاعلى مظلة كشعار الملك . وهذه الصورة والتي قبلها منقولتان من المكتبة الاهلية عن نسخة من تاريخ المغل رشيد الدين كتبت في تبريز في اوائل القرن الرابع عشر . ولم تنفرد هذه الصورة بوجود طير من ذهب جاثم فيها على ظهر عرش الملك بل هناك صورة ثانية في الصفحة ٩١ من النسخة الخطية تمثل ايضاً جنكيز خان (شكل رقم ٤) وصورة ثالثة تمثل ارغون خان (سنة ١٢٨٤ — ٩١) — وكل من هؤلاء جالس على العرش بتلك الهيئة . والصورة الاخيرة (شكل رقم ٥) على غاية من الحسن وهي من المستندات القيمة التي تمثل الملابس وغيرها وقد ظهر الطير فيها بشكل واضح . واذا اعتبرنا الباز من شعار الملك عند المغل فيكون وضعه على المظلة من عمل المماليك التركمان الذين يرجع الى عهدهم دخول كثير من التقاليد المغلية في مصر وذلك بالمصاهرة بين ملوك البلدين والتجاء كثير من المهاجرين الى مصر قبل الاغارة على بلادهم . وقد عرفني مسيو جان ديني من كبار العلماء المشتغلين بتاريخ قدماء الترك ان طائفة كبيرة من مؤرخي الترك في العهد الحاضر ممن وقفوا على مصادر كثيرة مجهولة يذهبون الى ان الباز كان من شعار خاقان قبائل أوغور الكبرى المتحالفة وهم اجداد السلجوقيين والعثمانيين . وقد كان هذا التحالف يجمع اربع طوائف من ست قبائل على رأس كل طائفة منهم خان شعاره طائر ابي باز (طغول طغان طغرى وغير ذلك) . ولهذا الطائر على ما يظهر اساطير عديدة ومع ان مسيو جود فروا دوموميين لم يسلم بتلك الاقوال فقد نقل عن مسيو مينورسكي انه يجد في هذا الطائر « توتم » قدماء السلجوقيين فهل يكون هذا الطائر من تقاليد عصر الحثثيين القديم ؟

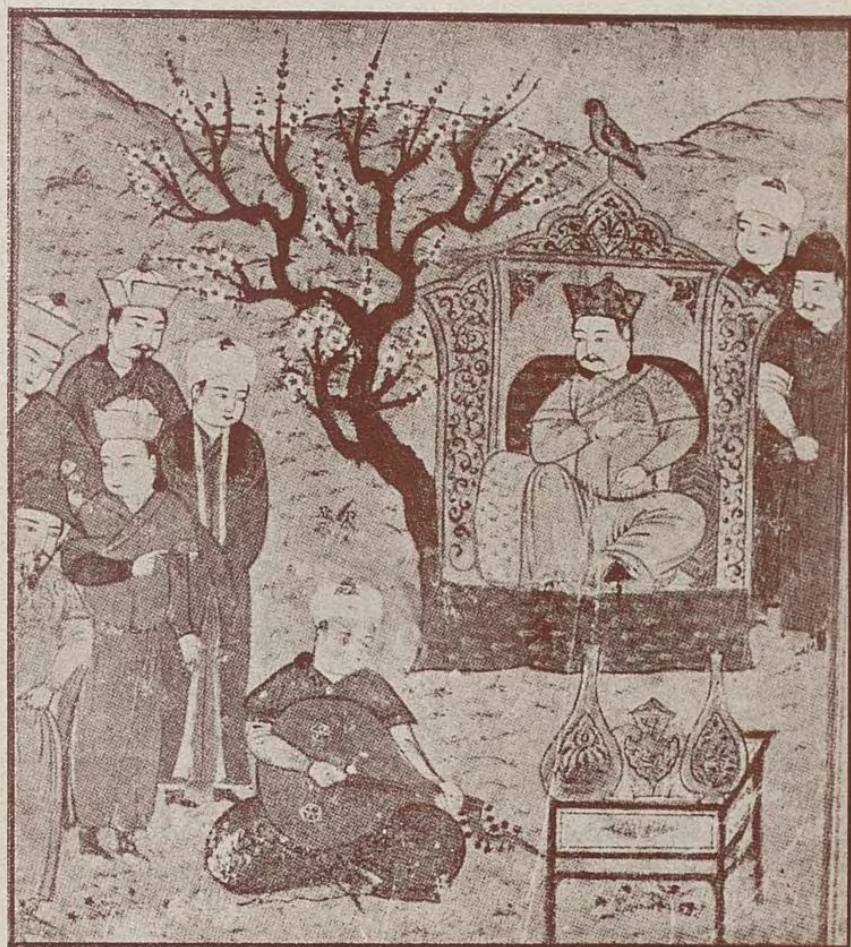
وكانت القبة والطير في مصر تحفظان في الزردخانة الملوكية ويستحضران منها كلما قضت بذلك شؤون المملكة فلما حاول المستعين بالله الخليفة العباسي ان ينادى به كسلطان على دمشق في سنة ١٤١٢ م لم يذكر ابن اياس القبة والطير في وصف الموكب الذي عمل له ولكن لما وصل الى مقر الحكم بالقاهرة الاتابك شيخو الذي تولى السلطنة بعد بضعة شهور عوضاً عنه باسم الملك المؤيد حملت المظلة الملوكية فوق رأسه وربما كانت قد استحضرت خصيصاً لهذه الغاية واذا انتهينا الى آخر سلطان من المماليك بمصر وهو السبيء الحظ طومان باي سنة ١٥١٦ م نجد ابن اياس يقول انهم لم يجدوا له في الزردخانات قبة ولا طيراً بل ولا سرجاً من ذهب لفرسه والظاهر ان القبة والطير لم يكونا موجودين عند مبايعة قايتباي بالسلطنة لان ابن اياس لما روى خبر الباسه شعار الملك غصباً وهو يتمنع قال ان هذا السلطان الذي كان ممتنعاً اذن



(ش ٣) تیمورتکین (الذي دعي فيما بعد جنکيز خان) على عرش صيني

امام صفحه ٥٠

مقتطف يونيو ١٩٣٢



(ش ۵) ارغون خان علی عرشه

للأمير جاني بك قلقسیر امیر سلاح بأن یفرد السنجق السلطانی علی رأسه لعدم حضور القبّة والطیر من الزردخانه

وفي اثناء تعریب هذه النبذة طلبت منی حضرة السیدة دیقونشیر ان الحقها بالكلمة الآتیة :
قالت : بعد مضي عدة شهور من كتابة هذا البحث اتفق لی كما یقع كثيراً ان عثرت
علی مثال آخر ذی شأن فی فقرة اوردها ابن ایاس الذی تصفحت کتابه مراراً جاء فیها : ان
القبّة والطیر حملاً علی رأس امرأة وهي خوند زینب زوجة السلطان اینال فی طلوعها الی قلعة
القاهرة بعد عودتها من الحج فی سنة ٨٦١

وفي الوقت الذی عثرت فیہ علی هذا الخبر وجدت صورة أخرى للقبّة السلطانیة وفوقها
الطیر فی کتاب تاریخ المغل لرشید الدین الذی نشره جناب مسیو بلوشیه
وقد ظهر الآن الجزء الرابع من تاریخ ابن ایاس الذی عني بطبعه مسیو پول کاهل ومحمد
مصطفی بالاستانة ، مشتملاً علی حوادث المدة من سنة ٩٠٦ الی سنة ٩٢١ ای خلال حکم
الغوري والفتح العثماني بقلم هذا المؤرخ الذی کان معاصراً لهذه الحوادث وشاهد اکثرها
ودون عنها معلوماته

وقد تفضل جناب الدكتور مکس میرهوف وكلّ یعرف میلہ لمساعدة المشتغلین بمثل هذه
المباحث فاستخرج من هذا الجزء تکملة لهذا البحث ویسرني جداً ان اقدمها للقراء وهي :
« جمادی الاولى سنة ٩١٧ »

« وفي يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الی نحو قبّة الامیر یشبک الی
بالمطریة وكان السلطان قصد ان تحمل علی رأسه القبّة والطیر فنهوه الامراء عن
« ذلك وقالوا له ما هي عادة ان السلطان اذا خرج الی المطریة تحمل علی رأسه القبّة والطیر
« فرجع عن ذلك »

شوال سنة ٩٢٠

« ثم طلع الی الدهیشة^(١) وعرض الصناجق السلطانیة والقبّة والطیر وقد غیر الطیر الذهب
« الذی کان فوق القبّة وجعل مکانه هلال ذهب »

وفي ذی الحجة سنة ٩٢٠ وقع الهلال وانکسر : وقد ذکر المؤلف بعد ذلك ان الطیر کان
قد حصل له مثل ذلك فی عهد السلطان قایتباي

ر. ل. دیقونشیر

(١) من القاعات السلطانیة الی کان بالقلعة عمرها السلطان الملك الصالح عماد الدین اسماعیل فی سنة ٧٤٥ هجرية



الميكروكسمس

اي العالم الصغير

العناصر والمواد التي يتركب منها جسد الانسان



قسم العلماء منذ قديم الالام كل الاشياء الموجودة فينا والخارجة عنا قسمين : دعوا القسم الاول « العالم الكبير » وهو يشمل كل الاجرام الفلكية السائرة في القبة الزرقاء وكرتنا هذه الارضية بما عليها من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق . ودعوا القسم الثاني « العالم الصغير » Microcosmos وهو كل فرد منا نحن بني البشر ، بما فينا من القوى الميكانيكية والكيمائية والحاسة والمدركة والمريدة . وجعلوا مدار بحثهم معرفة كنه هذا العالم الصغير واستقصاء العلل المسببة لما نشاهده فيه من الظواهر الطبيعية والافعال والانفعالات الحسية والعقلية والادبية ، وتتبع النواميس الضابطة لهذه الظواهر والافعال والانفعالات ، وتقدير الحقائق التي يمكننا الوصول اليها ، بالاستدلال على ما لا يقع تحت الحواس بما يقع تحتها .

وقد ذهب العلماء في تعريف الانسان الى مذهبين . فقال الماديون ان كل ما نراه في هذا الكون من الاجسام الجامدة والنامية والحساسة متكوّن من المادة ومتحوّل عنها . وأنه لا يوجد فينا ، نحن البشر غير المادة التي نلمسها بايدينا وننظرها باعيننا . وقال الروحيون : ان في الانسان روحاً او نفساً ممتازة عن الجسد . وان مبدأ الحياة في العناصر الهيولية التي تكوّن جسد الانسان هي النفس صاحبة الادراك والارادة . فالجسد يتحول تحولاً مستمراً بعوامل التحليل والتركيب فيتجدد بين حين وآخر . اما النفس فهي الثابتة في الجسد ، تأبى التحليل والتركيب . وكلمة « انا » التي يطلقها الانسان على شخصه اما تعني النفس التي تحيي الجسد . وهي هي ، من حيث الجوهر ، في كل ادوار الحياة ، لا الجسد الذي يتجدد في كل دور من ادوار الحياة . وقد قال الشاعر :

اقبل على النفس فاستكمل فضائلها فانت بالنفس لا بالجسم انسان^(١)

ولما كان البحث عن النفس بحثاً نظرياً مداره الاستدلال بقوة الحواس على ما لا يقع تحت الحواس ، كما سبق القول ، وكان البحث عن الجسد بحثاً عملياً ، يقوم بتحليل العناصر الهيولية التي يتكوّن هو منها تحليلاً كيمياوياً لا يقبل المماحكة والمغالطة . رأى عالم انكليزي

(١) من النوادر التي ينقلها التاريخ عن افلاطون الفيلسوف انه سئل يوماً عن تعريف الانسان فقال انه « حيوان ذو رجلين » (Animal Bipses) ولما لم يرق هذا التعريف واحداً من اتباعه جاءه يوماً في المدرسة بديك قائل به الى الارض في حلبة الطلبة وقال « هوذا انسان افلاطون » (Ecce Homo Platonis)

ان يحلل جسد الانسان تحليلًا كيميائيًا دقيقًا ، ويصف هذا التحليل في مقالة ممتعة . ذكر في خاتمها النتيجة التي توصل اليها فيما يختص بوجود النفس في الجسد فعجبت كيف اني درست العلوم الفلسفية في اعظم جامعة من الجامعات الدينية الاوربية ، ووضعت مقالات عديدة في البحث عن المادة والروح . نقلتها عني مجلة « الاجيال » المصورة المصرية سنة ١٨٩٧ وجريدة « الاحوال » المصرية سنة ١٩٢٠ . فلم انظر الى هذا البحث من الوجهة التي نظر اليها العالم الانكليزي ولا يخفى ما لهذا البحث من الشأن العظيم . فكل منا يميل بدافع الفطرة الى معرفة ما يحيط به من الاشياء . حتى الطفل الصغير يحاول كسر اللعب المتحركة التي بين يديه ، ليكشف ما في باطنها ، ويطلع على سر حركتها . وقد جاء في المثل ان من جهل شيئاً عاداه . فاذا ياترى تفيدنا معرفة الاشياء المحيطة بنا . ونحن نجعل احوال الجسد الذي نعيش فيه . ولا نعلم هل هو كل شيء فينا . أو هل فينا شيء يمتاز عنه ولا يفنى بفنائِهِ . كانت هذه الخواطر تشغل بالي . وانا اخلص مقالة العالم الانكليزي رغبة في افادة الذين تهتمهم معرفة ما هو اقرب اليهم والصق بهم . وهو الجسد الذي نحيا فيه ولا نموت بموته وهذا ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي :

لم يخطئ العالم الفسيولوجي الذي قال ان الانسان بيضة كبيرة دبّت فيها نسمة الحياة . ذلك لان ١٢٠٠ بيضة تكفي بما فيها من العناصر المتنوعة . لتكوين رجل يزن ١٥٠ رطلاً يتركب جسد الانسان من اربعة عشر عنصراً بسيطاً . خمسة منها غازات وهي : الاوكسجين والايديروجين والازوت والكلور^(١) والفلور^(٢) . والمقدار الموجود منها في انسان يزن ١٥٠ رطلاً تكفي لملء حوض يسع ١٦٠ متراً مكعباً من الغاز . وتسعة منها من الجوامد وهي : الكربون والكالسيوم والجير والفسفور والحديد والكبريت والصوديوم والبوتاسيوم والسيليسيوم والمغنيزيوم . وهذه الجوامد موجودة في كل حفنة من تراب الارض التي نطأها . ويوجد ايضاً في جسد اكثر الناس عناصر اخرى تدخل الجسم لعارض من العوارض الطارئة عليه مثل النحاس والرصاص والالومينيوم والمغنيزيا والزيق والزرنيخ

واهم العناصر المكوّنة لجسد رجل يزن ١٥٠ رطلاً الاوكسجين المضغوط . ويبلغ ثقله نحو ١٠٦ ارباط . وهذه الكمية من الاوكسجين اذا زال ضغطها واخذت حجمها الطبيعي ساوت قدماً مربعاً من الواح الخشب طوله ٣٩٧ متراً . اي ما يزيد مرات كثيرة على حجم الانسان اما مقدار الايديروجين وهو اخف الغازات فيبلغ حجمه في رجل يزن ١٥٠ رطلاً ١١٠ امطار مكعبة (اي ما يساوي منزلاً ارتفاعه ٣١ متر ومسطحه ٣٠ متراً) وثقله لا يقل عن ١٣١ رطل . وهذا المقدار من الايديروجين كافٍ لنفخ منطاد تقريغه ١١٠ امطار مكعبة فيطير في الجو بالحبال المربوطة به . ويدخل الازوت في جسد هذا الانسان بنسبة ١٥ جراماً للرطل

(١) الكلور (Chlorine) عنصر غازي ذو لون اصفر ضارب الى الخضرة ورائحة شديدة خافتة

(٢) الفلور (Fluorine) عنصر غازي لالون له وهو من عوامل رد الفعل الكيميائي

الواحد . اي نحو $\frac{1}{4}$ رطل . وحجم هذا المقدار يساوي عشرين مرة حجم الجسد . والحيز الذي يشغله الازوت في الجسم لا يزيد على بضعة سنتيمترات . وبه يقوم عمل الدماغ وقوة العضلات في جسد الانسان مقدار من الكربون يقدر بواحد وعشرين رطلاً ونصف رطل وهو كاف لصنع ٧٨٠ قلماً من اقلام الرصاص . وهذا العنصر يقوم مقام الوقود للجسم يولد فيه الحرارة وقوة الحركة والعناصر التي ذكرناها هي مصدر النشاط الحيواني وقوام الحرارة والحركة اللتين تتحولان في الانسان الى قوة النظر في العينين . والهضم في المعدة . والتنفس في الرئتين . والتمس في الفم والاصابع . ومع ان هذه العناصر يبلغ مجموعها ١٤٥ - ١٤٦ رطلاً من ثقل الانسان الذي يزن ١٥٠ رطلاً . فالعناصر الاخرى السابق ذكرها مما لا غنى عنه لقوام الحياة . فالو لم يكن في الجسد رطلان من الكالسيوم ورطل ونصف من الفسفور لفقد الانسان ذراعيه وساقيه وحجمته واسنانه . وعجز عن صنع الآلات وبناء المنازل . واضطر الى الزحف على الارض وأكل التراب . والامر الغريب هو وجود هذا المقدار القليل من الفسفور في الجسم وهو سم قتال يكفي لهلاك قرية يسكنها ولصنع ٨٠٦٤ علبة من الكبريت تحوي كل علبة ٦٠ غراماً . اما المقادير الموجودة في جسد الانسان من العناصر الاخرى فهي : ١٢٠ جراماً من الكلور و ٩٠ جراماً من الصوديوم و ٧٥ جراماً من الكبريت و ٦٠ جراماً من الفلور و ٣٠ جراماً من البوتاسيوم ونحو جرام من المغنيزيوم ونحو عشر الجرام من السيليسيوم . على ان هذه المقادير تختلف باختلاف الاشخاص وتختلف في الشخص الواحد باختلاف الزمان ثم انه يدخل في الجسد مقدار من الحديد يبلغ ثلاثة جرامات . وهذا المقدار يكفي لصنع اربعة او خمسة مسامير ضرورية لجعل الجسم كالبناء المرصوص ولو أزيلت هذه المسامير لسقط البناء وهلك الانسان وجميع هذه العناصر ما عدا بعض آثار عرضية من الاوكسجين وبعض دقائق من الكربون تصل الى الرئتين بالتنفس . لا تستقر منفردة ، بل يمتزج بعضها ببعض امتزاج السوائل لتكون مركبات متنوعة . ولكل مركب منها عمل معين يقوم به ثم يتحول الى آخر ابسط منه ، ليقوم هو ايضاً بعمل مخصوص لحفظ هذا المجموع الغريب الذي نسميه جسماً او جسداً . وهكذا تتحول هذه العناصر دوايك حتى يدركها التلاشي والفناء عند الموت

واهم هذه المركبات واغزرها في الجسد هو الماء المركب من جزئين من الايدروجين وجزء من الاوكسجين . والمقدار الموجود منه في رجل يزن ١٥٠ رطلاً تبلغ ٩٠ - ٩٦ رطلاً ويملاً برميلاً يسع ٤٥ لتراً . ولولا الماء الموجود في الجسم لوقفت حركته . وعجزت اعضاؤه عن القيام بوظائفها . وهو الذي يحلل الطعام . ويرطب اغشية الفم والانف وباطن الجسم ويبرده بتبخير العرق المندفع من مسام الجسد ويحيط بالقلب والرئتين واعضاء البطن . فيقوم

مقام وسائد تتوسدها ونسكن اليها . ثم ان البروتوبلزما وهي مادة الحياة . موجودة بشكل ملايين من كريات موزعة تقريباً في كل الجسم ومتصل بعضها ببعض . فهذه الكريات لا تستطيع العيش خارج الماء وتقضي حياتها في الماء الجاري

ومن هذه المركبات الملح . وله شأن يذكر في تكوين الجسم . ومع ان المقدار الموجود منه في الجسم لا يزيد على ١٨٠ — ٢٠٠ جرام فهو ضروري لحياة جميع الاعضاء . فراه في الدم والعضلات والعناصر الاخرى السائلة والجامدة . يساعد السائلة منها على نفوذ الاغشية الدقيقة وامتصاص الطعام الذي يتحول من الامعاء والمعدة الى دوران الدم . وعلى اختراق الدم الشرياني للانسجة ثم ان الصودا وهو مزيج من الصوديوم والكربون والاكسجين — شأناً مهماً في الجسم وهو تناول كل ذرة من ذرات الحامض الكربوني اينما وجدت . وتوصيلها الى الشعب وطردها الى الخارج . ولا يخفى ان كل عمل يقدم عليه الانسان يولد قدراً من الحامض الكربوني . فكما خفق القلب او انغمضت العين او تحركت الاصابع تولد هذا الحامض الذي هو سم قتال فلولا طرد هذا الحامض من الجسم طرداً مستمراً بفعل الصودا لوقفت هذه الآلة البشرية وقوفاً هو الموت ويوجد في الانسان ، ما عدا هذه المركبات غير العضوية ، مركبات عضوية منها الحوامض العضوية وهي قليلة . ولولا قتلها لذاب الجسم ذوبان السكر في الماء . ويتولد من مزيج الاملاح والحوامض والعناصر الاخرى مادة زلالية اشبه شيء ببياض البيض . تتكون منها الاجزاء الجامدة من العضلات والقلب والرئتين والدماغ والاعصاب والدم . وهي موجودة ايضاً في جميع اجزاء الجسم السائلة والجامدة . والذي يميزها عن المواد الاخرى وجود الازوت فيها ويكون النشاء والشحم وقوداً يبقى الجسم منه جانباً لوقت الحاجة . ويستعمل الجانب الآخر استعمالاً مستمراً . ويتولد هذا الوقود من الاوكسجين والايروجين والكربون بنسب لا تختلف كثيراً عن نسب السكر . ثم ان مقداراً كبيراً من الشحم الذي زدرده يتحول الى صابون بفعل شيء من القلي ويوجد في الامعاء خصوصاً لتأدية هذا العمل الذي يولد في الوقت نفسه مقداراً من الجلسرين ويجعل المعدة كأنها معمل لصنع الصابون . اما النشاء فيتحول في الامعاء الى سكر ، متى امتزج بالماء . لان السكر انما هو مزيج من الماء والنشاء . وهو في الجسد بمقام النقود في جيب الانسان . لا يستقر فيه مدة طويلة وقما يجتمع منه ما يملأ قدحاً . واذا احتاج الجسم الى ادخال شيء منه حوّل الى مادة لا تذوب في الماء اسمها « اينوزيت »^(١) تستطيع البقاء مدة طويلة في الكبد والطحال والرئتين والعضلات وهي غزيرة في عضلات الكثيرين . ثم اننا نكتشف في الجسد بواسطة التحليل ، مركبات اخرى غير التي ذكرناها وهي : الكحول والسكر Alcool في الدم والصفراء والعضلات والدماغ . والسمغ في الغدد اللعابية . والبييسين (الهضمين)

الذي يسهل الهضم في المعدة . ونوع أو نوعان من الحميرة تشبه رغوة الجعة . ومادة تلون الشعر والعينين تسمى « بيجمنت » Pigment من اللفظة اللاتينية Pigmentum اي ملون ان الطعام الذي يقتات به الانسان لا يتراكم في المعدة بعضه فوق بعض بل يتناولها عامل التحليل فيحول عناصره الى عناصر أبسط منها ليكون من هذه العناصر بعامل التركيب ، مادة الجسد . فأنواع الماء كولات مثلاً التي يعدها الطاهي من اللحوم والطحال والكبد والقلب واللسان والمخ ومن اعضاء اخرى من الحيوان — يسهل على كل منا تمييزها لاختلاف مركباتها الظاهرة — يصنعها الجسم من تلقاء نفسه . فيختار المواد الاولى منها ومن الدم بالنسب الضرورية لكل نسيج من الانسجة ويحولها الى اعضاء الجسم . فيأخذ شيئاً من المركبات التي تحوي الكالسيوم والفسفور والاكسجين والايديروجين والكربون ليكون هيكله الذي هو دعامة كل اعضائه . ويبلغ ثقل هيكل الرجل الذي وزن ١٥٠ رطلاً ٢١ رطلاً في حالته الاعتيادية . ويأخذ ايضاً من الدم مقدار محدود من العناصر ليكون المجموع العضلي الذي يبلغ ثقله ٦٣ — ٦٤ رطلاً في رجل وزن ١٥٠ رطلاً . ويأخذ من الدم الشحم جاهزاً فيبقى منفرداً كمؤونة احتياطية للتغذية . وليس في الجسم من نسيج يماثل الشحم في اختلاف مقداره . فهو يختلف باختلاف احوال الصحة ونوع المعيشة والهواء وجهد العمل وكل ما يطرأ على الانسان من التغيرات الكبيرة . ويبلغ متوسط الثقل الموجود منه في رجل وزن ١٥٠ رطلاً $3\frac{3}{4}$ — $7\frac{1}{4}$ رطل . وهذا المقدار يكفي لصنع دستات عديدة من الشمع . والدم نفسه يتكون في جسد الانسان نصفه من بعض الاعضاء ونصفه من البعض الآخر . ولم يدرك العلماء لهذا اليوم كيفية تركيبه ادراكاً وافياً . على ان كلاً منا يعرف هل الدم فيه كثير او قليل . واذا فقد الجسد لتراً من الدم اسرعت الاوعية الى تعويضه بلتر من الماء تأخذه من الانسجة وتمزجه بالعناصر الضرورية لحفظ نشاط الانسان وحياته . ومقدار الدم يختلف قليلاً في الشخص الواحد مع اختلافه بين الاشخاص . وهو بنسبة $1\frac{1}{4}$ — $1\frac{3}{4}$ من ثقل الانسان اي $10\frac{3}{4}$ — $12\frac{3}{4}$ رطل . ويتكون ثقل بقية جسد الانسان من الكبد والرئتين والقلب والطحال والكلى والكلىتين والدماغ والاعصاب والجلد والشعر والاذنار ويوزن مجموعها ٤٥ — ٥٠ رطلاً هذا هو ملخص ما جاء في مقالة العالم الانكليزي من ذكر العناصر التي تكون جسد الانسان ووصف عوامل التحليل والتركيب التي تفعل دوايك في هذه العناصر لتحويلها الى مركبات او مجموعات لكل منها وظيفة معينة يقوم بها لحفظ حياة هذا الكائن الغريب او العالم الصغير الذي نسميه « انساناً » . والنتيجة التي استخلصها من هذا الوصف هي ان الكياوي لم ير ولن يرى القوة الكامنة في الجسد والممتازة عنه في عمق الانبوب الذي يحلل فيه عناصر المادة ليطلع على سر تكوينها . ذلك لان تلك القوة لا تلمسها يد ولا تنظرها عين . وهي النفس التي خلقها الله سبحانه لتستقر في الجسد وتحيي موات المادة التي تكونه يوسف شلحت

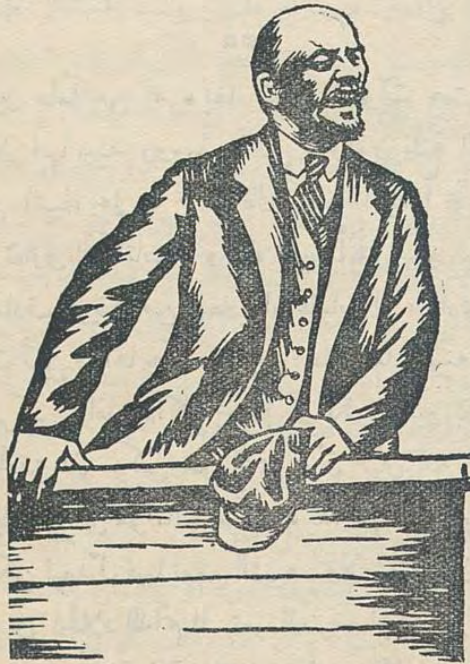
نيقولاى لينين

تلخيص اسماعيل مظهر

وضع غملائيل برادفورد

— ١ —

كان هذا بالضرورة سبباً في ان يصبح من
الذّ اعداء القيصر وحكومته ، كما كانت دعوته
الى التحطيم والهدم في اصول الملكية الفردية
والطغيان ، عاملاً على
اضطهاده اينما حل
وحيثما كان وفي أية
بقعة من بقاع القيصرية
فروق وب اسر وحبس
ونفي الى سيبيريا ثلاث
سنوات ثم ظل يتسكع
في نواحي اوربا كلها.
على انه كان خلال كل
هذه الاطوار دُّبّاً على
القول والعمل ، يجمع
من حوله الرجال ويهيء
الافكار لدعوتِهِ القوية
الجريئة . ولقد اخذ
بضلع وافرمى ثورة



نيقولاى لينين

روسيا سنة ١٩٠٥ . ولا نبالغ اذا قلنا ان
لينين كان له في تلك الثورة الاثر الاوفى والشأن
الاول . وفي النهاية هيأت له الحرب العظمى

اسمهُ الحقيقي فلاديمير اليافتش اوليانوف .
ولد في سميرسك بجنوبي روسيا سنة ١٨٧٠
من اسرة معتدلة الثروة ، بل تعد في الوف من

الاسر ذوات اليسار .
شقت طريقها الى طبقة
الاشراف الوسطى من
فئة الزراع . ولقد حامت
احلامه خلال شبابه ثم
تكوّنت مطامعه في
فتوته ، من حادث مؤلم
هزّ اعماق نفسه ، هو
قتل اخيه الاكبر سنة
١٨٨٧ لانه حاول اغتيال
القيصر . ويقال أن هذا
الحادث كان سبباً فيما
رؤي بعد ذلك من حدة
مزاجه وصلابته وسعيه
الدائم المستمر في سبيل

ان يقتلع من الارض اصول الاستبداد والمستبدين ،
وان يقضي على الطغاة ويدكعروشهم الى الحضيض ،
وان يولي المستضعفين والمنبوذين ملكوت الارض

الفرصة الذهبية . فلما قام في روسيا نظام كرنسكي سنة ١٩١٧ عاد اليها ، وبقليل من المهارة مع كثير من حسن الحظ وسعد الطالع وجد نفسه يوماً على رأس الحكومة الروسية ، يسود سطرانه من ملايين البشر ما لم يسد نابوليون ولا القيصر ولا موسوليني . اما انتقاله بين يوم وليلة من حاله الاولى الى الثانية، والفارق العظيم بينهما ، فلا يعبر عن مثل كلماته التي قالها لتروتسكي « ان الانتقال من حالة التشرد ومطاردة القوانين الى السلطة المطلقة ، امر فيه من الخشونة ما يجعلني اشعر بالاضطراب والدوار » . ثم رسم علامة الصليب امام وجهه !

ماهي العوامل التي دفعت لنين الى ان يسلك في الحياة هذه الطريق ؟ سؤال اختلف الناس في الاجابة عنه . فالمعجبون به يقولون انه لم يحركه شهوة نفسية ولا مطامع شخصية وانه نسي نفسه وانكرها في سبيل تحقيق غرض اسمي ومثل اعلى، وانه لم يطلب المجد الدنيوي ولم ينشد القوة والسلطان كأن التاريخ لم يثبت مرة بعد اخرى ان الامعان في حب القوة والتهاك عليها ، قد يظهر ملابساً صورة الاستنكار لكل مظاهرها الخارجية . وليس في العالم من مطمع اوسع من ان تهدم الدنيا ثم تبنيها

قضى لنين اربعين عاماً من عمره يعد نفسه لسنوات ست ، من سنة ١٩١٨ الى يوم مصرعه . تلك التي كان فيها سيد روسيا . قضى الاربعين سنة الاولى في احلام وآمال — « ولا بد للانسان من اشياء يحلم بها » كما قال . قضائها يقرأ على الدوام ، وقد ينفق خمسة عشرة ساعة وعينه لا تفارق الكتاب ، وعقله لا يفتأ في تفكير ليقيم الفروض ويرسم الخطط لكل ما يحتمل ان يصادف طريقه من صعاب او عقبات او طوارئ . كانت حياة مليئة بالجهد المستمر . حياة تركزت بكل قواها حول غرض واحد وامل بعينه

واقتل بكتابات مركس . اما ماذا كان يحتمل ان يكون لنين بغير مركس ، فذلك ما لا يمكن التكهن به . ولكن المحقق ان مركس هو الذي كوّن لنين من الناحية العقلية . لقد قضى ساعات طويلة مكباً بامعان على مؤلفات مركس ، يدرسها ويستوعبها ليضمها ، ثم يكتبها مرة اخرى بقلمه ، ولكن ليعدل فيها بعض الشيء . ولا شك في ان المبدأ الذي تدور من حوله نظريات مركس ينحصر في الجلال الدائم المستمر العنيف المجرد من كل معنى من معاني الشفقة والرحمة او محاسبة الضمير ، بين العامة واصحاب رؤوس الاموال . جلال يجب ان يشهر وان تكون وسائله كل الوسائل الممكنة مشروعة وغير مشروعة ، حتى يتم النصر الاخير للايدي العاملة فيصيحوا السادة بعد ان كانوا العبيد . على ان في نظريات مركس الاجتماعية من ريح الغيبات الالمانية قدراً يجعل من الممكن تفسيرها على وجوه عديدة ، حتى ان كثيراً من اتباعه يرون في نظرياته وجوهاً لا يراها لنين . ولكن الداعية الروسي كان يحب البساطة ، ونظريات

مرس مجردة عن الغيبيات وافقت مزاجه وتمشت مع مراميه في تكوين فلسفة جديدة للحياة وقواعد مثمرة في نظام الحكومة والادارة . فعلمهم مركس وبشر بمركس وعاش في مركس ، وبأسرع مما يتصور الخيال وهب الفرصة ، فنشأ دور مركس على مسرح الحياة الصحيحة ، لابساً من صورته صورة مسمومة ، كانت ولا شبهة تدهش استاذها اذا هو رآها رأي العين ، ان لم تربكه ، بل وترعبه

مما لا يمكن انكاره ان الهدم والتحطيم والتزويق واقتلاع اصول ما ثبتت اصوله من الصفات الاصلية في طبيعة لينين . ولما امتلك السلطة واصبح صاحب الامر ، انفرد بكل شيء واحتكم وطني وتجبر ، بلا اي احساس بشفقة او رحمة . ولكنه لم يكن في هذا بعيداً عن اشباهه من الناس فانه كان كأمثاله يكره ان يقهر ، فأمر نفسه بنفسه ، ولسان حاله يقول نفس عصام سودت عصاماً لقد آمن كأستاذ بالثورة ، فاتخذها مبدأه وغرضه . ومن قبل لينين بمائة عام تخيل « توماس بين » Th. Paine شيئاً من تلك الثورة الخيالية المثالية ، ولكن لينين حاول ان يجعل من ذلك الخيال حقيقة واقعة . فبعد ان قلب روسيا رأساً على عقب ، حاول ان يقلب نظام اوربا واميركا وآسيا . وليس من المستحيل حتى الآن ان تثمر احلامه وتتحقق آماله

غير اننا لا ننصفه اذا لم نقل بان الرجل فكّر في البناء كما فكّر في الهدم . فانك بعد ان تهدم الدنيا وتزق شمل النظام الرأسمالي العتيق وسياسة « البورجوى » ، عليك ان تفكر فيما يقوم مقامها ويحل محلها من النظم . وفي هذا فكّر لينين . فوضع القواعد المفصلة ، وكتب الوفاً من الصفحات ليشرح فيها ذلك النظام الذي تخيله ليكون اساساً لدكتاتورية « الصعاليك » كما سماهم على ورق النقد البلشفي ، بل واخذ يبين الاعاجيب التي يمكن ان تترتب على نظامه ذاك وما يجلب من خير على الانسان والانسانية . على انه لم يسلم من غيبيات ماركس وخيالياته . قال : — « اننا اذ ندعو الى الاشتراكية ، انما ندعو اليها معتقدين انها لا بد من ان تنقلب الى صورة

من صور الشيوعية ، التي يجب ان تنبذ كل حاجة الى استعمال القوة واخضاع الناس بعضهم لبعض ، وتسلب طائفة من طوائف المجتمع على سواها ، مادام الناس سوف يعتادون ان يروا النظام الاجتماعي قائماً من غير حاجة الى استعمال القوة أو وسائل القمع » — غير انه استدرك فقال ان الهدم له وسائله التي لا بد منها ، وان الهدم يجب ان يسبق البناء على اي حال

على هذا مضى لينين خلال الاربعين عاماً التي انفقها ليتكوّن ويستعد . وفي سنة ١٩١٨ تسلم الرجل عائق القوة ، وما لبث بعد تسلمها حتى بان للعالم ان منظماً عظيماً ظهر على مسرح التاريخ الانساني . ولقد أبدى كثير من الكتاب اقصى العجب في مقدار الفرق الذي ظهر بين لينين الخيالي الحالم في فجر حياته ، وبين لينين العامل المنفذ في كهولته . والمرجح ان لينين العامل المنفذ كان الرجل الحقيقي الكامن في لينين الخيالي الحالم ، وانه كان ينتظر سنوح الفرصة .

فلما فتح الباب عبره لينين الثاني ، تاركاً وراءه لينين الاول . فظهر لينين السياسي المحنك المجاؤ في ثوبه الصحيح . ظهر في ثوب الرجل المجرب الذي يحب أن يحتنك الرجال فيفرزهم ثم يغربلهم ثم ينتقيهم ليخرج منهم مجموعة متلائمة تخدم اغراضه . وان من العجب حقاً ان يبدو لينين وهو في حدود الخمسين من عمره في ذلك الثوب القشيب ، من غير ان يعالج الحكم أو يجرب السلطان من قبل ذلك . ولكن يجب ألا ننسى ان تجاريب يوليوس قيصر وكروموويل في الحياة كانت مثل تجاريب داهية العصر الحديث . غير انك لا تنسى ان في لينين اجتمعت عدة صفات اهلته لان يكون ما كان . كان شديد الثقة بنفسه . فيحاول ان يضع اخطر ما يقرر السياسيون موضع التنفيذ بنفسه ، ولكن لمبدئه لا لها . واذا فرض انه لم يكن ليضع كل ما يقرر عمله في نصاب الحق ، افكان في مقدور غيره ان يضع احسن مما وضع ، أو يحكم التدبير اكثر مما أحكم ؟ احب السلطة وعشق القوة لينفع بها اناساً وليضر بها آخرين . وهذا امر تأباه النفوس الكريمة الهادئة ، ولا تجيزه . غير انه بجانب هذا كان متحققاً من انه ارتكب خطأ ، ولم يتوان مرة في ان يعترف باخطائه . كان يعرف انه عظيم وانه قوي وانه ذو سلطان بحيث استطاع ان يقف امام اتباعه ليقول لهم « ان الذي رأى انه سائر في طريق الغواية يجب ان يعود اعقاباً . وان الذي بدأ عملاً ثم اتضح له انه مخطئ في وسيلة يجب ان يبدأ العمل من جديد مرة اخرى . وعملنا الذي نعمل الآن يجب ان يدرس عملياً . وحتى ندرسه على نور التجربة ، لا يحق لنا ان نؤمل اننا سوف نجتاز التجربة سالمين ، أو نؤمل اننا فزنا بحق في قيادة امتنا » — ولم يكده يفوه بهذه الكلمات حتى اخذ يهدم ما بنى ويحطم ما شيد ، واخذ ينفذ بلا تردد سياسته الاقتصادية الجديدة ، كما سماها ، والتي اعترف فيها بضرورة المزج بين النظام الرأسمالي المبعوض وبين الشيوعية الى حد ما والى زمان ما . وكان اخلاصه ، كما كان نشاطه واستغوائه لاتباعه ، صفات كفلت له ان يسير وراءه الناس حيثما سار

لا يبعد أن يكون اوفق محس لقياس العظمة هي قدرة المرء على ان يكافئ بين نفسه وبين الظروف القائمة من حوله . ولا شك في ان هذه القدرة كانت من اخص صفات لينين . قال مرة : « ان فن الحكم لا يمكن ان يستوعب من الكتب . جرب وارتكب اخطاءً وادرس كيف تحكم » . وكان يقول بان الانسان يجب ان يحتنك بالحياة ليملو الحياة . قال — « ان مثل هذه الاشياء ، لا يمكن ان يحجب عنها جواباً شافياً إلا من الحياة ذاتها » من اجل هذه الاقوال رماه البعض بانه « انتهازى » — Opportunist — غير انه ابعد الناس عن ان يكون هذا . على ان يكون الانتهازى ذلك الرجل الذي يلتقى بسمعه دائماً

الى الارض ليسترق منها الاسرار ويماشي الناس ابتغاء النفع ويرقب دائماً من اين سوف تهب الرياح ليفرد فيها اشرعته ويسير ولكن لا يعلم الى أين ؟ على الضد من هذا تجد لينين . تجد فيه « الحيوية » التي رأيناها في قيصر و نابليون ولكن ، تلك الحيوية التي تتحرك في ذاتها ولذاتها بعيدة عن التأثير بالفرص السانحة كيفما كانت ، وتمضي حادة البصر والبصيرة ، وتغير دائماً مجرى الحوادث في سبيل الوصول الى غرض اسمي يتخذ في الحياة هدفاً يسعى اليه

— ٢ —

مهما يكن من امر تلك الاحتمالات التي يلوكها بعض الكتاب والتي يوازنون فيها بين نجاح لينين واخفاقه ، فلا شك في ان الرجل قد رمى في كل حياته الى غرض واحد انحصر في ان يقيم الحياة الانسانية على طراز مثالي جديد . ولا بد من ان يكون لرجل اراد ان يتم ما اتم لينين في معركة حامية الوطيس ، وسائله وسواعده من رجال ونساء . ولا جرم انه درس الرجال كما درس النساء . فان حياته البوهيمية وتسكعه في انحاء اوربا مكناه من ان يدرس كل الاوساط الاجتماعية ، وعوداه على ان لا يستوحش في اية طبقة من طبقات المجتمع . على ان كل هذا الدرس الواسع الذي استوعبه لينين من الحياة كان لغرض معين — لم يكن مجرد درس اكاديمي لاستيضاح الطرق التي تتمشى فيها القلوب وتحقق في شعابها الافئدة ، بل كان تصنيفاً كاملاً للرجال على قاعدة الاستفادة من مواهبهم بقدر ما يصل اليه مستطاع كل منهم ، وتسخيرهم جميعاً لخدمة الغرض الاسمي

ولقد كانت نتيجة هذا الدرس العميق ان لا تفوز الانسانية من هذا الداهية الا بالاحتقار . قال « برترند رسل » وهو على بعد نظره عميق الفكرة كيّس « لقد ثبت في نفسي انه يحتقر كثيراً من الناس ، وانه ارستوقراطي الرأي » . على انه لم يستثن من الناس اهل روسيا ، شأن البعض ممن يحتقرون العالم ويمجدون امهم زوراً . وقد يكون هنالك بعض المبالغة في قوله المأثور — « في مقابل كل بلشفي صادق تجد تسعة وثلاثين افاكاً وستين مغفلاً » . غير ان هذا الحكم ان عبّر عن شيء فانه اما يعبر عن مرارة التجربة في ظروف عديدة

والطرفة العجيبة في هذا تنحصر في التناقض الواقع بين احتقاره للانسانية عامة ولاهل روسيا خاصة ، وبين ان نظريته في الحكومة قد قامت على قدرة الجماهير في الحكم وذكائهم ومقدار ما يمكن ان تنتفع الانسانية بمجهودهم . فمحور سياسته يقوم على ان الطبقات العاملة والجماهير عامة ، يجب ان يحكموا ، ليثبتوا في مواجهة الخاصة ان في مستطاعهم ان يحكموا وان حكمهم لا ينقصه الذكاء ، ولا تعوزه الامانة والمقدرة . كان يقول « زدودهم بالتجربة وعلموهم وعودوهم فضائل الاعتماد على النفس والنظام وهم يستطيعون ان يحلوا العقدة بأنفسهم . فاذا لم يستطيعوا حلها فلن يستطيع احد »

ومع هذا فان « بعضهم » يجب ان يرشدكم الى حل العقدة. وانه لمن الممتع حقاً ان تنعم النظر في الطريق التي رسمها « بعضهم » هذا ، فاذا بها تلك الآلة السياسية الهائلة التي حاول لينين ان يقيم قواعدها على ارض روسيا القيصرية. بدأت بأن تكون دكتاتورية «الصعاليك» وانت اذ تسمع اقواله او تقرأ ما خطت يراعتة ، لا تشك في ان جمهور الذين يشغلون المصانع ويجوبون الحقول الواسعة هم الذين يحكمون ، وهم الذين يحركون دولاب الادارة من طريق جمعياتهم المنظمة على الشريعة الشيوعية ، وانهم يوجهونها الى خيرهم العام . ثم لا تلبث غير قليل اذا امعنت في النظر حتى ترى ان القوة المحركة انما تنحصر في يد الحزب الشيوعي ، وهو حزب اقلية اذا قيس بعدد النسب في روسيا وجلهم لا يفقه من الامر شيئاً . وقد لا تعجب ان تعلم ان هذا الحزب لا يتجاوز عدد اعضائه نصف مليون من مائة مليون روسي . ثم لا يغرب عن بالك ان الوحي الذي يوحى به الى هذا الحزب يلقى الى اعضائه من سماء عليا لا يتربع على عرشها الا بضعة ارواح موهوبة ، ويقف على هاماتهم نيقولاى لينين مشرفاً بهامة الجبار ذي البطش على ما يترامى تحت قدميه من بسطة القوة والغلبة والاستعلاء ، فيصبح هو « دكتاتورية الصعاليك » ولا احد ، بل ولا شيء ، غيره

غير ان الجماهير انما تتكون من رجال ، ولذا يجب ان يعالجوا باعتبارهم افراداً اولاً . وهذه حقيقة لم يدركها احد بقدر ما ادركها لينين . فمنذ اول ساعة خرج منها الى ميدان الحياة العامة طفق يدرس الرجال والنساء وبواعثهم النفسية وشهواتهم وكفائاتهم . ولكن بفكرة ما يمكن ان يؤدوا من خدمة للغرض الاسمى الذي احتكم في كل اطراف حياته . وان كثيراً من مذكراته وتعليقاته لتظهرنا على مقدار ما بلغ اليه حكمه على الناس وعلى الطبقة البشرية من بعد النظر وصدق الحدس

ولقد فرق بين الطرق التي عالج بها الناس ، بقدر ما اختلفت طباعهم . فهذا يكفي لقياده نظرة رضى ، وذلك يحتاج الى الاقناع وقوة البرهان ، لتقوده بالزام . وغير هذا وذلك صنف عرف لينين انه لن يقاد الا بالامر الصارم . كان الالمانيون في عدااء مع روسيا ، ولكنه اذا استطاع ان يستخدم نفوذهم لا تقاؤ روسيا ، فانه لا يتلصق في الانتفاع بها ، والبوليس القيصري على ما كان في افراده من فساد ، استخدمه لينين واغراه بالمال ليؤيد قضية السوفيت ويعمل على انجاحها . ولكن قدرة لينين من هذه الوجهة لم تتجل بقدر ما تجلت في نجاحه بأن يوفق بين طبيعتين متناقضتين كطبيعة ستالين وتروتسكي ويصرفهما الى العمل معاً كما رام ، زمامهما في يده . ولقد اختلفا وتناقضا بمجرد ان افلت العنان من يد السائس الماهر

اما اعداؤه فقد كانوا موضع عنايته اكثر مما كان اصدقاؤه . فقد حوطه منهم سياج اخذه ذات اليمين وذات الشمال . ولقد شطب لينين من قاموس سياسته كلمة « التسامح » . فانت

إذا لم تكن معه ، كنت ضده ، ولذا فهو ضدك وحرب عليك بكل ما أوتي من قوة فإن تنازع البقاء بين الكافة والعامّة ، مبدأً اخذ بخناقته منذ نشأته الاولى ، ولم يتركه ساعة واحدة . فالدنيا منقسمة في نظره الى معسكرين ، وعلى معسكر الكافة تساقط غضبه واحتقاره كسفاً متراكمة . غير ان نغمته لم تبلغ من الشدة في اعدائه بقدر ما بلغت في معاملته من كانوا له اصدقاء يوماً ما . لقد خانوا القضية واختلفوا مع نيقولاى لينين . وكان هذا كافٍ لان يعتقد لينين ان افتراسهم عاجلاً خير من معالجتهم ومحاولة اصلاحهم مرة اخرى

انه لم يكره فقط . بل احتسّر في الغضب والنقمة . فاعتبر الذين يخالفونه في الرأي اكثر من خونة . لم تخدعه الكلمات ولا النظريات . ولذا تراه يستعمل السلطة بمجرد أن اخذها في يده ، من غير ان يفكر في الرحمة ولا في الغفران ، لاعتقاده ، ان الملاينة والاغراء والاقناع ليست من الوسائل التي يمكن ان تنجح بها الثورة . لقد درس لينين نظريات « سورل » — Sorel — في استخدام العنف ، فكان لهذا نتاجه وأثره في حياته . قال مرة « هنالك ثوريون يعتقدون انه في مستطاعنا ان تنجح الثورة باستعمال الشفقة والحب . نعم ؟ في اية مدرسة تعلم هؤلاء ؟ وعلى اية وجهة يفهمون معنى الدكتاتورية ؟ وماذا يصيب الدكتاتورية اذا كان القائم على رأسها ضعيفاً مهزول الارادة » ؟ — فرمى بالرصاص وشنق وعذب وأثار حكم الارهاب بكل معانيه وفي اشنع صوره . كل هذا باسم المثل الاسمى !

ومما لا يبعد عن الواقع ان تكون هذه الدنيا في حاجة الى انقلاب يدك نظامها رأساً على عقب . والله يعلم ان الاجتماع الانساني في حاجة الى هذا . ولكن هل من الضروري ليكمل هذا ان تقوم وسائله على الكراهية والبغض والتعصب والانتقام ؟ على اية حال لم تكن هذه وسيلة عيسى . ولكن من المحتمل ان فكرة عيسى في الانسانية كانت اسمى من فكرة لينين

— ٣ —

هذا ما كان من امر الوسائل الانسانية التي استخدمها لينين وموقفه ازاءها في العمل على انجاح غرضه الاسمى . ولكن ماذا كان موقف الانسانية ازاء لينين ؟

لم يثبت التاريخ من نظرية أكثر مما اثبت نظرية « ان البغض يولد البغض » عرف الجماهير بانك تبغضهم وتحتقرهم وتكرههم ، وهم لا يلبثون ان يردوا لك الصاع صاعين والكيل كيلين ، في نفس ما كت لهم . يكيلون لك البغض بغضاً والاحتقار احتقاراً ، ولكن في صورة ابلغ ووحشية اشد . وهنا نجد ان ما كتب ضده قد تجسم فيه من البغض والاحتقار اضعاف ما كالت لينين لاعدائه من هذه التجارة

فأحذاره من سلالة تترية كانت سبباً في حملة شعواء اظهر فيها الكتاب انه ممن لا يعنون

بالوسائل في سبيل الوصول الى الغرض ، مادامت الوسائل مؤدية اليه . حتى لقد رماه بعض النقاد بما رعى به هو الشعب الروسي فقالوا — « ان ما حدث في روسيا لم يكن سوى انتقال من عنف وحشى الى امتهان شديد »

وانك لتعجب اذ توازن بين ما يقول اصدقاؤه ومحبهه ، وبين ما يقول اعداؤه . يقول الاصدقاء بأنه رجل لين العريكة هادىء الطبع وأنه نظر الى الغرض الذي رعى اليه من وجهة انسانية صرفة ، وأنه لما كان مقيماً في سيبيريا اختلط بالشعب ودرس احواله وتعرف متاعبه واسباب شقائه وحاجاته وضروراته ، وأنه لما اصبح الحاكم بأمره لم يتوان لحظة واحدة في ان يضع هذه الاشياء موضع النظر والاعتبار . ويقول اعداؤه أنه لم ينظر في الحياة الا باعتبارها كمية حسابية او معادلة جبرية ، وان الشهوات الانسانية وما تقاسيه الجماهير من متاعب الحياة لا قيمة لها عنده في قياس الانسانية وانك لترى ان لينين لم يزن الحياة الفردية بأي ميزان ولم يدرك لها من قيمة

على أنه مهما اختلف الاصدقاء والاعداء في كل ما تعلق بحياة هذا الرجل ، فقد اتفقوا على امر واحد ، هو ان لينين كان ذا قدرة فائقة على التأثير في الاشخاص . وسواء كان هذا التأثير للخير ام للشر ، فذلك امر يمكن ان يختلف فيه . ولقد بلغ من سحره ان كثيراً من الذين كانوا يختلفون معه في الرأي والوسيلة . كثيراً ما كانوا يخدعون عن عقيدتهم بسحره فينفذون ما يلقي به لينين في روعهم ، من غير ان يعرفوا ماذا يعملون . قال كاتب « ان من لم يحتك بلينين ولم يقرأ ما كتب ، لا يستطيع بحال من الاحوال ان يدرك اي اثر لهذا الرجل واية قوة تفرسها ارادته الحديدية على الناس ، والى اي حد بلغت سلطته العقلية على الذين يدرسونه . لقد اخذ لينين ، على عاتقه ان يقلب روسيا الاوربية حتى يصبح سافلها عاليها ، وماشاه الناس والرجال المعدودون وساعدوه في عمله بكل ما اوتوا من قوة الذكاء والكفاءة ، كما يساعد اطفال صغار ابائهم في عمل ما »

هذه صورة مقتضبة للرجل الذي اختفى وراء الحرب العالمية ليحني اول ثمراتها . ولئن لم يكن لتلك الحرب الضروس من اثر الالتهية لينين لان يبرز الى الصفوف الاولى من جيش الانسانية اللجب ، لكفى بها ان تكون ذات اثر بالغ في تحويل مجرى الحياة الانسانية الى وجهة جديدة . اما الحكم على مقدار ما سوف ينتج عن هذا الاتجاه من خير أو ضرر ، فذلك امر مرهون على حكم الاقدار

كيف خلق الله المرأة

(١) لتوفيق مفرج

جاء في الاساطير القديمة ، حديث بديع ، جميل ، عن كيف خلق الله المرأة وهذا الحديث يفوق ببلاغته ، ومعانيه ، قصة الخليقة بحسب نصوص التوراة في البدء خلق الله العالم والسماوات والارض ، وما فيها ، وما عليها ، ثم خلق الرجل ولما جاء ليصنع المرأة وجد انه قد استنفد في صنع العالم والرجل جميع المواد والعناصر التي كانت لديه

فحزن الخالق واخذهُ سبات عميق

ولما استفاق عمد الى هذا العالم واستخلص منه المرأة كما يأتي

اخذ من القمر استدارته ، ومن البحر عمقه ، ومن الامواج مدّها وجزرها ، ومن النجوم لمعانها ، ومن شعاع الشمس حرارته ، ومن الندى قطراته ، ومن الريح تقلبها وعدم ثباتها ، ومن النبات ارتجافه وارتعاشه ، ومن الورد لونه وعطره ، ومن الازهار نخلها ، ومن الاوراق خفها ، ومن الاغصان تمايلها ، ومن حفيف الاشجار حنينها وانينها ، ومن النسيم لطفه ورقته ، ومن الراح نشوته ، ومن العسل طعمه ، ومن الذهب توهجه ، ومن الماس قساوته ، ومن الحية حكمتها ، ومن الحرباء تلوتها ، ومن الغزال شروده ، ومن المهي عيونها ، ومن الارنب تقاره وحياءه ، ومن الطاووس خيلاءه وزهوه ، ومن الاسد شراسته وقوته ، ومن الزمن خيائته وغدره ، ومن الثعلب مكره وروغانه ، ومن العقرب لدغته ، ومن اليمامة نغمتها ، ومن الببغاء هذيانها وكثرة كلامها

ثم جمع جميع هذه المواد وسكبها في بوتقة وصنع منها المرأة

واخذ الله المرأة واعطاها للرجل

وبعد اسبوع جاء الرجل الى الخالق قائلاً

يا رب — ان المرأة التي اعطيتني قد سممت حياتي ووجودي

انها تتكلم بلا انقطاع

انها تبكي بلا سبب

(١) راجع باب مكتبة المقتطف

انها مستضعفة نحيفة ومطالبها لا حد لها
 انها تشكو من اقل شيء
 وتئن من كل شيء
 خذها وأرحني منها يا رب
 * * *
 وأخذ الله المرأة

* * *
 وبعد اسبوع عاد الرجل الى الخالق قائلاً
 يا رب — ان حياتي من دون المرأة اشبه بالوحدة والانفراد
 كل العالم الذي اعطيني اشبه بمنفى لي
 انا تاعس من دون المرأة
 اني اتذكر كيف كانت تغني لي وترقص امامي
 كيف كانت تنظر الي بالنعطاف من طرف مقلتها
 كيف كانت تبسم فتجدد نشاطي . وتضحك فتبدد همومي
 كيف كانت تلاعبني
 كيف كانت ترتمي بين ذراعي
 كيف كانت تحب الي الحياة
 كيف كانت تخفف آلامي ، وتمنح لذة لاهلامي
 ارجعها الي يا رب

* * *

وأعاد الله المرأة الى الرجل

* * *
 وبعد ثلاثة ايام رجع الرجل الى الخالق باكياً شاكياً
 يا رب — انني لا افهم نفسي — لكنني متأكد ان المرأة تزعجني اكثر
 مما تريخني وتسريني

فغضب الخالق وقال — خذ المرأة ايها الرجل واذهب ولا تعد الي

وصاح الرجل — انني لا استطيع ان اعيش معها

فأجاب الرب — ولا تستطيع ان تعيش من دونها

* * *

وأخذ الرجل المرأة وهو يندب سوء حظه ويقول : — يا لشقائي انا لا استطيع

ان اعيش مع المرأة . ولا استطيع ان اعيش من دونها !

بحث في «الدبلوماسية»

العلاقات الدولية عامة — المعاهدات والاتفاقات — التمثيل السياسي والقنصلي

(١) العلاقات الدولية عامة

عرف السر إرنست ساتو ، وهو من كبار الثقة في العلاقات الدولية والدبلوماسية ، ما يسمى بالدبلوماسية Diplomacy^(١) بقوله : إنها «استعمال الذكاء والكياسة في ادارة العلاقات الرسمية بين الدول المستقلة متعدداً ذلك احياناً الى علاقاتها بالدول المستعمرة» ، وعلى ذلك فان بحثنا هذا ينطوي على دراسة هذه العلاقات متمثلة بالمعاهدات والاتفاقات والتمثيل السياسي والقنصلي

من المعلوم ان العلاقات بين المجتمعات البشرية التي كانت نواة الدول الحديثة قديمة جداً ، فان القبائل البسيطة الساذجة كانت — ولا تزال — تحدث بينها علاقات سلمية ومفاوضات بسيطة لحل الامور المشتركة بينها . . . وكثيراً ما كانت القبائل هذه تندب لذلك الاشخاص اللاتقين من ذوي المقدرة والدهاء لقضاء هذه المهمات . ولقد كانت للعرب في جاهليتها بعض العلاقات من هذا القبيل فكثيراً ما كان يندب من صناديد العرب للمفاوضة بين قبيلتين لحل النزاع وحقن الدماء . والتاريخ العربي يذكر لنا ان «عمر بن الخطاب العدوي» الخليفة الثاني كان يدعى بـ «سفير قریش» في الجاهلية ، لان هذه القبيلة العربية كانت ترسله الى القبائل الاخرى للمفاوضة وحل المشكلات . . . والتاريخ من جهة اخرى يؤكد لنا انه كان لقدماء المصريين واليونان سفراء يرسلون الى الامم الاخرى في مهمات دبلوماسية

الا ان هذه العلاقات ازدادت ونمت نمواً سريعاً على اثر تقدم البشر وتطور نظام عمرانهم واجتماعهم فنشأ ما نسميه اليوم بـ «القانون الدولي» و «الدبلوماسية الحديثة» إن الدبلوماسية الحديثة ترجع الى التاريخ الذي نشأت فيه بعثات دائمة في القرن الخامس عشر الميلادي في ايطاليا للقيام بادارة العلاقات الدولية ، اذ ان القرون الوسطى لم تكن تخلو من وفود ، تقتصر مهمتها على زمن محدود وغاية معينة واحدة ، يقوم بها بعض رجال الدين او الاشراف ، وليس كذلك احد من المعتمدين الدبلوماسيين الذين ينتخبون من طبقة

(١) استعملت هذه الكلمة لأول مرة في انكارتا متأخرة حوالي سنة ١٧٩٦ من قبل «برك» السياسي الكاتب الانكليزي المشهور — فالكلمة حديثة العهد ، لكن الاصول الدبلوماسية قديمة . . .

دبلوماسية محترفة تقوم بتوثيق الروابط والعلاقات بين الدول بصورة فنية منتظمة . اما في العصر الحاضر فان العلاقات نمت نمواً سريعاً جداً فالسفراء والقناصل منتشرون في انحاء الكرة الارضية والمعاهدات تعقد بصورة سريعة والمؤتمرات الدولية تقرر مواعيد خطيرة . زد على كل ذلك « عصابة الامم » التي اصبحت لها مقام ممتاز في العلاقات الدولية ، فهي نواة الدولة العالمية المتحدة التي يحلم بها بعض الكتاب^(١) . نعم ، انا لا انكر ما يدعيه بعض المفكرين من ان هذه العصابة انما هي في الوقت الحاضر « عصابة حكومات » وليست « عصابة امم » الا انني اعتقد ، رغم ذلك ، ان هذه المؤسسة خطوة خطيرة جداً في سبيل توثيق العلاقات بين امم الارض قاطبة . وهل يعجب القارئ الكريم اذا قلت له ان كثيراً من الروس النازحين عن بلادهم يحملون اليوم جوازات سفر عالمية اصدرتها لهم « عصابة الامم » هذه ، وهي فوق ذلك مؤتمر دولي دائم لمحاولة حل جميع المشكلات والقضايا التي تحدث بين الدول المنتمية اليها والمنظمة في عضويتها

إما العوامل ذات الأثر في توثيق عرى العلاقات بين الدول فكثيرة بعضها رسمي وبعضها غير رسمي . واليك اهم هذه العوامل مضافاً اليها « عصابة الامم » المارة الذكر :

(١) محكمة العدل الدولية (٢) مؤسسة العمال الدولية (٣) اتحاد الطلبة الدولي في جنيف (٤) الالعب الاولمبية (التي اعيدت عام ١٨٩٦) (٥) مؤسسة الشؤون الخارجية الملكية في لندن التي انشئت سنة ١٩٢٠ وغيرها ... ان هذه العلاقات تتخذ صبغة رسمية دائمة وتشتد وتقوى بالمعاهدات والاتفاقات والتبثيل السياسي والتقنصلي ، فلنبحث في ذلك الآن :

(٢) المعاهدات والاتفاقات

ان المعاهدات والاتفاقات عقود بين دولتين او اكثر . والفرق الوحيد بين العقود الفردية والعقود الدولية هذه ينحصر في ان ليس ثمة قوة عدلية تسيطر على هذه الاخيرة الا عند وجود نص فيها . اما عقود الافراد فالمحاكم في الدول المختلفة هي التي تسيطر على سيرها في مجرى العدل والانصاف . وان كلمة « Treaty » المترجمة الى العربية بـ « معاهدة » كانت تستعمل قديماً للدلالة على معنى « المفاوضة » ولكنها اخذت تدل اخيراً على معنى « خاتمة المفاوضة » التي هي المعاهدة في الغالب . وفي الاصطلاح الدبلوماسي الحديث تستعمل كلمة « معاهدة » للدلالة على عقد دولي مهم فقط ، اما العقود التي تكون دونها خطراً ودرجة فتدعى الواحدة منها بـ « الاتفاق Convention »

(١) او على الاقل نواة الدولة الاوربية المتحدة التي دعا اليها السياسي الفرنسي المشهور (ارسقيد بران) ووصفها زميله هريو في كتابه The United of States Europe

اما المعاهدات فقديمية ومتاحف الغرب تحوي نصوص معاهدات مكتوبة على الحجارة من عصر التوراة والاغريق والرومان . وللعالم الاثري المشهور « برستد » مجموعة نفيسة لصور نصوص معاهدات قديمة جداً . والتاريخ الاسلامي حافل بالمعاهدات كما ان مؤرخي الاسلام لم يخلوا في بحث قواعد المعاهدات لديهم واصولها . والقلقشندي صاحب كتاب « صبح الاعشى » يفرد لنا ثلاثة ابواب من كتابه لبحث « الهدن ^(١) » و « عقود الصلح » والنسوخ الواردة عليهما ^(٢) وهو فوق ذلك يذكر لنا امثلة عديدة منها ، وما يلزم الكاتب في تحرير اوضاعها وترتيب قوانينها واحكام عقدها ، فهو يبين لنا كيف تكون الهدن بين اهل الاسلام واهل الاديان الاخرى ، وكيف تكون عقود الصلح بين ملوكين مسلمين وان كل متعاقد يأخذ نسخة ويضع التاريخ الهجري عليها كما ان المفاسخة تكون من جانب واحد ومن الجانبين . والذي يتأمل هذه القواعد الموضوعية للهدن وعقود الصلح والنسوخ يجد تشابهاً عظيماً بينها وبين ما يسير عليه واضعو المعاهدات في وقتنا الحاضر . وفي الامثلة التي يذكرها « القلقشندي » يجد المتأمل تفصيلاً دقيقاً لكل شيء يجوز حدوثه بين المتعاقدين ورعايلها مما يخص الشرائع الخاصة والشرائع العامة . وفي غالب هذه المعاهدات تذكر اسماء المتعاقدين والمندوبين ثم يشهد الله على ما كتب ويضاف في بعض الاحيان ان المتعاقدين صالحوا بعضهم بعضاً عنواناً للسلام بينهم وانهم تبادلوا النسخ المسجلة ، كما ان العرف جرى على تعيين المكان الذي تعقد به المعاهدة وتتم فيه المفاوضات . . . وفي الغالب ايضاً تكتب النسخة الاصلية باللغة العربية . والمعاهدة الحجازية - اليمنية الاخيرة هي على طراز المعاهدات الاسلامية هذه تماماً . .

والمعاهدات والاتفاقات انواع عديدة منها :

- (١) المعاهدات السياسية : ومن هذا النوع معاهدات التحالف والسلام والصداقة وحسن الجوار Bon Voisinage (٢) المعاهدات التجارية : كمعاهدات تجارة الرقيق والملاحة وما الى ذلك . . . (٣) المعاهدات الاجتماعية : كمعاهدات اتحاد البريد المعقودة سنة ١٨٧٤ م وغيرها (٤) معاهدات العدل المدنية : كمعاهدة حماية العلامات الفارقة المعقودة في باريس سنة ١٨٨٣ (٥) معاهدات الزواج : وهذه تعقد عند زواج فردين من اسرتين مالكتين وتوضع المعاهدات في قالب يكاد يكون عاماً فالمواد الرئيسية في كل معاهدة تقريباً هي : —
- (١) المقدمة (٢) اسماء والقاب المتعاقدين الساميين (٣) ملخص غاية المعاهدة (٤) اسماء والقاب المفوضين بالعقد نيابة عن المتعاقدين الساميين (٥) فقرة تتضمن ان المفوضين بعد ان تبادلوا اوراق اعتمادها فوجدها صحيحة وموافقة للاصول اتفقا على هذه المعاهدة (٦) المواد بالتفصيل ويبدأ بالاعم منها (٧) مادة تخصص وتعين زمن ومحل تبادل النسخ المصادق عليها

فيما بعد ومحل نشرها ووقته (٨) التاريخ والتواريخ والاختتام

وتوضع نصوص المعاهدات التي تعقد بين دولتين اما بلغة الدولة التي لها المقام الاسمي او بلغة احدها والثانية باللغة الفرنسية واما باللغة الفرنسية للنين . ولقد كانت اللغة اللاتينية لغة رسمية للمعاهدات حتى القرن السادس عشر فحلت محلها اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر . ولكل من الفريقين المتعاقدين ان يحضر نصوص المعاهدة بلغته على ان تكون كلمات النص مستعملة بمعناها الطبيعي الواضح وله ان يضع اسم حكومته في الاول وله ان يعضي اولاً في محل الشرف : وهو الجهة اليسرى من الصفحة . ولقد جرت العادة ان تكتب الصفحة الاولى من كل معاهدة باليد وكذلك الصفحة الاخيرة ، ويجوز كتابة سائر الصفحات باليد ويجوز كذلك كتابتها على الآلة الكاتبة

وهناك معاهدات غير مكتوبة يقول عنها بوتر Potter^(١) « انها ليست الا تناقض في التعبير » فان من شروط المعاهدات ان تكون مكتوبة ومدونة ومسجلة في دائرة رسمية معترف بها كسكرتارية عصبة الامم مثلاً وهي التي تقرّر ان تقوم بعمل « كاتب عدل » Notary Public لتسجيل عقود الدول او معاهداتها كما نصت على ذلك المادة ١٨ من ميثاق عصبة الامم وهي : « ان كل معاهدة او اتفاقية تعقد بعد تصديق معاهدة « فرسايل » من قبل اية دولة من الدول المنتظمة في سلك عصبة الامم يجب ان تسجل في السكرتارية وعلى هذه ان تنشرها في اقرب وقت ... » وعلى ذلك فان سكرتارية عصبة الامم تنشر اكبر واهم مجموعة للمعاهدات في العالم لاطلاع الناس عليها^(٢)

ويلحق عادة بالمعاهدات ما نسميه بالبروتوكول Protocole وهو عادة جزء لا يتجزأ من المعاهدة ، وقد تلحق بالمعاهدات مذكرات يتبادلها المفوضون بالعقد لتوضيح بعض مواد المعاهدة وما الى ذلك

ويجب ان نقرر ان المعاهدة لا تتخذ صبغتها القانونية ولا يمكن تنفيذ بند من بنودها الا بعد تبادل نسخها وبرايمها ولقد علمت ان المعاهدة التي شذت عن تلك القاعدة ، وهي الوحيدة في بابها ، هي معاهدة تعديل الحدود بين مصر وطرابلس حيث انه قد نفذت بنودها قبل ان يبرمها البرلمان المصري . وعلى ذكر ابرام المعاهدات من قبل البرلمان نقول ان من نتائج الحرب العظمى ان تقرر عدم اعتبار المعاهدة نافذة قبل ابرامها من قبل الهيئات التشريعية للدول التي تعقدها

والمعاهدات اصبحت لها شأن واسع النطاق في هذا القرن ، فانها تعقد لتأسيس مؤسسات

(١) This World of Nations page : 129,

(٢) ان هذه النشرات عن المعاهدات تصدر تحت عنوان Treaty Series of the League of Nations

دولية خطيرة كالحاكم الدولية والمؤتمرات الدولية ومواثيق السلام وغير ذلك مما يزيد في توثيق عرى التقريب بين دول العالم فليس ميثاق عصبة الأمم وهو معاهدة خطيرة ، في حد ذاته ، إلا دستوراً عالمياً خطيراً ... وميثاق كيلوغ نوع آخر من المعاهدات التي كان لها شأن خطير في هذا القرن . زد على ذلك ان المعاهدات اخذت تتكاثر بسرعة هائلة تفوق اضعاف سرعتها في السنين الماضية . كما ان تغيراً خطيراً حدث في طبيعة المعاهدات فلم يبق « في كل معاهدة فارس وفرس » كما يقول « تليران » السياسي الفرنسي المشهور ، فان اطلاقه هذا يجوز تطبيقه على المعاهدات التي سبقت معاهدة « فرساي » ، اما على المعاهدات التي تلتها فلا اظن ذلك ، فليس في اتفاقات « لوكارنو » الموقع عليها سنة ١٩٢٥ مثلاً — على ما اعتقد — فارس أو فرسان وفرس أو افراس !

وتفسير منطوق المعاهدات امر صعب وعسير جداً في الغالب ، ولقد فكر المشرعون في القانون الدولي وبعض رجال فلسفة السياسة مثل كنت Kent وويتن Wheaton وجروتوس Grotius وقاتل Vattel وغيرهم في الموضوع ، وافرد « قاتل » فصلاً كاملاً في كتاب له ^(١) لهذا الموضوع وهو يتفق مع « شيشرون Cicero » في « ان الوعد يجب ان يؤخذ على الشيء الواضح منه وليس على الشيء الذي يقصده » ، وهو يعتقد كذلك انه « لا يجوز تفسير ما لا يحتاج الى تفسير » في المعاهدات . ولم يتمخض بحث الذين ذكرتهم الا عن طريقين مهمين فقط لضمان عدم الانحراف في تفسير منطوق المعاهدات وهما : (١) ان المعاهدات يجب ان تكتب بلغة واضحة طبيعية و (٢) ان ينص في المعاهدة على احالة الاختلاف في تفسير منطوق بعض موادها الى سلطة عدلية دولية كمحكمة العدل الدولية في لاهاي مثلاً ، وذكر النص المعمول عليه في المعاهدات اما سلطة عقد المعاهدات لدولة ما فينص عليها عادة في قانونها الاساسي (الدستور) ففي الحكومة الملكية مثلاً لصاحب التاج ان يبرم المعاهدة بقانون يقرره البرلمان بعد مناقشة المعاهدة وبراها منه وقد جرت على ذلك الدولة المصرية والدولة العراقية وغيرها من الدول الملكية الدستورية . ورئيس السلطة التنفيذية في الجمهوريات يصدق على المعاهدات بعد ابرامها من قبل البرلمان ايضاً وتدير شؤون المعاهدات من تحضير وتبادل نسخ وما الى ذلك في الوزارات الخارجية دوائر خاصة تدعى بدوائر البروتوكول ، فالحكومة الفرنسية مثلاً لديها دائرة تدعى بـ « دائرة البروتوكول » Le Bureau du Protocole وهذه الدوائر تدير علاوة على شؤون المعاهدات مكاتبات اوراق الاعتماد وبراءات القناصل مما سوف يأتي ذكره في بحثنا عن الممثلين السياسيين والقناصل ، وكذلك الكتب التي يتبادلها رؤساء الحكومات . وفي انكلترا دائرة تقوم بمثل هذه الاعمال وتدعى Treaty Dep't of the Foreign Office

(٣) التمثيل السياسي والقنصلي

إن الممثلين السياسيين رسلُ الدول يقومون بإدارة الشؤون والمصالح السياسية لدولهم لدى الدول الأخرى . كان الممثلون السياسيون قديماً على درجة واحدة وهي درجة « سفير » Ambassador لكن ذلك تغير في الوقت الحاضر فانقسم هؤلاء الى اربع درجات هي :

- (١) السفراء (٢) الوزراء المفوضون والمندوبون فوق العادة (٣) الوزراء المقيمون (٤) القائمون بأعمال السفارة أو المفوضية Chargés de Affaires

ولقد تم تقسيم الممثلين السياسيين على هذه الصورة في النظام الذي وضع في مؤتمر فيينا (١٠ مارس سنة ١٨١٥ م) . ثم تقرر هذا النظام نهائياً بعد تغييرات طفيفة فيه في مؤتمر اكس لاشابل Aix - la - Chapelle في ٢١ نوفمبر سنة ١٨١٨ م . ولقد كان الممثلون السياسيون قديماً ينتخبون من قبل رؤساء الحكومات على اساس مقدرتهم في المفاوضات فقط بصرف النظر عن منزلتهم ودرجتهم في الهيئة الاجتماعية ، فقد كان من بين السفراء قديماً من كان كاتباً بسيطاً أو جندياً أو تاجراً ويقال ان لويس الحادي عشر ارسل حلاقه الخاص في مهمة دبلوماسية !

ولكن مهمة انتخاب الممثلين في الوقت الحاضر من اصعب المهام وادقها فان الممثل يجب ان يكون لاثقاً لمنصبه كل اللياقة مستجمعاً لكافة الصفات اللازمة للقيام بتمثيل حكومته في الطبع الهادىء والرزانة والصحة الجيدة والطلعة الوسيمة والذكاء الوقاد مع الدهاء والعفة والنزاهة . اما من جهة المعارف فعليه ان يكون واسع الاطلاع على القانون الدولي والاقتصاد السياسي والاحوال السياسية للمملكة التي سوف يمثل دولته فيها . والحكومات تميل غالباً الى ابقاء ممثليها السياسيين في الدول التي يمثلونها فيها لكي يزدادوا خبرة واطلاعاً ولما يقتضي للممثل من المدة الطويلة للاطلاع التام على احوال تلك الدولة ... كما ان كثيراً من الدول الكبرى كبريطانيا مثلاً قد وضعت قانوناً خاصاً لاحالة الممثلين السياسيين على المعاش ، وبموجبه لا يحال الممثل قبل بلوغه الـ ٧٠ من عمره وفي حالات كثيرة يبقى فيها الممثل الى اكثر من ذلك

وبريطانيا العظمى من الجهة الثانية لديها وزارة للخارجية تعتبر من ادق وزارات الدول الخارجية ادارة وانتظاماً . وهي تعتني اعتناء فائقاً بانتخاب رجال السلك الدبلوماسي فالذين يتقدمون الى دخول هذا السلك يشترط عليهم اجتياز امتحان تحريري خاص — بصرف النظر عما يحملونه من الشهادات العالية — وهذا الفحص تضع اسئلته وتنظر في اجوبته لجنة عليا مؤلفة من كبار اساتذة الجامعات الانكليزية ، ومن ثم تفحصهم فصلاً شفهياً لجنة اخرى مؤلفة من كبار الموظفين واعضاء مجلس النواب البريطاني وآخرين ممن لهم علاقة واختصاص بالموضوع

للدول ان ترسل ممثلين سياسيين يمثلونها لدى الدول الاخرى وفقاً للاصول المرعية . الا ان الدولة لها حق رفض قبول ممثل دولة اخرى لاي سبب كان . ولذلك فقد جرت العادة ان تسأل الدولة التي تريد تعيين ممثل ما الدولة الاخرى عن رأيها فيه قبل تعيينه . وعند قبول الممثل ووصوله المحل المعين حاملاً أوراق اعتماده تجري تقاليد واحتفالات تتفق ودرجته لا مجال لذكرها الآن . كما انه على اثر مباشرته مهام منصبه يكسب الحقوق والامتيازات الممنوحة للممثلين السياسيين . ومن هذه الامتيازات عدم امكان القبض عليهم او حبسهم حتى في حالة وقوع حرب بين الدولتين ، ولا اذكر الا حادثة واحدة تشذ عن هذه القاعدة واعني بها موقف الحكومة التركية القديمة ازاء سفراء الدول التي تحاربت معها عند ما حبستهم في « الابراج السبعة » المشهورة . وكذلك تعتبر مسكن الممثل واثاثه وأمواله داخل منطقته ملكاً لدولة الممثل نفسه . وعلى ذلك فلا يمكن القبض على هذه الاموال وحجزها او المطالبة باداء الضرائب عنها

ويلحق عادة بالممثلين السياسيين ملحقون Attachés يقومون ببعض الامور الخاصة كالملحق العسكري والملحق البحري والملحق التجاري وغيرهم وهم يؤلفون مع السكرتارية والممثل نفسه ما يسمى بالهيئة الدبلوماسية Diplomatic Corp ويرأس الهيئات الدبلوماسية للدول في دولة ما « عميد » هو عادة اقدمهم عهداً في تلك الدولة وهو الذي يتكلم باسم الممثلين السياسيين في المناسبات الرسمية

ومن المعلوم ان وزير الخارجية هو حلقة الاتصال بين حكومة وأخرى ومرجع جميع السفراء او القناصل

﴿ القناصل ﴾ موظفون معينون غالباً لحماية المصالح التجارية والاقتصادية لدولتهم في الدول الاخرى وتسهيل سبلها وتوسيع نطاقها

إن كلمة قنصل Consul تعني درجة واحدة من درجات التمثيل القنصلي ولكنها تستعمل احياناً للدلالة على الخدمة القنصلية بصورة عامة . والقناصل على درجات : (١) قنصل عام Consul-General (٢) قنصل Consul (٣) نائب قنصل Vice-Consul (٤) معتمد تجاري Commercial Agent وغير ذلك من الدرجات الفرعية الخاصة

إن اقدم القناصل عهداً هم الذين عيّنهم كل من مدن جنوى ويزا والبندقية وفلورنسة بين سنة ١٠٩٨ — سنة ١١٩٦ بعد الحروب الصليبية في موانئ ساحل الليقانت والقسطنطينية وفلسطين وسوريا ومصر . ومهمة انتخاب القناصل لا تقل صعوبة ودقة عن مهمة انتخاب الممثلين السياسيين ، والشروط التي يجب ان تتوافر في الممثل القنصلي يجب ان لا تقل عن الشروط التي تتوافر في الممثل السياسي . وان اهم اعمال القنصل تقريره الذي يرفعه الى وزارة

خارجية دولته بالحناء في الحالة الاقتصادية للدولة التي يمثل دولته فيها مقترحاً الطرق اللازمة لتوثيق العلاقات الاقتصادية بين الدولتين
والنمسا من الحكومات التي اعتنت اعتناء فائقاً منذ القدم بتدريب القناصل فلقد أسست الامبراطورة «ماريا تريزا» عاهلة امبراطورية النمسا والمجر المنقرضة ، في سنة ١٧٥٤ «اكاديمية» لاعداد الموظفين للسلك الدبلوماسي وسميت بـ «الاكاديمية الشرقية» لشدة اهتمامها باعداد الموظفين في الدرجة الاولى للخدمة في الشرق . وكانت هذه الاكاديمية تعنى اعتناء فائقاً في تدريس اللغات الشرقية والتاريخ الشرقي

ان التطور الاقتصادي والتجاري والصناعي في القرن التاسع عشر اثر تأثيراً خطيراً في هذه المؤسسة فلقد تبدل اسمها في سنة ١٨٩٨ م فأصبح «الاكاديمية القنصلية» وأصبحت الغاية منها بوجه خاص اعداد موظفي السلك القنصلي في امبراطورية النمسا والمجر ولقد اعادت الجمهورية النمساوية الحديثة هذه المؤسسة على ان تقبل فيها (٥٠) طالباً فقط من اي جنسية كانت (ومن كلا الجنسين) وأصبحت تدار من قبل دائرة الشؤون الخارجية في الجمهورية النمساوية رأساً . وهي تقبل تدريس بعض العلوم بعدة لغات حيّة والدروس التي تدرس في الاكاديمية كثيرة اهمها الاقتصاد السياسي والجغرافية التجارية والتاريخ الدبلوماسي والقانون الدولي وعلم المالية والخدمة القنصلية وعلم الاجتماع وفن الدعاية الصحفية والصحافة واللغتان الالمانية والفرنسية وبعض اللغات الاخرى ولا يجوز للقناصل ان يمارسوا اعمالهم قبل حصولهم على ما يسمى بالبراءة Exequatur اللازمة من قبل رئيس الدولة التي يمارسون اعمالهم فيها . وكثيراً ما تعين الحكومات قناصل فخريين لدى الحكومات الاخرى وتمنحهم لذلك رتباً ووسمة
فؤاد جميل
عضو البعثة العلمية العراقية
بيروت (الجامعة الاميركية)

رجعنا الى الكتب الآتية في هذا البحث :-

- (1) Treaties, their Making and Enforcement — Crandall.
- (2) A Guide to Diplomatic Practice — Rt. Hon. Sir E. Satow.
- (3) Diplomacy Old and New — George Young.
- (4) This World of Nations — Potter.
- (5) Diplomacy & the Study of International Relations — Heatley.

تأثير انتشار الوباء في نفسية المجتمع

تعمل الكوارث الاجتماعية في نفسية الجماعات ما تعمله في نفسية الافراد . فهي تستثير اهواء الناس وتستفز هامن مكانها ، وتظهر ما بطن من اخلاقهم وشعورهم بجلاء ووضوح ، فيصبح بعضهم مثلاً يحتذى في الاخلاص أو الوطنية ، ويخضع معظمهم للاهواء السيئة والصفات الرديئة . وهذه الصفات نفسها تبقى في الاوقات العادية خافية في مستقر النفس البشرية تخفيها عوامل التربية والوسط وروح المجاملة والعشرة

ففي وقت انتشار الطاعون على الخصوص ، سجل المؤرخون في كتاباتهم التغيرات التي تطرأ على النفس البشرية ، والتي هي نتيجة طبيعية لاطلاق الافراد عنان اهوائهم امام الخطر الدائم . وهذه التغيرات كانت تعظم أو تقل وفقاً لكثرة انتشار الوباء أو قلته . فعند ما يكون الوباء في اول انتشاره وضحاياه قلائل ، لا يهتم معظم السكان بالحالة . ولا يقلقون لها . بل ينكر حتى الاطباء انفسهم خطورتها ، ويتعاملون عنه ويتحاشون ذكره أو الإشارة اليه . وعند ما يشتد المرض نوعاً ما وينذر بالشر ، يصر بعض المكابرين ، على انه لم يصبح وباءً . لانه لو كان كذلك ، لاهلك كل السكان ولم يبق على احد منهم . وهذا النحو من التفكير تم فعلاً أبان انتشار الطاعون في مرسيليا عام ١٧٢٠م . حيث كانوا يعللون المرض بمختلف العلل الغريبة وينسبونه الى قوم مخصوصين يدعونهم (ناشري الطاعون) Les sèmeurs de peste . ومثال ذلك ما نقله الينا المؤرخ ثوسيديدس Thucydide ان الاعتقاد الذي كان سائداً هو ان (اعداء الشعب) كانوا يسممون الآبار التي يستقي منها الناس

ومما نقله المؤرخ ديون كاسيوس Deon Cassius الذي عاش في عهد الامبراطور (كومود) ان (ناشري الطاعون) كانوا يفرزون في اجسام المارة في الطرق العامة ابراً مسمومة ، تنشا عنها الاصابة بالداء فالوفاة السريعة . وفي القرون الوسطى كان اليهود ومرضى الجذام Lèpreux يهتمون علانية بتسميم الآبار ، وكانوا لذلك يحرقون احياء . ومن ذلك انه لما انتشر الطاعون عام ١٣٢١ لم يستثن من هؤلاء سوى النساء الحوامل و (اطفالهن) ومع ذلك كان ينجهن في السجون وتوشم اجسادهن بالحديد الحمى . وظل التخوف من (ناشري الطاعون) على اشدّه عدة قرون ، وكانت ضحايا هذا التخوف عظيمة من اليهود ومرضى الجذام الذين كان ينسب اليهم ضمناً تركهم في منحنيات الشوارع لفاقات من الورق بها صديد يحمل جرائم الوباء وفي القرن السابع عشر تحول الاضطهاد عن هؤلاء الى الاجانب النازحين الى البلاد بدعوى

نشر المرض عمداً ، فكان يفتك بهم ويمثل بأجسامهم شر تمثيل . ووصف « مزوني » Manzoni في قصته المسماة (Les fiancés) طرفاً من ذلك . ومما ذكره ابان انتشار الطاعون بمدينة ميلان عام ١٦٣٠م ان الخوف من الوباء بلغ من الاهالي حداً جنونياً حتى انهم كانوا يشكّون في ذوي قربانهم لان الاعتقاد كان سائداً ان بعضهم يريد الفتك ببعض الآخر ليستولي على ثروته . فكانوا يهجرون بيوتهم هائمين على وجوههم وأصبح هذا من اقوى الاسباب في انحلال الاسرة في ذلك العهد . ولم يسلم الاطباء انفسهم من شك المرضي فيهم فكانوا اذا دعوا لعيادة مريض يهانون واحياناً يرجعون بالحجارة . وكان من المعتاد ايضاً اذا حل الوباء ببلد أن يطلب القوم من الآلهة ان يجمع الداء كله في شخص فيسعد لذلك في احتفال كبير ثم يفتك به تطهيراً للبلد من الداء على زعمهم اما رجال الدين فكانوا يرون في الطاعون مظهراً لغضب السماء فلكي يخففوا من وقعه كانوا يؤلفون مواكب دينية يسرون فيها عراة الاقدام ، فكان ذلك يزيد في انتشار الداء بشكل ملموس عقب هذه المواكب مباشرة !! ومن هوس بعض الطوائف في ذلك الزمن سيرهم جموعاً في الشوارع العامة وهم يلطمون خدودهم ويضربون اجسادهم بسياط جلدية ، فتسيل منها الدماء غزيرة ، وكان ذلك على الخصوص ابان انتشار الطاعون الاسود في القرن الرابع عشر وتسبب عن كثرة الموتى ، بساطة في اجراءات الدفن . ومما قاله ثوسيديوس Thucydide في هذا ان الناس كانوا لا يعنون بدفن موتاهم . فكانت الجثث تحرق اختصاراً للاجراءات . وكثيراً ما كان الناس يهربون من البيوت تاركين الجثث فيها حتى تنتن وتتصاعد منها روائح كريهة . وندر وجود من يحملون الموتى ، فعهد باجراءات الدفن حينئذ الى طبقة من طعام الناس يدخلون البيوت التي عليها شارة الموت لنهبها وسلبها واغتصاب من وجد فيها من النساء وكان الناس لا يقدمون على السير في الطرقات الا لقضاء حاجة ماسة وكان يغلب سيرهم وسط الطريق ليتحاشوا ملازمة احد ، حاملين معهم عصاة طويلة يسمونها عصى القديس روش Saint Roch لابعاد الكلاب وغيرها من طريقهم . وكان القوم ينشدون في مختلف اللذات ما ينسبهم الموت الذي يهددهم ووصف Thucydide تلك الحالة النفسية قال : —

(وافرط كل فرد في طلب اللذة بدون حساب وهم الوحيد التمتع بها في كل فرصة وبأي ثمن حيث قد اثر في اعصابهم رؤيتهم الاغنياء بينهم يموتون فجأة تاركين الثروات الطائلة . والفقراء المعوزون وقد اصابوا الغنى الفاحش بدون مجهود وعن طريق الميراث كانوا ينظرون الى الثروة والمتاع ومختلف اللذات كشيء لن يتسنى لهم التمتع به طويلاً لان الموت يهددهم بين دقيقة واخرى فسعوا الى اللذات الجسمانية سعياً ليمتتعوا باوفر قسط منها . وقلما فكر واحد منهم في السعي لتحقيق غاية شريفة لانه لم يكن يدري ان كان الاجل سيمتد به الى وقت يتمتع فيه بنتائج مسعاه . واصبح الجمع بين اللذة والمصلحة ديدن الجميع . فلا يأبهون

لغضب الآلهة ولا لصرامة القوانين. ومنذ ان رأوا الموت يحصدهم حصداً انعدمت في قلوبهم صفة الرحمة والمؤاساة والاخلاق الفاضلة على انهم كانوا يشكون في امتداد ايامهم انى ان تقتص السلطات منهم لما اقترفوا من ذنوب واتوا من آثام . وبات كل فرد على بيته من مصيره القريب فكان في شاغل عن كل شيء منصرفاً الى قضاء شهواته حيث كانت ومهما كلفت)

وفي عصر النهضة أملت هذه النفسية نفسها — وهي التي كانت سائدة وقتئذ — على بعض الكتاب قصص بوكاتشو Boccaccio المشهورة في التاريخ وما يماثلها من القصص المبتذلة لما حوته من المناظر الشائنة التي يندى لها جبين الادب حياءً

ومما قاله المؤرخان دورنتي وجفارل Duranty & Gaffarel يصفان تلك الحالة النفسية التي طغت على عقول سكان مرسلية في طاعون سنة ١٧٢٠ ما يأتي : —

(استولى الرعب وحب الاستمتاع السريع على الاهالي من كلا الجنسين مما دفعهم الى اتمام عقد الزواج بكل معداته في مدى اربع وعشرين ساعة على الاكثر . فكانت الارملة التي لم تمضي على وفاة قرينها ايام قلائل ، تعقد زواجاً ثانياً ، ولما تحجف دموعها بعد . وكثيراً ما كان ينزع الموت من احضانها زوجها الثاني ، فلا تحجم عن اختيار شريك آخر لحياتها . وكانت هذه الظاهرة الاباحية اكثر وضوحاً وابلغ اثرأ في الطبقة الدنية من السكان ، ممن آلت اليهم الثروة عفواً بطريق الميراث بعد فقر مدقع . ونسي سكان مرسلية كل شيء في العالم وذهلوا عن كل شيء الا عن الزواج والافراط في اللهو والتماذي في الشراب بشكل منقطع النظير . واستمر الزواج على هذا النحو — بدون تمازج بين الطرفين — حتى انه في مدى خمس سنوات من تاريخ الطاعون ، بلغ عدد المواليد حداً أصبح تعداد السكان بعده معادلاً لما كان عليه قبل انتشار الطاعون . وأصبحت مرسلية ، في فترة قصيرة ، مدينة للجمال والفن والاستمتاع ، وبلغت مبانيها مبلغاً عظيماً من الاتساع وتفنن سكانها في ارتداء الملابس الفاخرة واقتناء الكماليات ، فكانت ترى المحال التجارية غاصة بهم ينفقون فيها عن سعة ، وكنت تشهد المراقص تقام في المنازل والطرق العامة والابتهاج شاملاً عاماً ، كأن الناس قد نسوا ما حل بهم من النكبات وعوامل الفناء . ويمكن القول اجمالاً أن هذه النفسية هي بعينها التي شوهدت عقب انتشار الكوليرا في مرسلية عام ١٨٨٥ م واغرق الناس بعدها في اللهو والمجون

وهذه الظاهرة تغلب عند حلول الكوارث الاجتماعية الخطيرة ، فأن حرب سنة ١٩١٤ أوجدت في نفوس الملايين من الجنود تعطشاً غريباً لجميع وسائل الاستمتاع . واستهتاراً فاحشاً بالشرائع والقوانين حتى بعد وقف القتال . كما حصل بعد حكم الارهاب في فرنسا وقيام حكومة الادارة على انقاض الاشلاء والدماء

ابراهيم مراد ديان

ليسانس في الحقوق من جامعة باريس



كيف اتصل لندن باكر
مدن العالم اتصالاً تلفونياً

المشهر الاول

في مكتب تحرير التيمس بلندن في يوم الجمعة ٧ يناير ١٩٢٧

جلس محرر التيمس في مكتبه بلندن واذا جرس التلفون يقرع في نحو الساعة الاولى والدقيقة الخمسين بعد الظهر . فرغ السماعة فسمع صوتاً يقول : انا ادولف اوكس صاحب جريدة التيمس النيويوركية . وكان المستر اوكس جالساً في مكتبه بنيويورك على نحو ثلاثة آلاف من الاميال وامامه صورة محرر التيمس اللندنية لكي يرى الشخص الذي يخاطبه . وبعد ما تبادل عبارات التحية والمجاملة المألوفة وصف صاحب التيمس النيويوركية ما في الولايات المتحدة الاميركية من ميل في الرأي العام الى اعادة النظر في مسألة ديون الحلفاء لاميركا . ثم وصف استنباطاً جديداً دعي بالصور المتحركة الناطقة فكانت هذه الرسالة وعدد كلماتها الانكليزية ٢٣٠ كلمة احدى الرسائل الصحفية الاولى التي ارسلت بالتلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك . وقد رد عليها محرر التيمس اللندنية بكلمة تناسب المقام وكانت ادارة التيمس اللندنية قد ابرقت الى مكاتبها النيويوركية لكي يعد رسالة تحتوي على نحو ٦٠٠ كلمة يملئها على احدى الكاتبات بالتلفون اللاسلكي لتتشر في الجريدة وفي الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والاربعين قرع جرس التلفون في ادارة التيمس اللندنية فاذا مراسلها في نيويورك يخاطبها فاملى على احدى كاتباتها رسالتين مجموع كلماتهما ٥٦٧ كلمة في ست دقائق وهو الوقت المحدد للمخاطبة . وبعد ما اتم املاء الرسالتين سأل رؤساءه في لندن هل سمعوا كل كلمة فاه بها ودوتوها او يلزم ان يرسل الرسالتين بالتلغراف حتى تصححوا فقالوا « سمعنا كل كلمة على ما يرام » وانتهت المخاطبة . وفي اليوم نفسه جرت محادثة تلفونية بين صاحب جريدة « الورلد » النيويوركية ومحرر « الديلي اكسبرس » الانكليزية . وبين مدير شركة التلغرافات والتلفونات الاميركية ومدير مصلحة البريد الانكليزية



لندن والعلم

ارتقاء المحادثات الاسلامية
بين عواصم الدنيا وغرائبها

المشهد الثاني

في مرسى ليكهرست بالولايات المتحدة في ١٥ أكتوبر ١٩٢٨

البلون غراف زبلن محوّم فوق مرسى ليكهرست بعد ما اجتاز المسافة بين المانيا والولايات المتحدة في احوال تسترعي الانظار والاسماع وبعد ما لقي في طريقه من العواصف والمخاطر ما بعث في النفوس القلق والروع وبعد ما ابدى ربّانهُ وابن ربّانهِ وملاحوه من البراعة والجرأة ما ينزل من تاريخ الطيران في صفحة المجد . وعلى الارض جمهور من المتفرجين يحصى بعشرات الالوف انتضى عليهم ساعات وهم ينتظرون قدوم ملك الفضاء وقد عيل صبرهم فجعلوا يتدافعون حتى تخطوا الحدود التي عيّنها البوليس الاميركي . ولما اقترب البلون من الارض اندفع الجمهور كالتيار الجارف حتى كاد رجال الحفظ يعجزون عن صدّهم عن اذية البلون . واذ الجمهور كذلك انسل منه شابٌ وعدا الى دكان قريب من المطير . لان الثانية في نظره كانت بمثابة دهر وهو مكاتب صحافي ديدنه السبق في نقل الانباء . ودخل الى غرفة من غرف التليفون العمومي يشرف من كوتها على المطير . وطلب باللغة الانكليزية شاكرًا لربه المامه بها ، ان يتصل في الحال بمكتب المحادثات الطويلة المدى . فلما اتصل به طلب ان يخاطب رقم S.N. ٦٨ برلين . وما انتقضت عليه دقائق ست حتى سمع صوت زميل قديم له يخاطبه من مكتب جرائد اولشتاين في برلين فهزّه الدهش والاعجاب حتى كاد ينسى غرض المحادثة . ولما افاق من حيرته ودهشه امل على زميله وصفًا مسهبًا لوصول الغراف زبلن الى ليكهرست ونزوله فيها سالمًا والاستقبال العظيم الذي كان معدًّا له . ومن مكتب شركة اولشتاين في برلين وزعت هذه الانباء على اشهر مدن المانيا ولم تلبث ان ظهرت طبعاات خاصة من صحفها تصف باسهاب حادثًا تمّ في اميركا قبل ربع ساعة وصفًا نقلت كل كلمة من كلماته شفاهًا وكان الحديث ينقل والبلون لا يزال آخذًا في النزول الى الارض

المشهد الثالث

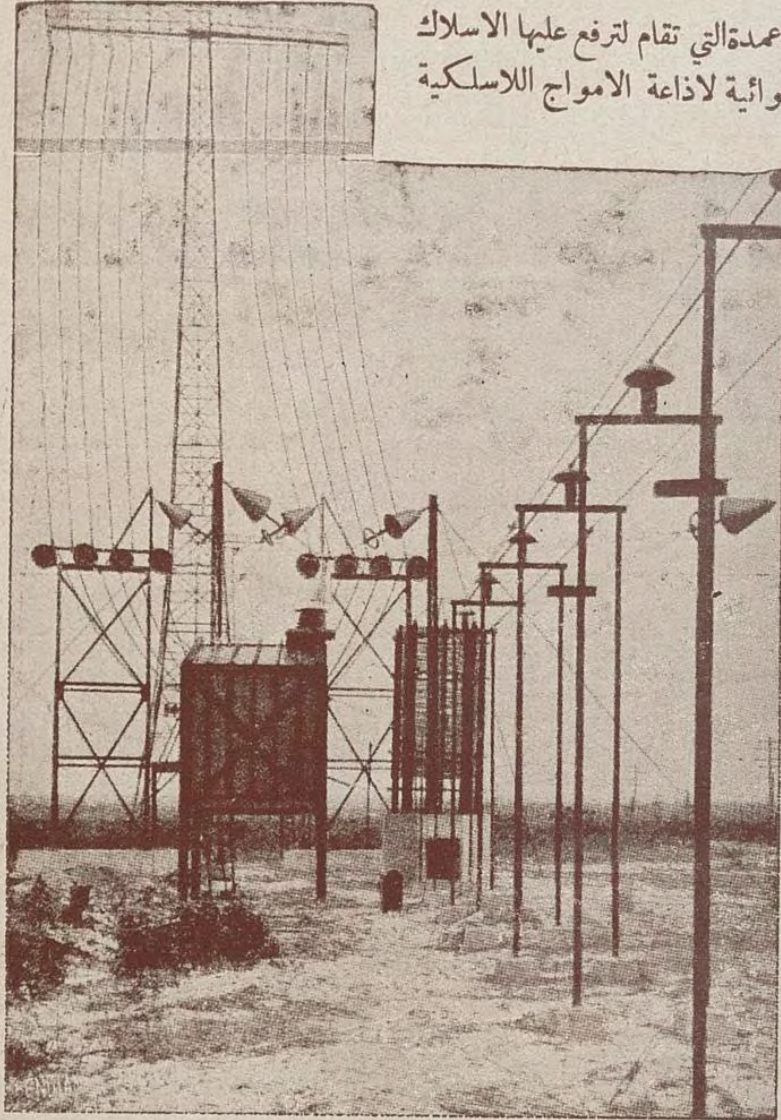
القاهرة تخاطب لندن في يوم الثلاثاء ٢٤ مايو ١٩٣٢

تحدث وزير المواصلات في الحكومة المصرية من داره بالزمالك مع المدير العام لمصلحة البريد بلندن في الساعة السادسة من مساء الثلاثاء ٢٤ مايو الماضي وتلاه صاحب الدولة اسماعيل صدقي باشا رئيس مجلس الوزراء فحدث حافظ عفيفي باشا وزير مصر المفوض بلندن فكان الصوت واضحاً كلّ الوضوح بل كان أكثر وضوحاً منه بين متكلمين في مصر وسوف يتاح لنا بعد ١٥ يونيو الجاري ان نجلس في مكتبنا بدار المقتطف ونمسك سماعة التلفون فنطلب من نشاء في لندن او منشستر او ادنبره ونتحدث اليه كأننا نخاطب صديقاً في القدس او الاسكندرية او الزيتون . هذا هو سحر العلم والاستنباط !

بين امريكا واوروبا

افتتح الخط التلفوني اللاسلكي بين لندن ونيويورك في ٧ يناير سنة ١٩٢٧ وكان الناس لا يزالون في ريبة من صدق ما يدعيه المستنبطون حاسبين ان المخاطبات التلفونية اللاسلكية سحر آلهي لا يكشف عن سره لآبناء الارض . اما القائمون بالامر من رؤساء شركة التلغراف والتلفون الاميركية ومديري مصلحة البريد الانكليزي فكانوا يتقنون كل الثقة بالنتائج التي اسفرت عنها مباحث العلماء والمهندسين وحسبوا ان غرابة الامر لا بد ان تبعث الناس على الدهش اولاً ثم على الاقبال على استعمال هذه الوسيلة الجديدة من وسائل المخاطبات وقد صح فألهم . فان ٢٩٠٠ شخص في اميركا استعملوا هذا التلفون في السنة الاولى من انشائه . ثم اخذ العدد يزداد ازدياداً مطرداً حمل القائمين بأمره على تخفيض الاجور . فقد كان اجرة المخاطبة التي تستغرق ثلاث دقائق ١٥ جنياً مصرياً في البدء خفضت الى تسعة جنيهات . كذلك كان النجاح الذي صادفوه في هذا الضرب من التخاطب باعثاً لهم على توسيع نطاقه . فبعد ما كانت المخاطبات تجري بين نيويورك ولندن فقط اتسع نطاقها حتى صارت تشمل كل مدن الولايات المتحدة الاميركية وكندا والمكسيك وكوبا من جهة وكل مدن انكلترا الكبيرة وعواصم اوربا من جهة اخرى . وصار التخاطب بين شيكاغو وبرلين أو كوبنهاغن أو فيينا أو باريس امراً مألوفاً . وقراء المقتطف يذكرون ان الطيار لنديبرغ تخاطب مع امه بعيد وصوله الى باريس طائراً من نيويورك وكانت هي في دترويت مدينة تبعد عن نيويورك نحو الف ميل . وقد وصف مدر التلفون في شركة التلفون والتلغراف الاميركية هذا الاتساع

الاعمدة التي تقام لترفع عليها الاسلاك
الهوائية لاذاعة الامواج اللاسلكية



المحطة اللاسلكية المرسلة رُكي هوينت قرب نيويورك

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨٠



محطة ارسال المحادثات التليفونية اللاسلكية قرب نيويورك



مركز (سنترال) التليفون اللاسلكي في مكتب المحادثات البعيدة بلندن

مقتطف يونيو ١٩٣٢

امام الصفحة ٨١



فقال : ان في الولايات المتحدة الاميركية نحو تسعة عشر مليوناً من التلفونات وكل واحد صار يستطيع ان يتصل بأي تلفون من تلفونات العالم القديم وعددها نحو ثمانية وعشرين مليوناً ! وقد اتسع هذا النطاق حديثاً حتى شمل القسم الغربي من شمال افريقية — وقریباً يشمل مصر — ومدن اميركا الجنوبية كما عم منذ عهد قريب مدن استراليا

ايدري القارئ ما يعني كل هذا التقدم ؟ انك تستطيع ان تتخاطب وانت جالس في مكتبك أو دارك أو ناديك مع من شئت سواء كان في لندن بانكلترا أو بونس ايرس بالارجنتين أو فينا بالنمسا أو استوكهلم بالسوج أو سدني باستراليا أو تونس بالجزائر . وكل هذه المخاطبات على جانب عظيم من الكتمان لان التلفونين اللاسلكي والسلكي يشتركان في ارسالها واذاعتها واستقبالها . فاذا التقطت الامواج الاثيرية سارت على سلك خاص يوصل الكلام الى سماعتك الخاصة وللكتمان جهاز خاص لا يزال امره سرّاً مكتوماً

كيف تجري المخاطبات

هيك في شيكاغو وتريد ان تخاطب صديقاً أو عميلاً لك في فندق سافوي بلندن . فتتناول سماعة تلفونك العادي وتطلب من عاملة التلفون التي تحببك ان تصلك بالمكتب الخاص بالمخاطبات البعيدة فتقول للعاملة في هذا المكتب اريد ان اخاطب فلاناً في فندق سافوي بلندن . فتفتح الطريق التلفوني امامك الى نيويورك كما تفتح الطريق امامك عاملة التلفون بمصر حين تخاطب الاسكندرية أو بيت المقدس . وحالما تعلم عاملة التلفون في نيويورك انك تود ان تخاطب لندن تحول صوتك الى القسم المختص بذلك في مكتب نيويورك ومنه ينتقل صوتك على اسلاك التلفون السلكي مسافة ٧٢ ميلاً الى المحطة اللاسلكية القائمة في مكان يدعى « رُكي بوينت » على مقربة من مدينة نيويورك . في هذه المحطة يقوّم الصوت ويتحول الى امواج لاسلكية قوية بواسطة انايب مفرغة معدة لذلك . ثم يبعث في الاسلاك الهوائية التي يبلغ طولها ميلان ومنها يذاع في الجو امواجاً لاسلكية تجتاز الفضاء بسرعة النور . اي بسرعة ١٨٦ الف ميل في الساعة . على ان هذه الامواج تضعف كثيراً في اجتيازها الفضاء بين اميركا وانكلترا ولكن ما يبقى منها تلتقطه الاسلاك الهوائية في محطة الاستقبال الانكليزية القائمة في بلدة كوبار بشمال اسكتلندا وهناك تقوّم وتحول الامواج اللاسلكية الى تيار تلفوني سلكي عادي وترسل على الاسلاك العادية الى لندن . ومثل كل محادثة تلفونية عادية ينتقل الصوت الى صديقك في فندق سافوي

ولكن حين يردُّ عليك صديقك لا يتبع صوته الطريق التي جاء عليها صوتك . ذلك انه متى رد عليك ينتقل صوته الى السنترال اللندني ومنه لا يرجع الى كوبر حيث التقط صوتك بل يذهب الى سلك تلفوني عادي الى محطة قريبة من لندن تدعى محطة «رجي» ومنها يذاع امواجاً لاسلكية كما اذيع صوت صديقك من محطة « ركي بوينت » وحين يصل صوتك الى اميركا تلتقطه محطة اخرى في بلدة هولتن بولاية ماين وهناك تقوى امواجه وتبعث الى نيويورك على سلك تلفوني طوله نحو ٦٠٠ ميل ومن نيويورك تنقل الى شيكاغو مثل كل محادثة تلفونية بعيدة المدى

فلدينا اذاً اربع محطات لاسلكية الاولى محطة ركي بوينت ومنها يرسل كلام الاميري ومحطة كوبر باسكتلندا التي تلتقط هذا الكلام . ثم هناك محطة رجي قرب لندن التي يرسل كلام المحدث من فندق سافوي الى اميركا فتلتقطه المحطة الاميركية التي في هولتن بماين والغريب العجيب في امر هذه المحطات كلها انها بلغت من الدقة والانتظام والسرعة في اذاعة الكلام واستقباله حتى لتشعر وأنت تحدث شخصاً يبعد عنك الوف الاميال وتفصله عنك بحار وقارات كأنه على مقربة منك يحدثك من غرفة مجاورة

غرائب المحادثات

كان عدد الذين استعملوا التلفون اللاسلكي بين لندن ونيويورك يوم افتتاحه الاول ٣٥ شخصاً . ولكن هذا العدد قد تضاعف الآن منذ اتسع نطاق المحادثات حتى صار يشمل اشهر مدن اوربا واميركا ومنذ خفضت اجورها واستنبطت طريقة لكتماها . فتوسط عدد الذين يستعملون هذه الطريقة من طرق المحادثات كل يوم سبعون شخصاً ، ستون في المائة منهم يستعملونها لاغراض تجارية ومالية واربعون في المائة لاغراض اجتماعية . وأول صفقة تجارية عقدت بالتلفون اللاسلكي كانت بين شركة انكليزية وشركة اميركية فاشترت الاولى من الثانية مقداراً كبيراً من الخشب

ولما ثبت ان هذه الوسيلة الجديدة من الوسائل التي يصح الاعتماد عليها اقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً . فعقد مجلس الادارة في احدى الشركات البريطانية جلسة اصغى فيها الى خطبة خطبها رئيسه وهو جالس بمكتب في نيويورك . وعقدت احدى شركات البترول قرصاً قدره خمسة ملايين ريال لاحد فروعها وكانت الرسائل قد عجزت عن ازالة سوء التفاهم الذي نشأ فازالة حديث استغرق بضع دقائق . وعرف رجل بنويويورك ان صديقة له عملت لها عملية في لندن فتكلم مع احد بائعي الازهار وطلب اليه ان يرسل اليها طاقة من الورد . واشترك المستر روزنباخ

الاميركي المشهور بجمع الكتب النادرة بواسطة احد عملائه في مزاد للكتب اقيم في لندن فكان هو يكلم عميله من سريره بنيويورك وعميله يزيد على المعروض ثمناً لكتاب قديم واخيراً دفع ثلاثة آلاف جنيه وفاز به . وتكلم احد ناظمي الاغاني الذائعة مع مغنٍّ فاملى عليه اغنية جديدة نظمها ولحنها فدفع اجرة المحادثة مائة وخمسين من الجنيهات . ولما شاع ان المسهلين ولعبة التنس المشهورة قد عقدت خطبتها حادها احد مكاتي الجرائد الانكليزية من لندن وكانت هي في سان فرانسيسكو فأيدت الخبر

واطول محادثة تلفونية بين لندن ونيويورك استغرقت خمساً وتسعين دقيقة بلغت أجرها ٢٨٥ جنياً ويقال ان المستر دورانت أحد كبار المثرين الاميركيين ومن اكبر المساهمين في شركة جنرال موتورز دفع في اسبوع واحد وهو مصطفى بانكلا ترا خمسة آلاف من الجنيهات اجرة لمحادثاته التلفونية مع نيويورك . وقد كان الغرض من هذه المحادثات الوقوف على حال السوق المالية في وول ستريت . وفي احد الايام ابتاع وهو جالس بسريره في فندق بلندن ما قيمته مليون ومائتي الف جنيه من الاسهم

وتدير هذه المحادثات عمل شاق . هب ان رجلاً في نيويورك يريد ان يحدث سيدة في لندن في الساعة السادسة مساءً بحسب وقت لندن . فعاملة التلفون في نيويورك تحدث عاملة لندن أولاً وتطلب اليها ان تثبت ان هذه السيدة مستعدة لمخاطبة هذا الرجل في الساعة المعينة فتكلم العاملة السيدة بالتلفون وتخبرها بذلك . فاذا قبلت فيه . واذا تعذر عليها ذلك طلبت اليها ان تعين ميعاداً آخر وتخبر به عاملة نيويورك لترى هل هذا الميعاد يوافق المتكلم من نيويورك وهكذا . اذ لا يخفي ان نجاح هذه المحادثات لا يتم الا اذا خاطب الانسان من يريد مخاطبته . فيقع على مكثي التلفون عناء الجمع بين المتخاطبين على بعد الدار واختلاف الساعة بسبب اختلاف خطوط الطول

وكثيراً ما تضطر عاملات التلفون ان تتعقب الشخص المطلوب تعقب رجال البوليس السري وفي ذلك تحتاج الى أوفر نصيب من طول الاناة وسرعة الخاطر

فقد حدث مرة أن طلبت سيدة امريكية في لندن للتحدث مع سيدة اخرى من نيويورك فبحثت عاملة التلفون في الفندق الذي تقيم فيه هذه السيدة فقيل لها انها ذهبت تتباعد ما يلزم لها من شارع ريجنت . فالتصت بكل مخزن من مخازن ريجنت ستريت المشهورة تسأل عنها حتى عثرت عاها وكانت تهم بدفع النقود ثمناً لما ابتاعته فأنزعته من مكانها وجعلتها تكلم نيويورك من غرفة تلفون في المحل عينه

١٨ سنة فاقم معرض فلادلفيا سنة ١٨٧٨
فعرض فيه الكسندر غراهام بل تلفونه
الاول وتكلم به مع السر وليم طمس (لورد
كلفن بعدئذ) على مسافة قصيرة فدهش السر
وليم لهذا الاستنباط العجيب بعد ما مر به
اولاً مر الكرام . ولكن السلك التلغرافي
والتلفون العادي اجسام ترى وتلمس فما
اعظم الدهشة التي تتولى الناس الآن وهم
يتخاطبون على مسافة آلاف من الاميال من
غير اسلاك في البحر أو على اعمدة في الهواء.
بل وفي الامكان الآن ان يتحدث الرجل

المسافر على باخرة في عرض البحر
أو الممتطي منطاداً محلقاً في الفضاء
الى رجل آخر جالس في مكتبه في
احدى المدن



وادهى من ذلك ان الكومندر
برد الرائد القطبي تمكن من أن يخلق
بطيارته فوق الاصقاع القطبية وفيما هو محلق
بها تمكن من مخاطبة نيويورك مخاطبة تليفونية
وهي على نحو ١٠ آلاف ميل منه . كل ذلك
والاصوات تسمع واضحة ونبراتها جلية كل
الجلاء . لقد اصبح انتقال الصوت سريعاً
كانتقال النور وتفاوت الحقيقة على بنات
الخيال . كنا بالامس نستعمل الاشارات للتفاهم
وها نحن اليوم نتخاطب وغداً ننظر بعضنا
بعضاً وجهاً لوجه . فاذا يفصل بين الناس
بعدئذ وعجائب المواصلات والمخاطبات قد
جعلتهم امة واحدة !

وتعقبت عاملة أخرى رجلاً من باريس
الى انفرس الى مونت كارلو الى برلين . ولما عثرت
على الفندق الذي قيل لها انه يقيم فيه في برلين
طلبت ان تحدثه ففعل لها انه ذهب الى مطعم
كذا لتناول العشاء فعثرت عليه هناك ودعته
الى التحدث مع رجل طلبة من فيلادلفيا .
وطلب مرة أخرى رجل ظهر لدى البحث عنه
في داره انه ذهب الى دار الاوبرا بكوفنت
جاردن بلندن فبحثت عاملة التلفون عن
رقم كرسية ودعته الى غرفة التلفون في
دار الاوبرا نفسها فتكلم مع شيكاغو .

وطلب مرة رجل آخر فبحث عنه
في داره فلم يعثر عليه وبعد البحث
عنه تعقبته عاملة التلفون الى
فوكستون وهو على وشك الابحار
منها الى فرنسا فتكلم مع نيويورك
وما كاد ينتهي حتى كانت السفينة
قد اخذت تقلع من المرفأ فعدا حتى بلغها

منذ نحو سبعين سنة نقل سلك التلغراف
الذي مد في الاقيانوس الاطلنטיكي اول رسالة
تلغرافية ارسلت من اوربا الى امريكا . وكانت
من الملكة فكتوريا الى الرئيس بوكنان
الاميركي وكانت كلماتها تسعين كلمة استغرق
ارسالها نحو ساعة ونصف ساعة فصريح بريط
احد زعماء الاحرار البريطانيين في ذلك العهد
« ان السلك التلغرافي قد قرب العالم الجديد
الى العالم القديم » . وانقضى على تلك الرسالة

انطاكية ومشاهدها الفاتنة

... ولما استقر بنا النوى ، والقينا عصا التسيار في مدينة انطاكية عاصمة سوريا القديمة ، وانتظم شملنا في تلك الديار ، خرجنا ذات يوم الى شلالات « دفنه » لنستمتع بمشاهدها الرائعة عند طلوع الفجر

وغدونا مع الطير فاذا جو بارد يلفح الوجه وينسيك انك في اواسط يوليو ، ومضت السيارة بنا حتى بلغنا الشلالات فاذا ضاحية كأحسن ما نعرف من المصايف موقعا ، يشرف عليها الجبل وتجري من تحتها الانهار ، ويتردد فيها هواء خفيف ولكنه ممتليء حياة ونشاطا ، فاذا انت اقدر ما تكون على الحركة ، واذا انت اقدر ما تكون على التفكير واشوق ما تكون اليه

حيث الضحى متسالك كطلى بكف مشعشع
والجو تملأه نسا لات البروق اللمع
والريح تحضن آخر النغمات حضن المرضع
وتقصص الاغصان شبه تقصف في اضلعي

وشلالات دفنه نزهة من الزه عند من يشوقه جمال الطبيعة ، فالياه هنالك تنحدر من قم الجبال مارة بين الصخور الدهرية ، والهياكل الحجرية التي لم تستطع عناصر السماء ان تمحو نتاة من رؤوسها في جبل من الاجيال

ومضت ردة من الزمن وانا مستلق على العشب المنضد المبسوط انظر في دھول الى تلك الآكام الصخرية الراقدة في سفح جبل متشامخ نهض متفرعا متسلسلا . ولكنني لم البث ان استيقظت على اغاني الطير فوق الاغصان البعيدة ، فاستويت جالسا وعند ذلك بصرت بنفسي بين مياه تنساب من هنا وهناك بين الصخور ، تحيط بي آكام شاهقة تطاول الفضاء ، وانا في وادي يجري شرقا وغربا ، ممتلئا نورا ، نور الصباح الزاهر ومشرق الشمس الضاحية ، ثم لاح لي وديان اخرى عظيمة كاحتها ، وراء المياه المنسابة المتدفقة ، وفي منحدر هناك وجدت طريقا ضيقا تتساقط عنده رشاشات الماء ، فعدلت اليه ومضيت فيه وبلغت بعده الى آكام اخرى معزلة صغيرة ، فتسلقتها واذا بي في سفح منحدر فرعت عنده الاشجار ، وطالت الدوح ، وأينعت الاغصان ، فهبطت موليا وجهي شطر الوادي ، اذ رأيتُه قد تفتح على مراعي ناضرة ، وقد وقفت الشمس المشرقة عن مواجهة الوادي ، وتبددت في جوف الفضاء اغنيات

الطير . يا لله ما أروع وما أبديع هذه المشاهد ! فالآكام والوديان مرعى انضر ازهر ، ريان منتعش ، تشرق فيه ازهار حلوة تدل على مهارة في الزرع ، وحذق غريب في الحرث والحصد ، وحول هذه الاودية اسوار عالية من الصخور ، وغدير تنساب مياهه في قطع المرعى واجزاء الحقل ، وفي الرابي العالية تمرح الماشية وترعى على مقربة من اعطان لها ومرابط وكنت كيفما سرت واننى اتجهت ارى جماعة من النساء والرجال وجلسهم من سكان حلب وغيرها قصدوا الى هنا للاصطياف جالوساً وجنوماً على اكداس من العشب كأنهم يتقبلون في ابعد حدود المرعى وعلى مقربة منهم طائفة من اطفال الفلاحين وقوفاً متكاسلين ينتظرون البقشيش . ويمشون بعضهم في اثر بعض مشية رفيقة بطيئة وفي كل خطوة يتنابون كقوم اقاموا الليل سهراً وسمراً وقد قضيت وصحى النهار كله جرياً ووثباً في احضان تلك الطبيعة المشرقة الضاحكة ادور في جلال الربى والجبال ، وانقل عيني بين محاسن الكون ومباهيه ، واتأمل حمرة الشفق المترامية فوق الربى البعيدة ، والمراعي النضراء مرخياً العنان لخواطري ، مسترسلاً في تفكيري حتى اخذ الهواء يبرد والظلام يعم الكون . وعدنا بعد ذلك الى المدينة وكانت اشعة القمر الحلوة قد بدأت متلائة في جلال ووقار وضياؤه المزهر الباهر قد غمر الربى والوديان وبعد ان صرفت اسبوعاً كاملاً في انطاكية قمت برحلة الى « بتياس » فركبت سيارة اقلتني اليها بعد ان اجتازت في طريقها سهولاً منبسطة لا ينحط النظر على مشهد أروع منها ولا أبديع وبعد ان تسقلت جبلاً خضراء مزهرة ، يداعبها النسيم المعطر بشذي الرياحين ، تمتد على جانبيها سهول مترامية تتخللها جداول بهية المنظر

وتقوم بتياس على مرتفع الف وخمسمائة متر من البحر ، وترقد في ظل خمائل فاتنة على خريز الجداول المنسابة بين الربى والبساتين ، تكتنفها جبال لا تكاد العين تتبين قممها لشموخها ، وأمامها واد ممتد تقوم على اكتافه من الناحية المقابلة قرية « حاجي جبلي » مترامية بين غدران منسابة من هنا وهناك ، وقد استغرقت الطريق من انطاكية الى بتياس ساعة من الزمن وفي بتياس فندق جميل الموقع . وقد رأيته غاصاً بالمصطافين وجلسهم من اهالي حلب الشهباء ، وفيها مقاه بديعة تشرف على الوديان والسهول ، وترقد في ظل اشجار ساجية ملتفة . وكان بين اصدقائي نفر من الادباء الظرفاء يميلون الى الغناء ويتعشقون قصائد شوقي التي ترم بها الاستاذ عبد الوهاب ، فطلبنا الى صاحب المقهى — وهو ارمني — ان يسمعنا شيئاً من اغاني عبد الوهاب ففعل ، وكذلك طربنا في رؤوس الجبال وفي القرى الارمنية النائية بشعر شوقي ، وسمعنا عبد الوهاب ينشد على لسان المجنون « تلفت ظبية الوادي . . » وسمعناه ينشد كذلك على لسان انطونيو « الحياة الحب والحب الحياة » وهكذا قضينا يوماً على خير ما يكون وقد انسلنا الى ينبوع في اعلى الالكمة المقابلة يتفجر من شق صخرة عظيمة ، وشاهدنا

في مكان معتزل قصي الى يمين هذا ينبوع حيث الترجس البهي ، والزنبق المفراح ، بقايا كنيسة قديمة يرجع بناؤها الى عهد الرومانيين ، ولما اخذت الشمس تهوي في اعماق المغرب غادرنا بتياس الى انطاكية

ولما كان الغد قمنا الى قرية « خدرباك » وكان الصباح الزاهي ينشر في السكون، ويسط كاللائكة اجنحته الهفافة ، فبلغناها في ساعة ونصف ، وهي قرية جميلة قائمة على هضبة تمتد امتداداً مستطيلاً حتى تعترضها هضبة ثانية تقوم على اكتافها قرية « يوغون اولوق » وقد نزلنا عند ينبوع مياه غزيرة في منخفض من الارض عند مدخل خدرباك ، وهناك توسدنا العشب الاخضر المزهر الذي يحف بجوانب ينبوع ، وأخذنا نرتشف المياه العذبة الباردة ثم اكلمنا هنيئاً وشربنا مريئاً ، وعند الاصيل غادرنا خدرباك في ركب حافل الى السويدية فبلغناها في مدى عشرين دقيقة . والسويدية قرية كبيرة تحتوي على مزارع واسعة فيها الذن انواع الفاكهة ، وهي ممتازة بترية دود القز وفيها معامل كبرى للحرير ، وبعد ان اقنا فيها برهة قصيرة انحدروا الى شاطئ البحر وجلسنا في مقهى صغير الى جانب مزار « الخضر » وهو مزار قديم يحج اليه طوائف الناس من القرى النائية ويندرون له النذور ويقدمون القرابين . واستطعنا هناك ان نشهد الشمس تسحب ذيولها الشفافة وراء الافاق الارجواني منصتين الى هدير الامواج المتلاطمة الصخابة الداوية ، وهي تغسل اقدام « الجبل الاقرع » المشرف على سلسلة منتظمة من الالكات الرمادية اللون

وفي المساء عدنا الى انطاكية مجتازين تلك المزارع الواسعة والجمائل الجميلة التي يتأرجح منها عرف طيب كعرف اللبان

وبعد هدنة قصيرة الامد قت في نفر من الاهل الى « اليايلا » وهي مزرعة بديعة تنهض على هضبات عالية تشرف على بسيط من الارض مكسو بالاعشاب السندسية ، وفيها ينبوع ماء عذب ينبجس من الصخر ، وقد استقبلنا في خمائل تلك المزرعة نفر من المعارف ، وبعد ان استرحنا طفنا بين المزارع النضرة وفي بهرة الحقول الصامتة الساكنة ، ثم عدنا نلتهم صنوف الطعام اللذيذ، ونحن جلوس الى مائدة مستطيلة تحت الاشجار الساجية

وعند الاصيل غادرنا « اليايلا » الى « الاوردو » فاجتزنا في طريقنا الصخرية غابات الصنوبر، واحراج السرو والشربين يفوح منها شذى طيب يمتزج برائحة الصخور والتراب منصتين الى زقزقة العصافير ورجع اسراب القمرى والحجال وهي تأوى الى اعشاشها وراء مكسر الصخور وقد قضينا ليلتنا في « الاوردو » فوق سطح منزل من المنازل الممتازة لقوم كرام ، وشهدنا القمر بازغاً من وراء الجبال مشرقاً متهللاً ، هذا ونسمات الليل الفاترة العليقة تهب حاملة من مجامير الحقول والاوادية رائحة عطرية زكية ، وشاهدنا في الصباح مراعي « الاوردو »

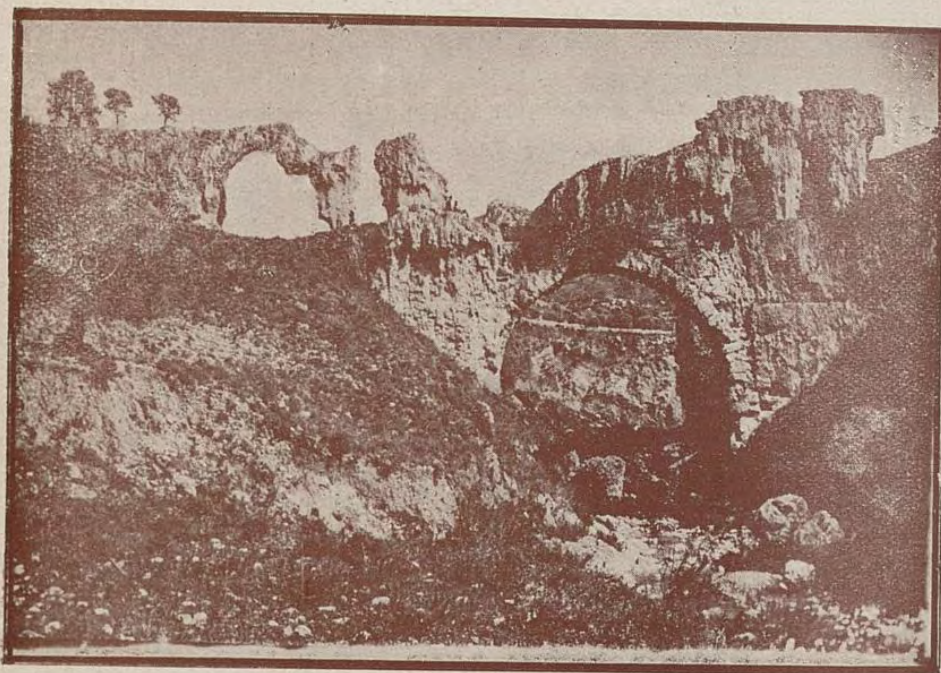
الخصيبة تنساب اليها الماشية وقد اخذ الراعي يترنم عزمارة الشجي ويرتل اناشيد قروية مطربة. على ان السيد «نوري» أباي الا ان نواصل السير في الطريق الجبلية المؤدية الى اللاذقية ففعلت على مضض ، وما كادت السيارة تتعد بنا قليلاً حتى رأيت ان الحق في جانبه ، وان جولتنا في هذه الطريق الجبلية جولة رائعة ، فقد شاهدنا محاسن فاتنة ، لا تقع العين على اروع منها ولا أفق ، فهذه مناظر الرنى والآكام المزهرة ، والوديان السحيقة المخضرة ، وغابات الصنوبر وكروم الزيتون ، وحقول التوت ، وزرقة البحر الصافية التي تتراءى من بعيد ، والمغاور الصغيرة المنبثقة من اصلاب الصخور ، كل هذه المفاتن والمباهج كانت تبدو لنا في لحظة عين فلنشتت يمنة ويسرة مذهولين مأخوذين كأننا في حلم رائع جميل . على اننا ما عتينا ان عدنا الى الاوردو لنجتمع بافراد عائلتنا الذين صحبونا في رحلتنا ونتناول معهم طعام الغداء وعند الاصيل اخذنا تنسّم الروابي النظرة القائمة قبالة الاوردو ونستمتع بحمال الطبيعة الفاتنة ، ثم ركبنا سيارة اقلتنا الى كسب بعد ان اجتزنا طريقاً وعرة تكتنفها من الجانبين آكام صخرية ، وقد لبثت السيارة نحو اربعين دقيقة تارة تنحدر وطوراً ترتفع نافذة من بين الرنى والجبال ، منزلة مع المنحدرات هاوية ، وتقوم قرية كسب على مرتفع اني متر من البحر وهي ابداع قرى تلك الضاحية وأنغم مصايفها بلا منازع

وعند وصولنا الى كسب رجعنا واخذنا نمشي في طرق ضيقة بين المزارع ، حتى وصلنا الى مرتفع يشرف على القمريّة بأكملها ، تنهض حوله كنيسة أثرية جميلة لآخوة القبر المقدس ، وقد طفنا ارجاء هذه الكنيسة صحبة قس اصبنافيه رجلاً حديثاً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، وشهدنا ونحن نطوف بناءً جميلاً لمدرسة توشك ان تتم ، واهل كسب كلهم من الارمن وهم اقوياء متعلمون . ولهم بعثات علمية يوفدونها كل عام الى بيروت وعينتاب ، وفلاحوها مهرة نشيطون ، وهم يعيشون كسائر اهل القرى المجاورة عيشة سهلة دئبة ، لهم كل احوال السعادة والفضيلة كما تفهم نحن من هاتين الكلمتين ، فهم يعملون ولكنهم لا يحملون في العمل على انفسهم ولا يتعسفون ، عندهم طعامهم ولباسهم على قدر الحاجة وجهد الطاقة ، لهم ايام وفصول فيها يستريحون وفيها يتعبون

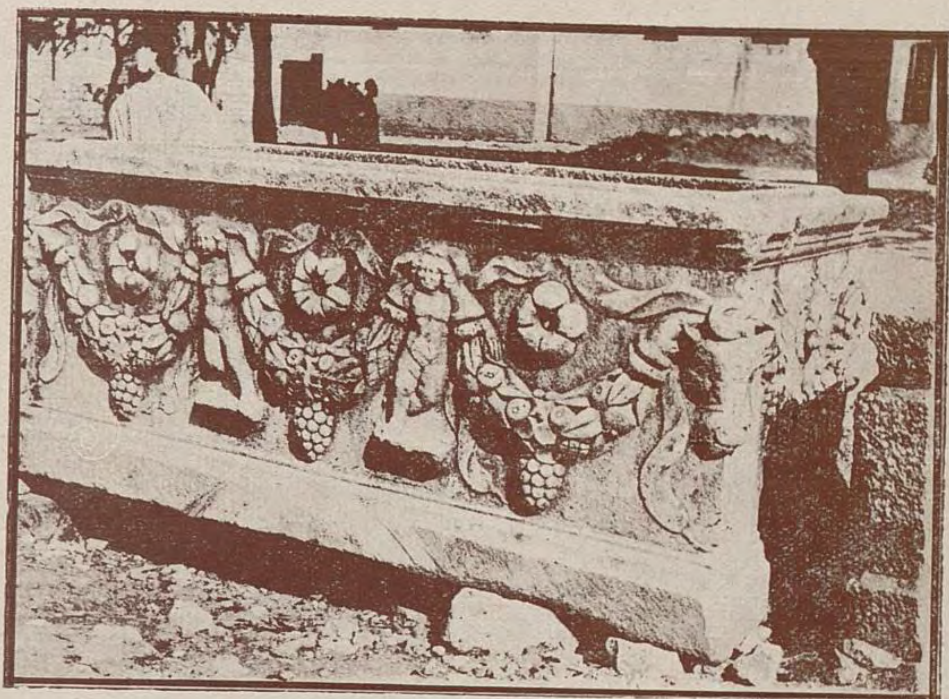
وقد دار بيني وبين قس الكنيسة حديث ابدت فيه دهشتي من اعتزال هذه الطائفة الكبيرة من الناس في هذا المعتزل القصي البعيد عن العالم المصطخب فقال : هذه المحاسن الفاتنة ، والمباهي الساحرة ، هذه الازاهر الجميلة ، هذه النرجسات ، وتلك الزنبقات ، والسماء وسحابها الوطفاء ، ومغارب الشمس ومطالع الغزاة ، ومتألق النجوم ، ودري الكواكب ، لما يسحر ويفتن . فهل بالله رأيت عيشاً اطيب من هذا العيش ؟ ماذا في المدن الكبرى التي منها اتيت



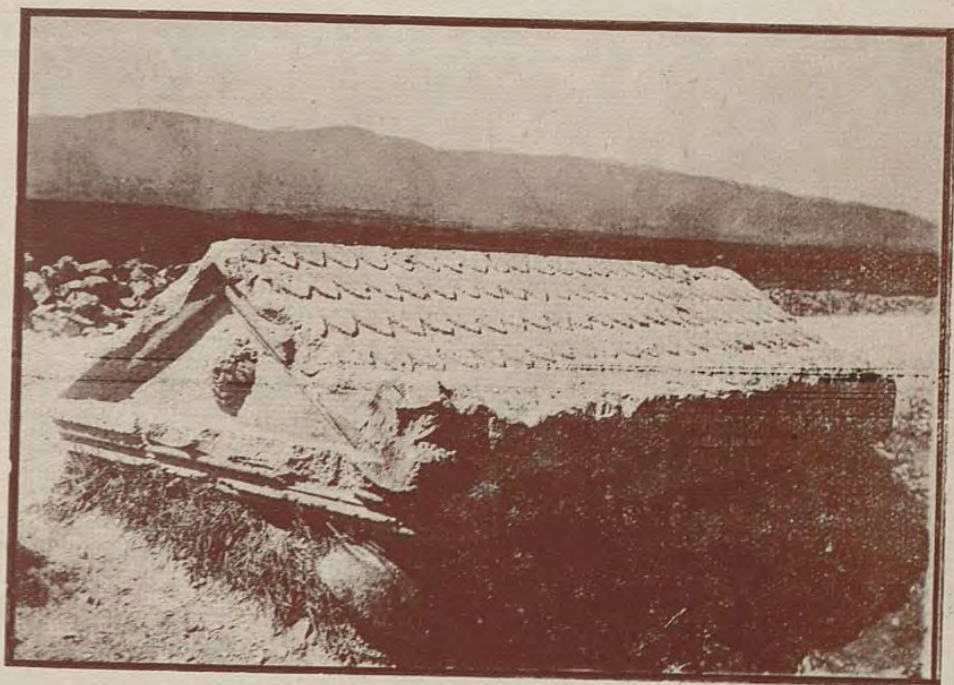
جسر روماني على نهر العاصي عند مدخل انطاكية



بقايا من قناة الامبراطور الروماني تراجان وكانت تجري عليها مياه دفنه الى انطاكية
مقتطف يونيو ١٩٣٢
امام صفحة ٨٨



ناوس روماني محفوظ في دار الحكومة بانطاكية



غطاء الناورس قبل نقله الى دار الحكومة

غير الضجيج والجلبة والزحام والتناحر من اجل الحياة ومطالب العيش . ان الناس هنا يرون ان قريتهم هذه الهادئة الجميلة هي العالم بأسره ، أما الانسانية التي تعيش وراء هذه الجبال فهي عندهم خرافة !

لقد صدق والله هذا الشيخ ، هنا في بهرة الحقول الصامته ، وفي وسط الحمايل النضرة ، وفي احضان الطبيعة المشرقة الضاحكة يحلو للمرء ان يعيش عدت اسأل الشيخ : وكيف تقضي نهارك ؟

اجاب : « في رحلات هنا وهناك ، وسط الطبيعة الضاحكة ، حتى اذا عدت ادراجي عند المغيب منحدرأ مقانصي المتجافية النائية اروح اقصرُ على زميلي القس . . . حديث يومي وخبري ويتلو علي هو وقائع نهاره ونبأه ، ويحدثني كيف ان يماماتنا تقفت البيض تحت اجنحتها ، وكم أعطت الغنزة من لبنها ، وكم من السمكات اصطادت حباله ، ثم يأخذني فيريني ما جمع من اوراق الطحلبات واغصانها ، وما ركم من غشاء الاشجار ولحائها ، يخزنه قبل وفدة الشتاء وقرسة الزمهرير ، وما اقتطف من اب الغابة وفاكهتها ، وما شاك اصابعه الدامية من ابرها واشواكها ، وما مد ولوى من دوالي الكروم وعواسج البلاب ، فوق جوانب المغارة وجدرانها ، وما امسك من العصافير بمخادعتها بالحبوب ومداعبتها ، والظباء الجائعة يلقطها الحب بيده ويؤكلها ، لان كل شركائنا في عزلتنا ظباء الجبل وابائها ، وعصافير الغابة واطيارها ، تتسابق عند رؤيتنا ، وتجتمع لمطلعنا ، وتطير على صوتنا ومشيتنا ، ونحن نأكل ما نصيبه في نهارنا ، تحلو لنا الألبان وتوافه الطعام وتطيب ، ونلتهم بعدها غرائب الفاكهة ونوادير الثمر ، وحيناً نشرب ماءها ، ونوثر عليها عصيرها ، ونخزن للفصل المحتضر ما تحفف الشمس ويحفظ الزمن ، وينوه احداً بفكرة اخيه ويصفق لمبتكره ، ويظفر لاملوحته ، تقتل المساء المتطاول في النادرة ، والضحكة الحلوة في اعقاب الضحكة ، وحيناً نشهد القمر في صميم الليل بازغاً مهللاً ، ساطعاً على صفحة الارض منبسطة ، فنسجد فوق الصخر الأصم خاشعين ضارعين ، نستقبل مطلع ذلك النور ، ونتألق من ذلك الضياء ، نشكر الله اليوم الذي اعطانا ، ونحمد له الليلة التي وهبنا ، ونسأله الشمس تطلع علينا بالغد الغنيء والايام الحلوة الرغيدة .

« كذلك نختم يومنا ، نمضي في سلام نهجع في رفق ، حتى يصدح صوت الذي يصحو قبل رفيقه مع نشأئ القنبرة ، ويمتزج باغاني البلبل ، فيطرب اذن صاحبه ، ويوقظه من هجوعته » مددت يدي للقس الشيخ وهزرت يده بحرارة واعجاب ، وعدت مع اهلي واصدقائي الى انطاكية مارين بين المزارع الخضراء موقنين ان عشاق الاصطياف سيكتشفون بعد قليل من الزمن في هذا الفردوس الارضي خير مصطاف . . .

نقولاً شكري

مجلد ٨١

(١٢)

جزء ١

بريان

== تنمة مقالة اميل لدوغ ==

اخذت شهرة بريان العالمية في خدمة السلام تذييع من نحو خمس سنوات او ست فقط ، مع انه كان قد انقضى عليه خمسون سنة وهو يدعو الناس الى السلام والتساهل ونبذ التعصب القومي. ومع ذلك فليس هو مبدع ميثاق لوكارنو ولا خالق فكرة الاتحاد الاوربي. وانما كان في السياسة العالمية مثل اديصن في ميدان الاستنباط ، يتناول المسائل كما هي ويعالجها بحماسة فادرة وكثير من بعد النظر وسعة الخيال حتى اصبح اسمه مرادفاً «للسلام» . ذلك انه لما حذفت الضمانة الانكليزية الاميركية لسلامة فرنسا من معاهدة فرساي ، لشدة معارضة مجلس الامة الاميركي ، اخذ رجال السياسة في فرنسا ، وبريان في طليعتهم ، يسعون سعياً حثيثاً لابتداع بديل لها . فلما التأم مؤتمر «كان» سنة ١٩٢٢ حاول بريان ان يستميل بريطانيا لضمانة سلامة فرنسا لقاء تساهل في موضوع التعويضات الحربية المطلوبة من المانيا ، فعارضه في ذلك پوانكاره معارضة شديدة ، فعاد الى باريس والقي خطبة في مجلس النواب محاولاً ان يسوِّغ بها عمله ، وكان الصق اصدقائه به لا يدرون هل يستقيل او لا يستقيل . وكان في اثناء القاء الخطبة يراقب النواب في روحهم وغدواتهم ، ويتبين نياتهم في ملامحهم ، ويصغي الى تصفيقهم الفاتر فانهى خطبته بهذه العبارة المفاجئة : « كل هذا كان برنامجي . واذا ارى انه لم ينل موافقتكم فاني مستقيل » ولما عاد فتقلد زمام الحكم في سنة ١٩٢٥ وجد بين اوراق سلفه «هريو» وثيقة المانية كان قد مضى عليها شهور وفيها مشروع ميثاق بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا تضمن بموجبه سلامة فرنسا و المانيا من اي هجوم على احدها . وكان الميثاق تاماً من جميع وجوهه ، فاخذه الى لوكارنو واقنع الدول بقبوله . والطريقة التي جرى عليها في لوكارنو حديثاً وسلوكاً كسبت له من جماهير الناس اسم «الفرنسي المسالم العظيم» . ولم يكن سبب فوزه الشعور الانساني الذي يساور المفاوض اذ يسمعه يقول « انا » في حين ان السر اوستن تشمبرلين لا يستطيع الا ان يقول « حكومة جلالة الملك » بل كان عطفه وانطلاقه الصحيح من القيود التي تكبل العقل وتضيق افق النظر . في بلدة اسكونا التي اقطنها قال بريان مرة لمستشار الماني « انت الماني وانا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع ان اكون فرنسياً واوربياً محباً لصالح اوربا في آن واحد . وانت تستطيع ان تكون المانياً واوربياً محباً لصالح اوربا في آن واحد . ولا يصعب على اوربيين محبان صالح اوربا ان يتفقا »

لقد انقضى علينا نحن الكتّاب والشعراء المحقق على ضفتي نهر الرين احدى عشرة سنة ونحن نقول الكلام نفسه فلم يجرؤ رجل من رجال السياسة على الاعراب عن شعورنا حتى فعل ذلك بريان . من ذلك اليوم ، اتسعت آفاق عطفه فلما عقد اتفاق لوكارنو ، اكتشف لغة جديدة اذ قال : « لقد تكلمنا لغة اورية ، وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » ولما عاد الى باريز حاملاً غصن السلام في يديه ، وخرجت باريس تستقبله قال لمن حوله على المحطة « لقد استعدتُ صباي » ا

ألا يتضح كيف اقبل بريان ، وهو شيخ عدا الستين ، على فكرة السلام ، يكافح في سبيلها كفاح الاحداث المتحمسين لها المتعصبين في سبيلها ، كفاحاً لم يرَ اصداؤه ما يماثله في اي دور من ادوار حياته السياسية ؟ انه بعد تنقله السياسي بين الحكومات الفرنسية ، وبعد ما قضى ساعات وحيداً يقذف زورقه الصغير ويصيد الاسماك من الانهار والجداول ، ويبحث في قرارات ضميره متأملاً ما صارت اليه احلام شبابه ، اكتشف اخيراً العبارة التي تنسق وحياته ، وعزم ان يدافع عن الفكرة التي تحتويها بكل ما له من المكانة ، في فرنسا ووراء حدودها ، عازماً ان يحقق ما كان يدعو اليه في صباه . اصغ اليه وقد ارتقى المنبر في مجلس الشيوخ يدافع عن سياسته في لوكارنو قال : - « ما هذا ؟ اخالدة هذه الحال ؟ اخالدة ! يجب علينا ان نخاف دوماً نشوب حرب بين فرنسا والمانيا ؟ يجب على هاتين الامتين ان تفكرا دوماً في السلاح والتسلح ، سرّاً او جهاراً ؟ حروب جديدة ... اهذا ما تدعونه مستقبلاً ؟ اذهبوا الى مدنكم ، وسيروا في شوارعها ، وزوروا الناس في بيوتهم ، وتحدثوا الى الفلاحين ، فكل انسان في كل مسلك من مسالك الحياة يطلب السلام »

ولما امضى اتفاق لوكارنو في لندن قرأ بريان ، والانفعال ياد في اساريره ، رسالة وردته من والده جاء فيها « اسمح لوالدة ان تتمنى لك خيراً . لانني الآن استطيع ان انظر الى اولادي من دون ان يعرفوني اهلح . واخيراً استطيع ان احبهم حباً يكملهُ التأكد من سلامتهم » . وتلا ذلك مناقشات في مجلس الشيوخ ولجانه فاضطر بريان الكسول المترخي ان يقضي ٣٦ ساعة من دون انقطاع تقريباً ، يدافع عن نفسه . وفي صباح احد الايام ، اذ علم ان ثمة محاولة لقلب وزارته اعتلى المنبر ، وقال : « لم انظر في حياتي نظرة الجزع الى ذلك الباب . اما اليوم فاني اتمسك بالسلطة بكل قواي . فاذا خذلتوني اليوم انزلتم بالبلاد كارثة » . فكان في صوته رنة رسول . وابرم المجلسان الاتفاق فلما آن الاوان لانتظام المانيا في سلك جمعية الامم سنة ١٩٢٦ ظهرت في الصحف الوطنية الفرنسية مقالات كلها تهديد ووعيد لبريان . واذا كان نائماً في عربة القطار الذي اقله الى جنيف ، حدث اصطدام فتكسر زجاج نافذة ، فظن الناس ان مجرماً يحاول اغتيال الرئيس ، ولكن القطار لم يقف ، وفي الصباح التالي ثبت ان بعض تمضبان الحديد الناتئة من عربة شحن صدمت القطار وكسرت الزجاج . كل راكبي القطار خرجوا في ملابس نومهم مذعورين يسألون

ما الخبر الا بريان ، فانه لما وصل الى جنيف سأل عما حدث بالامس . ذلك انه كان ذاهباً لتأدية رسالة خير لا يخشى فيها خوفاً ولا لوماً . وبعد بضعة ايام ، وقف على منبر جمعية الامم في جنيف وخطب قائلاً : « لقد قضينا على الحرب بيننا ونزعنا الوشاحات السود وازلنا بواعث الامم . ولن نسمح بعد اليوم بان يكون سفك الدماء حاكماً فاصلاً في ما نختلف عليه . لنا الآن قاض يحكم بالعدل . ابعدوا المدافع . افسحوا المجال للتفاهم والتحكيم والسلام »

وبعد بضعة ايام تناول بريان وشرترزمان طعام الافطار في بلدة «نواري» على مقربة من جنيف فكانت كلمات بريان الساذجة وأخلاصة الجهم لقضية السلام سبباً لنزول هذا الاجتماع البسيط بين الاجتماعات السياسية الخطيرة في تاريخ اوربا بعد الحرب . هنا اجتمع رجالان سياسيان من امتين متعاديتين ، فجعلتا يتحدثان كأنهما شاعران ملهمان محلقان فوق الغيوم ، يحاولان ان يقتنعا بان حسن النية وصفائها يذللان كل العقبات . ومن الغريب ان ترى رجلين كبريان وشرترزمان يختلفان نشأة وطبعاً اختلافهما مظهرأ ووطناً ، يستطيعان ان يصلا الى تفاهم ما - وهو ما كان يحسب مستحيلاً . ولكن خيالهما حول كلا منهما من سياسي عادي ورفعهما الى مستوى رجال السياسة البناءة . فسرت ، على أثر اجتماعهما ، هزة في شعوب ، اوربا ، اذ تبينت شعاعة من النور يبعثها في نفوس الناس ، خيال رجل فرد

بعيد ذلك عقد مؤتمر لمشو هي رجال الحرب فاجتمع مندوبون من كل الامم في جنيف وقاموا بمظاهرة سامية دعاية للسلام ، فاقرب رجل اعمى واكتع من بريان وخاطبه قائلاً . « ياسيدي . لا تقف عند حد في عملك . ان اربعة ملايين من الرجال بكم لا يستطيعون الكلام . وانا هنا واقف اتكلم باسمهم . امض في عملك ياسيدي » . ولما سمعت بريان يروي هذه القصة ، رأيت الذكرى تبسط القتام على وجهه ثم تلاأت عيناه بشراً وطفح وجهه بالنور وليس هنا مجال البحث في «عهد كيلوغ بريان» ومشروع «الولايات المتحدة الاوربية» وانما يزيد ان نقول ان بريان كان السياسي الاوربي الاول في المائة سنة الماضية الذي تجرأ وهو في منصب رسمي ان يقول ما فاه به من منبر جمعية الامم في خريف سنة ١٩٣٠ «ما زلت احمل تبعه شؤون بلادي ففرنسا لن تشهر حرباً» . فقامت عليه قيامة الصحف الوطنية المتطرفة تحاول خذله في مجلس النواب ولكن قوله هذا في نظري اشبه شيء بكرة من درر «مرقص اوريليوس» الامبراطور الفيلسوف هل اراد بريان ان يكون رئيساً للجمهورية ؟ لما اشار عليه بعض اصدقائه بترشيح نفسه لا انتخاب الرأسة ، اعترضت ، طائفة كبيرة من احرار الفرنسيين لان فرنسا لم تنتخب للرأسة في خلال الستين سنة السابقة رجلاً سياسياً من الطبقة الاولى . اما الرئيس برييه - وهو من اقدر الرؤساء الذين تولوا المنصب في تلك الفترة - فتخلى عن المنصب قبل انتهاء المدة . واما بوانكاره فقال لدى خروجه من الاليزه « لقد اضعت سبع سنوات » . لذلك لم يشأ الفرنسيون

ان يروا بريان السياسي العامل منزوياً في الاليزه معتزلاً السياسة السلمية المقترنة باسمه ولكنه بعد ما رفض ان يتقدم لانتخاب الرأسة ، مال الى الاخذ بما سمعه من اصدقائه ، لما رأوا ما اعترى نفوذه من الضعف في مجلس النواب فظنوا ان سبع سنوات في مرفأ الرأسة الامين تحفظه من مخاطر العاصفة التي يندر بها الجو السياسي

ولم يخطر لاحد حينئذ ان يشك في امكان فوزه . لم يكن اشهر الفرنسيين واحبهم الى الناس . لم يشعر في مساعيه السلمية بأن الامة تؤيده من اقصاها الى اقصاها ؟ ماذا يستطيع محترفو السياسة ان يفعلوا في وجه تأييد كهذا التأييد ؟ لذلك اقتنع بريان بقول المريدن ولم تأخذه ريبة ما في انتخابه . ومع شدة معرفته بالطبيعة البشرية ، وفهمه للتيارات السياسية في المجلس الفرنسي ، لم يدرك ان الغيرة منه كانت الباعث على ما وجّه إليه من الطعن والثلب في الصحف . ولا تنس ان الشعب الفرنسي لا ينتخب الرئيس ، بل النواب والشيوخ . وفي هذا يذكرنا بريان بيسمارك ، فان بسمارك لم يكن يعتقد قط ان امبراطوراً من اسرة هوهنزولرن كائناً من كان يبعده عن كرسي الحكم وقد قضى ثلاثين سنة في خدمة بلاده وامبراطوره فلما انتخب دومر بدا للناس الذين يقبون فرنسا كأن فرصة سانحة لخدمة قضية السلم قد

ضاعت . وكان فرنسا قد خذلت « رسل السلام » فيها

على ان بريان لم يستقيل من منصبه كوزير للخارجية على اثر ظهور نتيجة الانتخاب ، لانه كان ينوي ان يذهب الى جنيف ليقرّع الالمان ، اخذاً بالتأثر . لانه لو لم تعلن المانيا معاهدتها الجرمية مع النمسا قبيل انتخابات الرأسة الفرنسية لما تألب عليه اعداؤه هذا التألب . فاعلان هذه المعاهدة جاء خذلاً لسياسة السلام التي جرى عليها ودعا اليها . فذهب الى جنيف وقضى على تلك المعاهدة وعاد الى باريس عود الظافر لكي يستقيل من منصبه ، ثم يتقدم في الانتخابات التالية ويخرج منها لابساً اكليل النصر . كانت الامة الفرنسية تتوقع منه هذا ، فاتفق زعماء احزاب اليسار على الدائرة التي يتقدم فيها للانتخاب . ولكنه غير رأيه فجأة ، وبين مساء الجمعة ومساء الاحد قرر ان يبقى في وزارة الخارجية فما حدث ؟

ذلك انه قبل الانتخاب لرأسة الجمهورية جاء الشيخ دومر - وكان احد المرشحين للمنصب - الى صديقه القديم بريان ، وسأله صراحة ان ينبئه عن موقفه في الانتخاب ، فاذا عزم بريان ان يتقدم للانتخاب تنح عنه دومر . فأنبأه بريان بالحقيقة - وكان حينئذ مصمماً على رفض التقدم للانتخاب . فلما غير رأيه وضع صديقه في موقف حرج ، لم يلبث ان ازداد حرجه بعد فوز دومر وخذل بريان . على ان الرئيس الجديد ، استدعى وزير خارجيته ، ومن دون ان يشير الى حديثهما السابق قال له « والآن يجب ألا تتخلي عني » . فقبل بريان ذلك مرغماً لان قبوله هذا عني الاشتراك مع أعد خصومه في وزارة يرأسها لافال وكيل وزارته سابقاً

الأخطل الصغير

أو بشاره الخوري صاحب « البرق » البيروتية

لمحمود أبو الوفا

كانوا يطلقون على ابن هاني الأندلسي أنه متنبئ الغرب . فهل يؤذن لي الآن أن اطلق على الأخطل الصغير أنه شوقي لبنان . قال بعضهم لولده أي عظيم تريد أن تكونه يا بني . فقال الولد أريد أن أكون مثلك . قال الوالد لقد كنت في مثل سنك هذه يا بني أطلب أن أكون مثل علي بن أبي طالب . وها هو الفرق بيني وبين ابن أبي طالب على ما تراه . فهل تحب أن يكون الفرق بينك وبينني بمقدار ما بيني وبين ابن أبي طالب

وعلى هذا القياس فإذا عسى أن يكون المثل الأعلى للأخطل الصغير . لاشك أنه كان عظيماً جداً ولكنني أرجو أن لا أجانف الصواب إذا قلت أن المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن سوى الأخطل الكبير فإن هذا هو الرجل الذي يقال فيه « بحق » هو الشاعر من فرعه إلى قدمه « وحسبك بشاعر نصراني ، يدعونه شاعر بني أمية في زمن معاوية أعني في صدر الاسلام ثم حسبك منه بشاعر يشير لنا أبو العلاء المعري إلى مكانته في الشعر وانت تعرف من هو أبو العلاء في نقد الشعر والبصر به فيقول المعري (أن السادات كانت تطرب على قوله)

أناخوا جروا شاصيات ^(١) كأنها رجال من السودان لم يتسربلو

فصبّوا عُقاراً في الاناء كأنها اذا لمحوها جذوة تتأكل

تدب ديباً في العظام كأنه ديب نمل في نقا يتهيل

أزعم واثقاً أنني أدنى إلى الحق أن المثل الأعلى للأخطل الصغير لم يكن الا هذا الروح الشعري العالي الذي أعجب به السادات من أمية حتى طربوا له وشربوا عليه وأؤكد أنه لو لم يكن للأخطل الصغير هذا المثل الأعلى لما استقر شعره على هذا الاسلوب النادر في هذا العصر الذي اذا شكى منه الادب فلن تكون شكاته الا ضعف الاساليب فيه . . . ان للإستاذ الخوري اسلوباً شعرياً متفرداً بين اساليب الشعراء اللبنانيين تفرّد اسلوب شوقي بين الشعراء

المصريين فكلا الشاعرين في بيئته نسيج وحده كما يقولون . وكلاهما في جيله يمثل طبقة قائمة بذاتها فأنت حين تنظر الى شعره تراه كأنه يتهادى الى الاسماع في موكب من الابهة والرونق والجمال فلا تملك نفسك دون التشبع منه والتوجه اليه ، وان كنت رأيت مثل هذا الموكب كثيراً ، وكثيراً جداً . ولا اظن الاستدلال على قرب هذين الشاعرين احدهما من الآخر يكلفك اكثر من الاطلاع على هذين النموذجين

قال شوقي بك في رثاء الزعيم زغلول باشا

كفنوا الشمس ومالوا بضحاها وانثى الصبح عليها فبكاها

وقال الاخطل الصغير في رثاء الزعيم فوزي الغزي

كفنوا الشمس بريحان وورس يا لشمس آذنت من عبد شمس

فأنت ترى كيف يتواطأ استهلال الشاعرين في رثاء الزعيمين السياسيين فيستعملان الفاظاً واحدة ويذهبان في افق واحد تقريباً . كذلك يقول الاخطل الصغير في رثائه المؤثر البليغ لعبطة البطيريك الكبير ماري الياس الحويك

جبريل عند رتاجه متواضع ويسوع حول سريره يتهادى

ويقول شوقي بك في بعض مطالعه — جبريل هلل في السماء وكبر —

ويقول ايضاً في موكب استقبال ام الحسين

واتركي فضل زماميه لنا تتناوب نحن والروح الامين

وهكذا تجد الكثير من شعر هذين الشاعرين متفقاً في الفاظه واستعاراته وتشبيهاته توافقاً خليقاً ان يعقد له فصل قائم بذاته . صحيح ان بعض المتقدمين من النقاد كانوا يسمون هذا النوع من التوافق بين الشعراء (اخذاً) ويقصدون ان اللاحق اخذه من السابق وكانوا يرونه نوعاً من المحاكاة والتقليد وربما غالى بعضهم فسماء سرقة ولكن التحقيق انه ليس كذلك فان الشاعر الذي يأخذ من غيره تقليداً او محاكاة ، لا يكون معتدلاً (بنفسه) يعني ان ثقته بنفسه ان لم تكن معدومة البتة فانها تكون ضعيفة . ولكن هذا الاخطل الصغير يربنا انه يثق بنفسه ثقة لا حد لها فهو يقول في رثائه للبطيريك

او حيد امته تقى وهداية هلا سمعت وحيدها انشادا

خلعت قصائده عليك عيونها وحببتك من ورق الخلود وسادا

بل ان الاخطل هنا في هذا المعنى اكثر من شوقي ذهاباً بنفسه واعتداداً بنفسه فقد اكتفى شوقي حين قرر هذا المعنى ان يجعل شعره درجات للخالدين فقط فقال لام الحسين

لا ترومي غير شعري موكباً ان شعري درجات الخالدين

اما صاحبنا الاخطل الصغير فقد ابى الا ان يجعل شعره هو المتصرف في هذا الخلود محبوب

به من يشاء . ولعله يمنعه من يشاء ايضاً . ولا شك ان شاعراً يعتد بشعره كل هذا الاعتداد
ويزهون بنفسه هذا الزهو لا يعقل ان يكون آخذاً من غيره ولا مقلداً له لان المقلد من اضعف
الناس امام نفسه ولولا ذلك ما استعار قوة غيره . وبرهان آخر يجب الآن ان يذكر هو ان المقلد
الذي يأخذ معاني غيره محاكاة لا يمكن ان يكون اكثر من ناظم ويستحيل ان يكون
شاعراً بالمعنى الصحيح لكلمة شاعر . لان من المستحيل على مقلد ان يفهم الشعر الا على انه
هو الكلام المنظوم المقفى كما هو تعريفه في الكتب المدرسية الى الآن . ولكن الاخطل
الصغير يعرفنا الشعر اعظم تعريف يطمئن اليه الشعراء الصادقون فهو يقول في قصيدته (عمر ونعم)

والشعر روح الله في شاعره ذلك يوحيه وهذا ينشر
الحكمة الغراء من اسمائه وعدن من اوطانه وعبقور
له على الآفاق فتح زاهر وفي عباب الماء فتح ازهر
يمضيها منه خيال مارد ابو الفتوحات الذي لا يقهر

تعاق العلم على اسبابه خلق الطود وفاق الحجر
واذن فوقع شاعر مثل الاخطل الصغير على الفاظ ومعاني شاعر سائر الشعر جواً
القافية مثل شوقي بك لا يصح ولا يعقل ان يدخل في باب (الآخذ والمأخوذ) كما انه لا يصح
ان يسمى ذلك تقليداً ومحاكاة . وانما هذه مسألة راجعة فيما اعتقد انا الى توافق الشاعرية
في هذين الشاعرين . لكن الذي يجب ان يفهم على وجهه الصحيح ايضاً هو ان هاتين الشاعريتين
المتوافقتين لا يلزم ان تكونا متساويتين الا في الاسلوب وما يتعلق بالاسلوب من الاستعارات
والالفاظ . اما الانتاج الشعري وما يتعلق به من الصور الشعرية والمذاهب الفنية وما الى
ذلك من جميع مواهب الشاعر فلا يلزم ان تتفقا لان الشاعرية شيء والشعر شيء آخر
وكثيراً ما نجد الاراضي الزراعية تكون متفقة مع اختها في المعدن تمام الاتفاق ولكن
محصول هذه غير محصول تلك لذلك قد يكون الشاعر متفقاً مع الآخر في المزاج الشعري
— الشاعرية — ولكن لكل منهما فنه في الشعر بل قد يكون لكل منهما في الشعر والحياة
مذهب يخالف مذهب صاحبه . فهذا ابو الطيب المتنبي قد اشتهر بالحكمة حتى كان النقاد
المتقدمون يخصونه بالحكمة ويخصون البحري بالشعر فيقولون الحكيم هو المتنبي والشاعر هو
البحري . وكان ابن هاني الاندلسي لم يشتهر الا بالاغراق ومع ذلك فان هذين الاثنين
كانا متفقين في الشاعرية باجماع النقاد المتقدمين تقريباً . ولهذا التوافق في الشاعرية لا لغيره
كان هؤلاء النقاد يطلقون على ابن هاني لقب متنبي الغرب . فالمسألة ليست هي الشاعرية وحسب
وليس نخر الشاعر ان يكون متفقاً في سمو الشاعرية مع اعظم شاعر ظهر على وجه الارض

فان الشاعرية لا تزيد في نظر الناقد عن كونها احدى الملكات الموهوبة التي قد يحسن صاحبها في استعمالها وقد يسيء . وانما نخر الشاعر الحقيقي هو فيما يكشفه للناس من الجوانب الخافية في الحياة . والناقد المنصف البصير هو الذي لا يطل على الشاعر الا من جهة مذهبه الشعري الاصلاحى ليعرف الى اي جهة يريد ان يسوق الحياة بمحذاته أو غنائه وفي اي جهة يريد ان يتجه بها فان لم يكن للشاعر مذهب يدعو له ولا مثل اعلى يرمى اليه فان شعره لا يكون جديراً بالنقد بل هو في مذهبي لا يكون جديراً بان يعد في الشعراء الخالدين

والآن فنحن اذا سلطنا هذا المنظار الدقيق على شعر الاختل الصغير فكيف نجده — اني هنا افضل ان اعطي الكلمة للاستاذ ميشال ذكور قال :

« الاختل الصغير او بشاره الخوري مسميان لشخص واحد هو صاحب البرق الذي لا يجاريه شاعر عربي آخر في لبنان وسوريا بخياله وعذوبة الفاظه ورقة معانيه لانه لا ينظم الا مذبذباً شيئاً من روحه الحساسة . . . » والحق ان كلام صاحب المعرض الغراء كله حق فانك تقر شعر الاختل فتجد فيه ديباجة هي اشبه بديباجة شعر شوقي كما اسلفت القول كما تجد فيه روحاً وجدانية تترقق كما تترقق المياه الصافية بين الاعشاب والصخور فاذا انت من هذا المزيج الشعري امام شاعر لا هو في الشعراء الصناعيين ولا هو من الشعراء الوجدانيين ولكنه يرضي الوجدانيين والنفسيين واصحاب العواطف والاحساسات المشبوبة بمقدار كما يستطيع ان يرضي الديباجيين من اصحاب الصناعة والفن . وبعبارة اكثر صراحة تقرر ان الاختل الصغير لم يضرب على قيثارة فوزي المعلوف ولا على مزهر القروي ولا على الحان جبران ولكنه سبج في مسابح مطران وايليا وامثال هؤلاء من الشعراء اللبنانيين المتمصرين ولا شك انه وفق في مذهبه الفني كل التوفيق وان التاريخ عندما يظهر كلمته النهائية في هؤلاء الشعراء الذين حملوا الوية تجديد الشعر العربي لسوف يضع اسمه في طليعتهم اما مذهبه الاصلاحى وصوره الشعرية فليس ادل عليه من هذه المناحي التي قصد اليها في قصائده الثلاث الريال المزيف التي يقول فيها : —

ويح الفقير فما تراه يلاقي سدت عليه منافذ الارزاق

علق المجاعة مصر بعض دمائها وتعسف الحكام مصر الباقي

وقصيدته التي جعل عنوانها «من مآسي الحرب الكبرى» وهي التي يلخص لك غرضه من موضوعها في قوله يدعو الله عساه أن يستجيب له

واخلق الانسان خلقاً راقياً واقتل البغض به والكبرياء
 واجعل الحب الهماً ثانياً واسجن المال ولا تنس الرياء
 وليكن كل امتياز لاغياً يخرج الناس على حد سواء
 ويقول منها ايضاً
 مَنْ تَرى يشرح لي ذنب الفقير او ترى يظهر لي فضل الغني

.....

افهذي حكمة الله القدير لا . وجل الله عن ذا الغبن

.....

انما هذان مثل البذرتين بذرا في الارض حتى انبتا
 فكسا المقدور تين النبتتين هذه قبحا وهذي رونقا
 وايضاً قصيدة عروة وغفراء ، التي نلخص لك موضوع مأساتها في قوله
 بينا الفتى في الشام يكدح للغنى كانت حبيبته تزف لثان
 فتنت محاسنها «اثالة» وهو من «هُصَر» له سيبان ملتزمان
 نسب الدماء وفوقه نسب الغنى نسبان محبوبان محترمان
 فأثاله غفراء صفقة تاجر حسب البنات ملاساً وأواني
 فانت ترى ان الشاعر في هذه القصائد الثلاث لا يحارب الا عدواً واحداً هو الفقر وهو
 في سبيل اجتذاب قرائه الى الوقوف في صفه والانتصار له على عدوه لا يفتأ يستعرض أمامهم
 مناظر الفقر في ابشع صورته وأفظع مآسيه مرة يعرض الفقر في صورة شاب عذري الهوى
 حرم من حبيبته وحرمت منه حبيبته لا شيء الا أنه فقير فتكون النتيجة موت الحبيين معاً
 (عروة وغفراء) ومرة اخرى يعرض لك هذا الفقير والغني يغالبه حتى يغلبه في صورة آلام
 الام الطاهرة العفيفة التي ذهبت هي وبنتها الطفلة البريئة ضحية «الريال المزيف» . ومرة ثالثة
 يريك كيف يستطيع الغني الفاسق الغشوم ان يعبت بدماء العذارى الفقيرات . وهكذا لا يزال
 بك حتى تؤمن معه ان الفقر هو عنصر القبح هو الظلام . هو الشر . هو العدو الوحيد الذي
 يجب أن يقاتل في هذه الحياة . ولا ريب أن هذه هي فطرة الشاعر الذي ينظر الى جواهر
 الاشياء لا الى الاشياء وحسب . نظرة الشاعر الذي يرجع شعره الى ما وراء الحواس . ولا
 ريب ان هذا هو الشاعر العظيم

صوِّجَ ديدة من الأدب العربي

بقلم الدكتور طه حسين

يذكر القراء المقالات التي نشرت في « المقتطف » بهذا العنوان في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ وقد عني صاحبها كامل كيلاني بجمعها وطبعها على حدة ونحن يسرنا ان نقدمها الى القراء بكلمة الدكتور طه حسين البليغة فيها : —

جميلة خصبة هذه الفكرة التي خطرت لصديقنا كامل كيلاني فأوحت إليه أن يتحدث — إلى الناس — فيما كان من تنافس وخصومة بين جماعة من العلماء والأدباء إبان العصر العباسي ، وفي مظهر بعينه من مظاهر هذا التنافس ، هو ما يسميه الناس « مناظرة » بين هؤلاء العلماء والأدباء جميلة خصبة هذه الفكرة لأنها تعرض — على جمهور المستنيرين — ألواناً من الحياة العقلية العربية ، ما كانوا ليلتفتوا إليها أو يفكروا فيها ، لأنها مطوية عنهم في ثنايا الكتب وبطون الاسفار وهي — على ذلك — زاهية جميلة قيمة ، فيها متعة للعقول وغذاء للقلوب وتقويم للأخلاق ، وفيها — بعد هذا كله — إحياء لتاريخ الحركة العقلية عند المسلمين في عصر من اجمل عصورهم وأزاهها ، وفيها — بعد هذا وذاك — جلاء لهذه المرأة الناصعة الصقيلة — مرآة التاريخ — التي تبين للعاصرين أنهم ما يزالون يشبهون الذين سبقوهم في انحاء كثيرة — من سيرتهم — يتصل بعضها بالتفكير ، ويتصل بعضها بالخلق ، ويتصل بعضها بطريقة الملازمة بين التفكير والخلق فالذين يقرأون ما عرضه المؤلف — من مظاهر الخصومة — بين الهمذاني والخوارزمي ، وبين الكسائي وسيبويه ، وبين المثني وأبي فراس وابن خالويه والحاتمي ، وبين أبي العلاء وداعي الدعاة — لا يرون هؤلاء الناس وحدثهم يختصمون ويتنافسون ، ويكيد بعضهم لبعض ، ويمكر بعضهم ببعض ، ويظلم بعضهم بعضاً ، ثم ينتصف التاريخ للمظلوم من الظالم ، ويثار للبري من اعتدى عليه ، ولكنهم يرون أنفسهم في حياتهم هذه التي يحيونها ، والتي يآتمر فيها بعضهم ببعض ، ويجني فيها بعضهم على بعض ، يتخذون إلى ذلك — من الوسائل والاسباب — ما كان يتخذه القدماء ويفكرون فيه على نحو ما كان يفكر القدماء ، ثم يظهرونه على نحو ما كان يظهره القدماء

فما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — همذاني يكيد للخوارزمي ويحكم الكيد ، وناس يخذلهم تملق المتملقين ولباقة اللبقيين وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — كسائي يستظهر على سيبويه بجاه أولي السلطان والبأس ، ويعتز عليه بالمأجورين والمستزقين

وما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم يتساقطون على قصور الملوك والامراء كما يتساقط الذباب ، فيكيدون فيها للعلماء والادباء والساسة وأهل الرأي ، ويبلغون — من ذلك — ما يريدون : كله أو بعضه

ثم ما زال فينا — والحمد لله على الخير والشر — قوم زعموا انهم يدعون إلى الخير ، ويصدون عن الشر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وهم — مع ذلك — يلقون الشباك ، ويمدّون الاشرار ، يصيدون بها المفكرين والباحثين كيداً لهم ، ونكايةً بهم ، وعدواناً عليهم

كل أولئك احياء بيننا ، نراهم — في كل يوم — ويشقى بهم كرام الناس — في كل يوم — وينقدهم الناقدون ، ويمقتهم الماقتون

ولكننا نراهم — في صورتهم الصحيحة المرذولة — حين نقرأ كتاب كامل كيلاني ، لانا نراهم — على بعد الزمن وانقطاع الاسباب — وقد ذهبت الاحقاد ، وماتت الضغائن فيهم . فهم — كما يراهم التاريخ — لا يثيرون هذه الحفيظة التي يثيرها المعاصرون ، وقد وصلت — بيننا وبينهم — صلات المنافع والمضار ، فكان بيننا وبينهم — التعاون والتنافس نعم ، ونحن نرى — في هذا الكتاب — ما لا نستطيع ان نراه الآن ، وما لم يستطع القدماء ان يروه ، وسيراه أبنائنا من بعدنا ، وهو حكم التاريخ للمحسن ، وقضاه على المسيء

قدمت — منذ أعوام — إلى الناس ، طبعة كامل كيلاني لرسالة الغفران ، بعد ان يسرها وقرّبها إلى المستثمرين الذين يريدون ان يتأدّبوا — دون ان يقفوا أنفسهم على العلم الخالص العسير وكنت سعيداً شديداً للاغتياب ، لأنني رأيت هذه العناية — بأوساط المثقفين — تعجب الناس ، وتبلغ منهم ما أراد صاحبها ، فتعلم الجاهل ، وتنبه الغافل ، وتثير نشاط الفاتر وقد راجت رسالة الغفران هذه — في مصر والشرق العربي — بل رأيت من المستشرقين في أوروبا من يرضى عنها . ويعجب بها ، لأن صاحبها كان متواضعاً ، لا يدعي لنفسه أكثر من أنه يبذل جهداً صادقاً لتقريب العلم إلى الذين قد لا يستطيعون أن يصلوا إليه وحدهم وعلى هذا النحو ، يسرني أن أقدم — إلى القراء — هذا الكتاب اليسير القصير القيم الخصب الممتع في وقت واحد

كان من الحق على كامل — حين عرض لهذه الناحية من البحث — أن يضطلع خصلتين لا بدّ منهما : الأولى ، أن يكون سهلاً سمحاً ، ويسيراً قريباً ، لا يكلف قارئه بحثاً ولكن يغريه بالبحث ، ولا يضطره إلى المراجعة ولكن يحجب إليه المراجعة

الثانية، أن يحرص على الانصاف، ويأخذ به نفسه أخذاً شديداً، فلا يظلم العلماء والأدباء، ولا يظلم القراء المحدثين فيفسد آراءهم في العلم والعلماء، والأدب والأدباء، لأنهم علينا حق الأمانة والصدق وإني لسعيد بأن أهدي — الى كامل — أصدق التهئة، لأنه وفق إلى الخصلة الأولى كل التوفيق. فلقد قرأت كتابه — حين كان ينشر فصولاً في المقتطف — ثم قرأته أمس، فلما بدأت القراءة لم أدعه حتى أتمته، لم ينلني سأم ولا ملل ولا فتور، لأن ما في الكتاب — من الحياة — والحركة وخفة الروح — خليف أن يستبقى نشاطك موفوراً، منذ تبدأ الكتاب إلى أن تتمه أما الخصلة الثانية، فقد تعودت مع أصدقائي جميعاً — ومع كامل خاصة — أن أكون صريحاً شديداً الصراحة، ولست أشك في أن الانصاف ظاهر في الكتاب، يحسه القراء، مهما تختلف طبقاتهم وتتفاوت حظوظهم من العلم، ولكن في الكتاب شيئاً لا أدري ما هو — يشعرون بأن شخصية المؤلف لم تستطع أن تستر كل الاستتار، بل أظهرت كثيراً من عواطفها وميوها، وكأنها تريد — ولو في استحياء — أن تفرض علينا هذه العواطف والميول

* * *

أظنني عرفت هذا الشيء، ففي كامل شباب شديد النشاط لا يخلو من حدة وعنف، فهو — اذا اقتنع — لم يقتنع بعقله وحده، وإنما اقتنع بعقله وقلبه وشعوره، وفيه كرم يتجاوز به الانصاف إلى الاسراف في الانصاف، فهو لا يكتفي بأن ينصف المظلوم — بالحكم له — بل يريد أن يعاقب الظالم بالاسراف عليه وتشديد النكير

وما أرى أن الكسائي يستحق منه هذه الشدة المسرفة في القسوة، فكان الكسائي — من الرواية والقراءة والنحو — يفرض علينا أن نكبره ونعرف له فضله

ومهما يجمع المجمعون على أن القول ما قال سيبويه، فاني أحب ألا ننسى أن مذهب سيبويه واصحابه — في النحو — كان مذهب قياس وتعليل وأن مذهب الكسائي واصحابه كان مذهب سماع وتقليد للعرب، وأن لكل من المذهبين خطره وقيمه

كذلك كنت أحب أن يرفق كامل بالحاتمي — كما رفق بابن خالويه — فكلالهما أسرف على المتنبي، ولكن كاملاً أتسم للنحوي وسخر من الاديب، ومع ذلك فهذا الاديب خليف أن نبسم له، لأنه صور لنا — في سذاجة تشبه الغفلة — نوعاً من حياة الادباء في القرن الرابع تستحق أن نقف عنده ونفكر فيه

* * *

أثارت قراءة هذا الكتاب في نفسي هذه الخواطر، وخواطر أخرى لا أجد — من الوقت — ما يسمح بآبائها، وأحب الكتب — إلي — ما يثير في نفسي الخواطر، وينشطني للتفكير فليكن موقع هذا الكتاب — من نفوس القراء جميعاً — كوقعه من نفسي. إذن يكون كامل قد ظفر — من التوفيق — بما اراد، وبما هو اهل لأن يظفر به

بَابُ الزَّرَاعَةِ وَالْاِقْتِصَا

تقدير ايجار الاطيان

اضطربت علاقة الملاك والمستأجرين بعضهم ببعض منذ رخصت أثمان الحاصلات الزراعية خصوصاً القطن — ولما كان تقدير ما يساويه الفدان من الايجار مثار الخلاف والاضطراب رأيت ان اعرض خلاصة اختباراتي في هذا الموضوع رجاء ان يكون فيها ما ينير السبيل لتقدير ايجار الاطيان تقديراً عادلاً مرتكزاً على قواعد معينة

(١) — التقدير على اساس الضريبة وظروف تقديرها والظروف الحالية

في سنة ١٨٩٥ شكلت الحكومة لجاناً من اعيان الزراع والموظفين تحت رئاسة السير وليم ولكوكس لتقدير ايجارات الاطيان توطئة لتعديل الضرائب على مقتضاها قامت هذه اللجان عملها سنة ١٨٩٦ وكانت أعلى قيمة قدرتها لاختص فدان ٥٧٥ قرشاً واقصى ضريبة ضربتها عليه ١٦٤ قرشاً تساوي ٢٨٦٦٤٪ من الايجار المقدر ثم يقل تقدير الايجار والضريبة تبعاً لدرجات الاطيان نزولاً بمقدار ٢٥ قرشاً من الايجار و٧ قروش من الضريبة في كل درجة الى ان تصير أدنى قيمة لادنى درجة ٥٠ قرشاً ايجاراً و١٤ قرشاً ضريبة

في ذلك الحين كان متوسط ثمن القنطار من القطن ٢٢٤ قرشاً في سنة ١٨٩٥ و ٢٠٢ في سنة ١٨٩٦ وكان يعتبر عند رجال الاقتصاد الزراعي ان ثمن الفدان يساوي قيمة ضريبته ٥٠ ضعفاً او قيمة صافي ايجاره اي بعد خصم الضريبة ٢٠ ضعفاً وان ربح ٥٪ منه ربح حسن — ولكن بعد ان تحسنت وسائل الري والصرف والمواصلات والامن وتوزيع الضرائب وما اشبه مع ترقى الاحوال الاقتصادية عامة — زاد اليسر والرخاء وخصب الارض ومنتجاتها زيادة كبيرة فصار ثمن الفدان يقدر بقيمة ضريبته ٧٠ ضعفاً فاكثروا وبصافي الربح من ١٥ ضعفاً وصار هذا الربح لا يقل عن ٦٪ الى ٧٪ من ثمنه الزائد — واستمر التحسين في اثمان الحاصلات خصوصاً القطن ولا سيما في اثناء الحرب العالمية فاستمر ريع الارض وقيمتها في الارتفاع الى ان طفر ثمن القطن حتى بلغ ثمن القنطار بضعة واربعين جنياً وبيعت بعض الاطيان الزراعية بـ ٥٠٠

جنيه الفدان وبلغ إيجاره ٢٠ - ٤٠ جنيهاً ثم عادت الأثمان الى اقل مما كانت عليه اثناء الحرب وصار متوسط الايجار للارض الخصبية بمصلحة الاملاك الاميرية ١٦ جنيهاً ونصف جنيه الفدان في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٢٨ حيث كان متوسط ثمن قنطار القطن ٥٥٠ قرشاً بعد ان كان الايجار ٩ جنيهات ونصف ومتوسط ثمن القنطار ٣٧٢ قرشاً في سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ جاء في مذكرة وكيل وزارة المالية عن سياسة الحكومة القطنية انه اذا كانت الايجارات في مصلحة الاملاك (قد زادت الى هذا الحد مع ما هناك من انظمة كفيلة بتلافي ارهاق المستأجرين فلها في الدوائر « الزراعة » الخاصة قد بلغت حداً ناء تحت عبئه المستأجرون - الى ان يقول - وقد ارتفعت الثمات في بعض الاحيان الى ضعف ما كانت عليه قبل الحرب واصبحت في البعض الآخر تزيد عن ٦٠٪ الى ٨٠٪ ولما كانت اسعار القطن اليوم (اكتوبر سنة ١٩٣٠) قد اصبحت في مستوى اسعار قبل الحرب بالنسبة للسكالا ريدس ودون تلك الاسعار بالنسبة للاشموني فقد أصبح من المتعين علاج مسألة الايجارات علاجاً يخفف تكاليف الانتاج ويرفع عن كاهل الفلاحين عبئاً اصبحت الاسعار الحالية لا تبرر احتمالها (اهـ . اما الآن ونحن نكتب هذه السطور فان ثمن القطن اقل بكثير عما كان عليه قبل الحرب اذ هو يتراوح بين ٩ - ١٠ ريالات او نحو جنيهين اي اقل مما كان عليه في اثناء تقدير الايجارات المشار اليه في فاتحة البحث

ان القطن كان (ولا يزال الى حد محدود) في مناطقه هو المعول عليه في تسديد الايجار او معظمه اما اثمان الجبوب فانها الآن - والعبرة بما يبيعها به الفلاح بيع المضطر لسداد جانب من الايجار في موسم انتاجها - اقل مما كانت عليه قبل الحرب واكثر قليلاً مما كانت عليه اثناء تعديل الضرائب . ولكن يقابل هذا ان اثمان الحاجيات الضرورية لمعيشة الفلاح وفلاحته قد زادت زيادة اكثر بكثير من زيادة ثمن الجبوب وهذه حقيقة يعرفها ويعانيها الملاك والمستأجرون معاً ان التحسين الذي طرأ على خصب الارض ومننتاجها بسبب الاصلاحات الآتفة الذكر وقدره مؤلف كتاب الاطيان والضرائب سنة ١٩٠٤ ب ٥٠٪ قال (تم تقدير الايجارات قبل ان تشرع الحكومة في تعميم اصلاحات الري العظيمة بانشاء الترع والمصارف والسكك الزراعية وغيرها وقبل ان تؤسس الشركات المالية والزراعية والتجارية في طول البلاد وعرضها ولم تكن قد انبعثت في القطر روح النهضة الزراعية العظيمة المشاهدة الآن مما كان سبباً لزيادة ايجارات الاطيان بما لا ينقص الى الآن عن ٥٠٪ مما كان عليه منذ عشر سنوات « اهـ في ذلك الوقت كان ثمن قنطار القطن من ٢٨٠ - ٣٠٠ قرش وكانت سياسة الحكومة أو بالاحرى سياسة اللورد كرومر المالية متجهة نحو تخفيض الضرائب وانقاص عددها وتخفيض الرسوم الاخرى كالتسجيل واجرة السكة الحديد ووفرة النقود والثقة المالية فكان اليسر والرخاء وتناسق اثمان ما يبيعه ونشتره معاً بخلاف ما صارت اليه وما لا تزال متجهة نحوه الحالة الآن - ولكن خصب

الارض وانتاجها - بصرف النظر عن الاثمان - يمكن ان تقدر زيادته الى الآن بـ ٤٠٪ في الارض المتوسطة و ٨٠٪ في الارض البحرية . فالارض المتوسطة التي تقدر ايجارها بـ ٣٥٠ قرشاً وضريبتها بـ ١٠٠ قرشاً يساوي ايجارها الآن (بفرض ان يكون ثمن القطن كما كان وقت التقدير ٢٢٤ قرشاً) ٥٠٠ قرش والارض البحرية التي قدر ايجارها بـ ٢٢٥ قرشاً وضريبتها بـ ٦٥ قرشاً يساوي ايجارها الآن ٤٠٠ قرش وهذا وذاك اذا لم تكن هناك ظروف خاصة ضد هذا التقدير كما سيحيى . اما الارض الجنوبية فسيبيلها سبيل الارض المتوسطة أو اقل خصوصاً في الجهات التي اثر فيها ارتفاع مستوى النز - الماء الارضي - عما كان عليه قبلاً لقصور مشروعات الصرف عن بلوغ شأو مشروعات الري حتى ان بعضها قد اصابه ضرر - فمشروعات الري والصرف تكافأت في غير الجهات الجنوبية . وقصرت وسائل الصرف فيها عما اقتضته زيادة مياه الري ولذلك (فان الارض الضعيفة جادت والارض الجيدة طبست) كما يقول المستر ولككس في كتاب الري المصري

ومما يلاحظ ايضاً ان هناك جهات زاد خصبها وعمرانها عن المستوى العام لامتياز ملائها وفلاحيتها بالعناية بها وبحسن التدبير والاستفادة بالظروف الحسنة كما ان هناك جهات اخرى على ضد ذلك من كل وجه فليس بقليل ان نشاهد مزرعتين متجاورتين واحداها استوفت شروط الخصب والماء ريثاً وصرفاً وعمراناً وفلاحة وحسن تدبير والاخرى دونها في كل ذلك ولهذا وذاك اثره في قيمة الارض وريعها

هذا وقد عادت البنوك العقارية الآن في تقدير قيمة الاطيان الى ما كان عليه الحال قبل بضع وثلاثين سنة فهذا بنك التسليف الزراعي قرر في قانونه ان ثمن الفدان لا يزيد عن مقدار ضريبتة ٥٠ ضعفاً وان قيمة ما يسلف عليه لا يزيد عن ٦٠٪ من الثمن وذلك بسبب رخص الحاصلات الزراعية وارتفاع اثمان المنتجات الصناعية التي يحتاج اليها الفلاح لمعيشته وفلاحته وحتى لا تسهل الاستدانة بمبالغ كبيرة تعود عاقبتها مريعة وهذه المراجعة يتجرعها الملاك الآن من عواقب الاستدانة السابقة ولولاها لكانت الازمة بينهم وبين مستأجري ارضهم وبين البنوك ايضاً اخف مما هي الآن كثيراً . ورحم الله الدكتور صروف فقد قال منذ بضعة عشر سنة في بحث له بعنوان الرخاء عام لولا الدين (ان الدين الذي سهلت البنوك سبيله للفلاحين سيكون سبباً لخرابهم) م ٣٧ ج ٧ من المقتطف

(٢) - التقدير على اساس ما تنتجه الارض ونصيب زارعها منه

جرى العرف الزراعي في الارض الرواتب الخصبية كأرض الجهات الجنوبية ان لا يقل نصيب الزارع عن ٤٠٪ من محصولها نظير فلاحته إياه من بدء تجهيز الارض للزراعة الى تخزين المحصول وقد اشرنا آنفاً الى ان البنوك العقارية تساف على الاطيان بما لا يزيد عن ٦٠٪

من ثمنها كأنها تراعي ان يكون ريع ان ٤٠ ٪ الباقية لمصاريف فلاحيتها فاذا كان ثمن ماينتجه الفدان من الزروع ١٠ جنيهات فلكلفة هذا الانتاج ٤ والباقي صافيه أو غلة الارض - اما في الارض الاقل خصباً كارض الجهات البحرية فان نصيب الفلاح ٥٠ ٪ من محصولها ويعبر عن هذا في العرف بـ (فدان يخدم فدان) فاذا كان ثمن زروع فدانين مثلاً ١٢ جنيهاً فلفلاحتهما ٦ والباقي ٦ صافي ريعها واذاً يكون ايجار الفدان ٣ جنيهات وانما زيد نصيب ازارع من هذه لقلة محصولها عن الارض الجنوبية قلة اكثر من فرق كلفة الفلاحة بين الارضين لان الارض البحرية اسهل رية وأقل قبولاً لكثرة التسميد والحرق والعزق وأكثر مرافق من الارض الجنوبية في مجاري الري والصرف والسكك ولذلك فان الفلاح الذي يمكنه فلاحه فدانين في هذه الجنوبية يمكنه فلاحه ثلاثة افدنة من تلك البحرية

ان الفلاح يستغنى عن كل محصول القطن ولذلك فانه حينما كان يزرع في نصف الارض كان يعتبر ان قيمة قطن الفدان الواحد يوفي ايجاره و ايجار الفدان الثاني الذي يزرع حبوباً وعلفاً للفلاح وماشيته انما كان ذلك مع ما اسلفنا انه في الجهات الجنوبية يكون نصيب الفلاح ٤٠ ٪ لان ثمن القطن كان اغلى نسبياً من الحبوب فكان ريع الفدان منه اكثر من ريع الفدان منها وقد كان الفلاح المحتهد يستغل من فدان القطن خصوصاً في المواسم الحسنة ما يزيد عن الايجار زيادة يختص بها بينا الفلاح المهمل في المواسم الرديئة تعجز غلة فدان القطن عن سداد الايجار فيضطر المالك لاخذ مايمكنه اخذه من فدان الحبوب على ما في ذلك من الصعوبة - اما حينما كانت تحدد زراعة القطن بأقل من النصف كما هو حاصل الآن فلا بد لاستيفاء الايجار من اخذ جانب من الحبوب وقد كثرت عن قبل

(٣) - التقدير واثمان الحاصلات

لكثرة تقلبات اثمان الحاصلات فانه عند الاتفاق على التأجير - اذا كانت الاسعار مرتفعة يخشى ان ترخص بعد فلا يستطيع المستأجر سداد الايجار واذا كانت رخيصة فمن المحتمل ان يزيد فيستفيد المستأجر وحده من الزيادة بينما في حالة الرخص وعجزه عن السداد تقع بعض الخسارة والتعب على المالك - ولما كان القطن هو المعول عليه في سداد الايجار او معظمه كما ابنا قبلاً وثمنه هو الاكثر عرضة للتقلب فيلاحظ في تقدير الايجار ان يكون على اساس السعر الرخيص فاذا غلا زاد الايجار ولذلك صورتان (الاولى) انه كلما غلا السعر ريالاً واحداً يزيد الايجار ٢ ٪ وبعبارة اخرى كلما زاد سعر قنطار القطن جنيهاً زاد الايجار ١٠ ٪ فاذا كان الاتفاق على ايجار الفدان ٥ جنيهات وثمان القنطار ٢٥٠ قرشاً وزاد الثمن الى ٣٠٠ قرش زيد الايجار ٥ ٪ وهكذا. (الثانية) انه اذا زاد ثمن القطن يكون نصف الزيادة للمالك بحساب ان

المزروع قطناً يعطي مقداراً من القناطير يقدر بحسب درجة خصبه فإذا جاءت الزيادة في الثمن عن المتفق عليه ٥٠ قرشاً وكان المقرر ان محصول الفدان اربعة قناطير فجملة ثمنها جنيهاً جنيه للمستأجر وجنيه للمالك علاوة على الايجار

وفي المزارع الواسعة التي يؤجر بعضها ويزرع البعض الآخر لحساب مالكيها يفضل المالك الخبير لمناسبة تحديد زراعة القطن في ٢٥ ٪ و ٣٠ ٪ حسب المناطق ان يزيد المستأجرون زراعة القطن الى الثلث او النصف ويقللها هو فيستفيد فائدتين الاولى سهولة الحصول على الايجار (وقد ذكرنا قبل ميزة القطن في ذلك) والثاني الاقلال من زراعة القطن الكثيرة الكلفة الآن عليه كثرة لا تبررها اثمائه . اما عند الفلاح الصغير فتقل الكلفة الى ادنى حد ممكن كما يعرف الخبيرون بطبيعة العمل في المزارع الكبيرة والمزارع الصغيرة وذكرنا ذلك في مقالاتنا استغلال الارض المنشورة في المقتطف منذ بضعة عشرة سنة

وهناك من يحسب للمحاصيل كلها اثماناً معينة يربط الايجار بحسبها وعلى المستأجر ان يورد للمالك مقداراً منها يوازي الايجار وعلى المالك ان يقبل

(٤) — مناطق الارض وانواع زروعها واسعارها

يراعى في الارض العالية الفائقة الخصب كأرض الجهات الجنوبية ان افضل ما يوجد فيها الحبوب ثم القطن فتأثير رخصه فيها اقل منه في غيرها لا سيما وان الضرائب الجمركية التي ضربتها الحكومة على واردات الحبوب الاجنبية وحالت دون كثرة ورودها — حفظت اثمان الحبوب في مستوى صار الآن اعلى نسبياً من ثمن القطن

وفي الجهات المتوسطة وهي الجهات التي تلي الجهات الجنوبية مثلاً ان افضل ما يوجد فيها القطن ثم الحبوب ولذلك حينما كان ثمن القطن اعلى نسبة من ثمن الحبوب كان ريعها اعلى نسبياً من غيرها وليست كذلك الحال الآن

وفي الجهات الشمالية ان افضل ما يوجد فيها القطن خصوصاً السكلاريدس وزروع المرعى واخيراً الحبوب وقد كانت خصوصاً اثناء الحرب العالمية لغلاء السكلاريدس الناتج منها حسنة الريع للغاية ويحسن الآن تربية مواشي اللبن والذبيح على زروع المرعى فيها واهمها البرسيم . والمناطق التي يصرح لها فيها بزراعة الارز يتحسن ريعها كثيراً بزراعتها لا سيما وانها تصير اصلح للزروع التي تليها

هذا وقد سبق ان بحثنا مسألة التأجير من نواحيها الاخرى منذ بضعة عشر سنة في

احمد الالفي

زراعي عملي

المقتطف

التعاون والاقتصاد الزراعي

لما رأينا ما للحركة التعاونية من الشأن الخطير في مصر وما ينتظر لها من عظيم الاثر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية العامة افردنا هذا الباب لنشر مقالات ورسائل عن كل ما يهم الجمعيات التعاونية واعضاءها وبساعد على نشر التعاون وتقديمه . وقلم التحرير ينتهز هذه الفرصة ليعرب عن ترحيبه بنشر ما يرسله اليه اعضاء الجمعيات التعاونية من رسائل واخبار . وخير الكلام ما قل ودل

التعريفية الجمركية او طلسم الرخاء المزيف

بقلم و. ل. كابتون — عن Cotton Trade Journal, International Edition, 1932

المقدمة والنقل الى العربية بقلم السيد احمد مراد البكري

انحصرت تركة الحرب العظمى في مقادير من الخامات والمنتجات لا قبل للعالم بتصرفها بدون احداث هزات عنيفة تداعت بسببها في كثير من الاحيان صروح اقتصادية في جميع بلاد العالم وكانت نواة لتلك الازمة العالمية التي لا تزال نعاني شدايدها ونقاسي من انواع عذابها ألواناً كثيرة — ففي كل بلد من بلاد العالم خيم ظلام الازمة وظهرت فيه اشباح العطلة وهبط مستوى المعيشة وفقدت الثقة في كل شيء حتى في المستقبل فالتجأ أولو الامر في معظم بلاد العالم الى نهج سياسة حماية الانتاج الاهلي برفع التعريفية الجمركية لمنع تدفق المنتجات الاجنبية الى داخل البلاد ومنافسة المنتجين الوطنيين في اسواقهم فقامت الحوائط الاقتصادية بين بلاد العالم ومنعت القوانين الاقتصادية من ان تفعل فعلها الطبيعي فتسبب عن ذلك رد فعل أشبه شيء بثورة بركانية لا تزال كل بلد من بلاد العالم هدفاً لقذائفها الملتهبة. وفي امريكا الآن كما هو الحال في البلدان الاخرى حزبان اقتصاديان أحدهما للتعريفية والاخر ضدها . ولما كانت مصر من بين البلاد التي تأثرت تجارة بعض منتجاتها كالقطن والبصل والبيض بما فرض عليها في امريكا من تعاريف باهظة ، فانه من البديهي ان يهمننا متابعة النضال القائم في تلك البلاد بين حزبي التعريفية . والمستر كليتون كاتب المقال الآتي من الحزب المضاد للتعريفية وهو شخصياً من كبار رجال المال والاعمال في تجارة القطن ، ولذلك فان آراءه واقتراحاته لها قيمتها العظيمة في بلاده دئب دعاة سياسة الحماية الاميركيون خلال سنين طويلة على التبشير بأنجيلهم على اساس ان تلك السياسة تؤدي الى رفع كل من الاجور ومستوى المعيشة فاصبح العالم أجمع يصدق ما يبشرون به. وقد كانت النتيجة اننا اصدرنا تعريفية جمركية في ربيع سنة ١٩٣٠ تعد أعلى تعريفية عرفها العالم في اوقات السلم ولم ننجل من فرض رسوم بلغت في بعض الاصناف ٩٠٪ حتى ان جملة الرسوم القيمة والعينية بلغت في بعض الاصناف ١٥٠٪ !! وفي اتباع هذه السياسة لم يثوبه لأي انتقاد يوجه الى حكمة هؤلاء الدعاة ولا لتحذيرات ما يربني على الالف من كبار علماء

الاقتصاد الاميركيين ، . ألم تكن تلك السياسة هي مصدر رخاء امريكا خلال سنوات عديدة ؟
 اما أقوال اصحاب المصارف الدولية بان سياسة تخفيض مستورداتنا لا بد وان ينشأ عنها
 صعوبات في تحصيل ديوننا الاوربية فضلاً عن انها لا بد وان تقضي على تجارتنا الخارجية
 فكان رد دعاة الحماية عليها ينحصر في ان تجارتنا الخارجية لا توازي الا ١٠٪ من جملة
 تجارتنا وعلى اننا لا بد ان نحافظ على ال ٩٠٪ ونترك ال ١٠٪ نحافظ على نفسها كينما شاءت. وان
 هؤلاء الماليين لا يدرون ما يقولون اذ ان باقي العالم في حاجة شديدة الى قطننا وقمحنا ومصنوعاتنا
 من سيارات وآلات الراديو وما كنات الخياطة والكتابة فهل هناك احد آخر يحسن صنع هذه
 الاشياء اكثر منا ؟ كما أن كلنا يعرف أن اوربا في حاجة الى شرائها منا وعليها ان تجد الطريقة التي
 تدفع بها ثمنها وعلى كل حال فاننا مصممون على ان لا نضيق حق العامل الاميركي بتشجيع العامل
 الاجنبي الاقل اجرة منه لتمكين بعض اصحاب المصارف الدولية من تحصيل ديونهم الاجنبية
 فضلاً عن ان العامل الاميركي لا يعنيه من أمر هذه الديون شيء . وهنا ينتهي كلامهم
 أما ما حدث بعد ذلك فلا حاجة الى ايراد تفصيلاته فان الحكاية المؤلمة معلومة لدى الجميع
 ولا تحتاج الى تكرار. فقد نقصت تجارتنا الخارجية المحققة بمقدار ٥٠٪ خلال التسعة الاشهر
 الاولى وذلك عما كانت عليه في المدة المقابلة من سنة ١٩٢٩ ، ونقصت صادراتنا وحدها بمقدار
 بليونين دولار (من غرائب الصدف أن هذا المقدار هو نفس العجز الذي ظهر في ميزانية الحكومة
 عن السنة المالية الحالية) وهذا القدر يساوي القيمة الكلية على أساس الاسعار الحالية للقطن
 والقمح والذرة والشعير والشوفان التي تنتجها امريكا مضافاً اليها بعض المحصولات التي تقل عنها شيئاً.
 وهنا لا نعجب اذا رأينا موظفي الحكومة يعملون على تخفيف وقع هذه النتيجة أمام الجمهور.
 وقد قيل لنا مراراً وتكراراً ان مستوى اجورنا العالي ليس الا نتيجة تعريفتنا وفي نظري أن حقيقة
 ذلك أن تعريفتنا هي نتيجة اجورنا العالية فقد كانت الاجور في الولايات المتحدة مرتفعة بكثير عنها
 في اوربا بمدة طويلة قبل ان يفكر في اول قانون للتعريفة اذ أن هذا القانون أصدر بصفة مؤقتة
 لتشجيع انشاء الصناعات في بلاد جديدة فلما دخل ضمن نظامنا السياسي أصبح عسيراً علينا إنزاعه
 اما فكرة النظر الى تجارة وارداتنا كتشجيع — لا ينطوي على شيء من الوطنية — للعامل الاجنبي
 مقابل العامل الاميركي ففكرة غريبة حقاً اذ ان الطريقة الوحيدة المجدية لدفع أثمان بضائعنا
 المصدرة هي استيراد بضائع بدلاً عنها فكان من باب المنطق اعتبار هذه الاخيرة ثمناً للبضائع
 الاميركية التي يصنعها العامل الاميركي ويصرفها في الخارج وهذا هو حقيقة الواقع . وقد قال
 مستر « البرت وجنس » رئيس مجلس ادارة بنك تشيس الوطني الآتي في صدد ذلك : — أنه
 مع صغر مقدار تجارتنا الخارجية المقدرة بـ ١٠٪ من جملة تجارتنا فانها لم تزل عظيمة حتى انه
 يتوقف عليها الفرق بين الرخاء والكساد ، فان كان من الممكن أن يمنع بواسطه التعريفة كل المستوردات

ما عدا تلك التي لا يمكننا انتاجها مثل البن والشاي والمطاط والحرير الخ . فانه لا مشاحة في أن قيمة صادراتنا يجب ان تساوي قيمة المستوردات فاذا زادت عنها واجهنا السؤال عن الطريقة التي سنحصل بها على فائدة الديون التي لنا — دع عنك أصول هذه الديون »

هذا وأنه من الصعب التوحيد بين نظرية التعريف الحالية ونشاط الشعب الأمريكي وعبريته واستقلاله ولا بد أن يكون المسئول عن بعث تلك السياسة الى الحياة هي الخرافة التي تقول بأهميتها الغير العادية لحياتنا الاقتصادية، تلك الخرافة التي لا تزال تُلَقَّن لنا من المهد الى اللحد وإذا كانت تعريفتنا قد نجحت في شيء فانهما نجحت في تركنا بدون أصدقاء بين أمم العالم وفي وضع كل محصول امريكي يراد تصريفه في الخارج تحت أشد الصعوبات والعراقيل ، وكانت سبباً في ايجاد صناعات طفيلية وجعلتنا ندفع ثمنين لكثير من الحاجات الضرورية ، تلك الحاجات التي كان يمكن لغيرنا انتاجها أحسن وأرخص منا وبذلك كان يمكننا اطلاق رؤوس أموالنا وعمالنا وبراعتنا في الادارة والتنظيم للعمل في تلك النواحي التي لا يضارعنا فيها أحد وقد دعت هذه السياسة كثيراً من الامم الى رفع تعاريفها على البضائع الاميركية ، وربما انتظمت انجلترا عن قريب في صفوف اصحاب التعاريف العالية تدفعها الى ذلك رغبتها في الدفاع عن نفسها بعد انضمام كل الدول العظمى الى سياسة الحماية تلك السياسة التي لا بد وأن تؤدي الى تصدير رؤوس الاموال للخارج فيزداد الانتاج في الخارج ويقل في امريكا فتدعو الحاجة الى قفل وترك مصانع كثيرة فيها . وان كل امريكي مهما كانت طبقته ليشعر بتأثير تلك السياسة الذي يتطرق الى جميع مرافق البلاد فيرفع تكاليف المواد الاولية ويجعلنا ندفع هذا الفرق في شكل مستوى عال لأجور السكة الحديد والضرائب وأجور المساكن وكل ذلك له تأثيره في الزراع والزراعة ، فكان الاخرى بالحكومة أن تعمل على انقاص أسعار تلك الحاصلات التي يستهلكها الزراع بدلاً من أن تعمل على رفع أسعار تلك الأشياء التي يبيعونها والتي برهنت التجارب على أنها أخفقت فيها وأخيراً لما كان الكل يعلم أن امريكا يمكنها ان تغلب العالم في الانتاج الواسع النطاق ولما كانت هناك أسواق عظيمة — جارة فتحها في افريقيا وجنوب امريكا وفي الهند والصين حيث يوجد الملايين من الناس الذين بدأوا يعرفون شيئاً عن معالم المدنية كالطرق الممهدة والسيارة والراديو الخ. — فان هناك ميداناً واسعاً تفتحهُ لنا مخيلتنا لتصرف ادوات السكك الحديدية ولاستعمال براعتنا الهندسية ورؤوس اموالنا الا أنه ليكون معلوماً أن مقدار حفظنا في هذه الاسواق يوازي القيمة التي تقبل دفعها في شكل بضائع فعلى ذلك يتعيّن علينا من الآن الاختيار بين تبوئنا مركزنا الطبيعي في مقدمة التجارة العالمية أو الانصراف الى تقوية الحائط الاقتصادي حول بلادنا هذا الحائط الذي تنزلق عليه تجارتنا الخارجية فتزيد تكاليف المعيشة ويهبط مستواها وتضعف حياتنا الاقتصادية في جميع نواحيها

مكتبة المقتطف

الرسائل الضائعة ورسائل أخرى

بقلم سامي الجريديني

طبع بمطبعة الهلال — صفحاته ١٠٨ قطع المقتطف — ثمنه ١٠ قروش

ليس باليسير على الكاتب الاوربي ان ينطق عن اهواء الاشخاص الشرقيين . وانه لصعب عسير على كاتب شرقي ان يرى من خلال النفس الغربية وان يستطيع الترجمة لأشخاص غربيين . تلك الصعوبة وذلك المرمى العسير المنال قد تحققا على يد الاستاذ سامي الجريديني . فقد وضع هذه الرسائل الضائعة على لسان فتاتين فرنسيتين احدهما تسكن باريس والأخرى تعيش في لندن . واستطاع ان يعرب عن افكارها . وأن يصور بعض شؤونهما وما يعرض لهما من التجارب والآراء في فهم وعطف كبير

استطاع المؤلف أن يرى وجهة نظر كل فتاة من هاتين الفتاتين . وان يستكتبها رسائل وآراء شائعة المنحى ، دقيقة الاسلوب ، فيها من البصر بالنفسيات ومعرفة الطبيعة البشرية ما يشهد للأستاذ الجريديني بالبراعة والمقدرة

ولو ان الأشخاص في هذه الرسائل ليس مما يقنع انقاريء او يعطيه وهم الحقيقة الصائب فأن الآراء والنظريات والملاحظات العميقة التي اجراها على سنتهم ، صادقة شديدة الصدق عميقة الغور . ولا احسب ان المؤلف قصد الى غير ذلك ولم يكن غرضه القصصي المعهود جرمين — سواء التي في لندن او في باريس — نموذج طيب للفتاة الفرنسية المهذبة وما يهيجس في ضميرها من أماني أو يحول في خاطرها من شتيت الآراء ومختلف الافكار والنظريات وخصلة أخرى في كتابة الاستاذ الجريديني لاحظناها أيضاً في كتابه خمسة في سيارة . هي أنه بارع الفكاهة ، شديد الأسر لا يكتب جملة ولا يخطط سطوراً الا كان دقيقاً فيما يقصد ، ينحت اسلوبه نحتاً فيخرج من تحت يديه اشبه بعمل البناء الماهر . فكلماته لا تزيد على معانيه بل ان معانيه ومقاصده تزدان بذلك القصد في التعبير الذي يكسب اسلوبه صرامة في جمال ، وليناً في شدة . والمؤلف من هذه الناحية « يعرف كيف يكتب » كما يقول « ارنولد » بنيت « عن بعض الكتاب الذين ينقدونهم

يزعم البعض ان مهنة المحاماة قد دفعت ببعض كبار كتابنا الى « المط » في التعبير وتراكم

الجلل الاعتراضية والشروح الاستدراكية وعدم التناسب ، وانتفاء صفات الاحكام والايجاز . وما على أولئك القائلين الا ان يقرأوا الاستاذ الجريديني حين يكتب في الأدب مع انه يحترف المحاماة . فانه اقام الحجة على ان المحامي الاديب يستطيع ان يكون فناناً « كلاسيكي » النهج ، ناصع التعبير ، واضح الذهن ، متشد القلم ، متين القلب !

« وكتاب الرسائل الضائعة » . يقرب في موضوعه من كتاب المؤلف الاول « خمسة في سيرة » . فهنا كهناك : تحليل دقيق للنفسيات . وملاحظات صائبة عن الأمم . ووصف جيد رائع وكتابة بادية الفكاهة والاحكام معاوية نور

سيد قريش

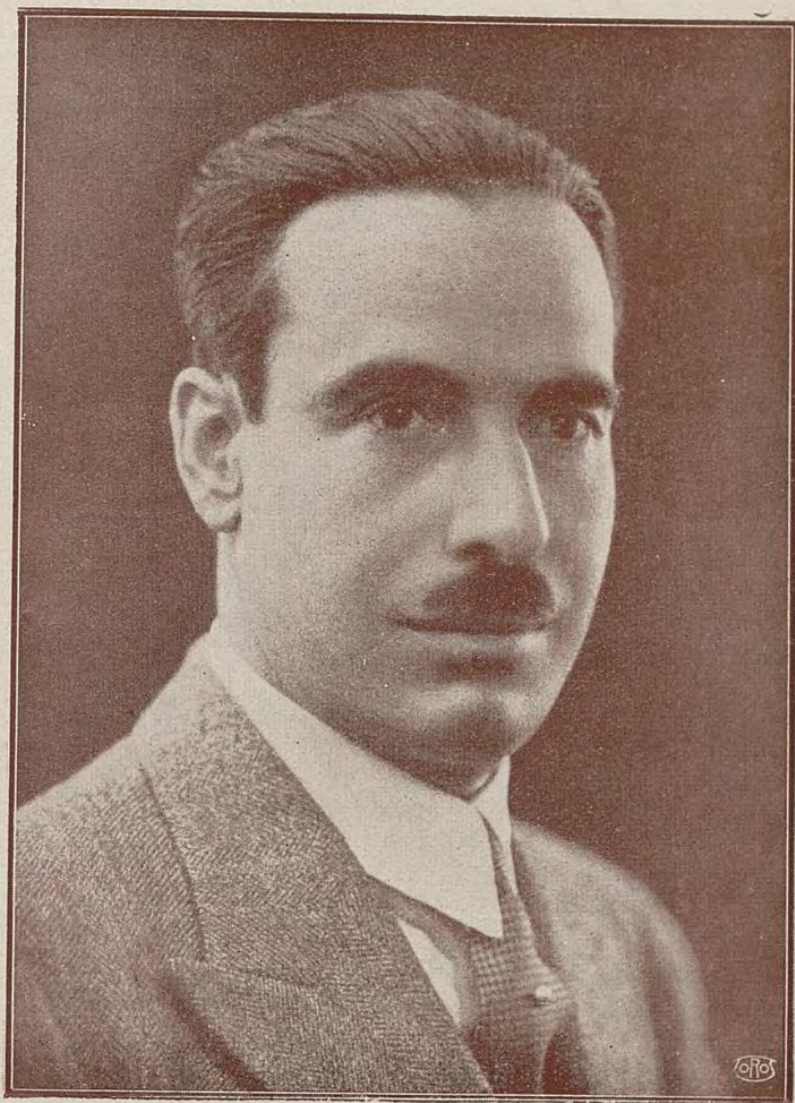
رواية تاريخية اجتماعية في ثلاثة اجزاء تبحث في حياة العرب السياسية والاجتماعية في العصر الجاهلي الى ظهور سيد قريش محمد عليه الصلاة والسلام — في ٩٦٧ صفحة حسنة الطبع والورق عقد الاستاذ رينهارت دوزي في كتابه « اسبانيا الاسلامية » عدة فصول ممتعة عن الخلافات التي قامت بين العصبية العربية بعد الاسلام واطهر باجلى بيان ان هذه الخلافات موروثه عن الجاهلية حملها العرب معهم اينما كانوا وحيثما حلوا ، بل لقد تدرك بطريق لاشعوري أن هذه المشاهدات كانت سبباً في تكوين احزاب سياسية او مدارس فقهية بعد الاسلام . ولقد قضى الاستاذ دوزي يجمع مواد كتابه هذا نيفاً وعشرين عاماً حتى دعمه على اوثق المصادر التي استطاع باحث مثله ان يقف عليها في مختلف دور الكتب الاوربية . فلا شك مطلقاً في أن ما كتب دوزي ان لم يكن كاملاً ، فهو اقرب ما يمكن من الكمال عقد هذا المؤلف فصله السادس في ذلك الكتاب في اليمنيين والمعديين وعدد بعد ذلك الاسباب التي كانت مثاراً للخلاف بين القبائل والانحاذ والبطون في كليهما ، وعقب على ذلك بالكلام في الخوارج والشيعة واثبت ان الخلاف بينهما يرجع الى مشادات موروثه ثم تكلم في الكلبيين والقيسين في اسبانيا واثبت ان الخلاف بينهما كان سبباً في سقوط الاسلام في الاندلس ولقد جرتني هذه الذكريات الى ما كتب السير وليم ميور في تاريخ محمد (صلعم) وعلى الاخص ما اشار اليه من الخلاف بين الهاشميين والامويين في الجاهلية والاسلام . ولا ريبه في ان الخلاف بينهما كان محوراً دار عليه تاريخ الاسلام قروناً عديدة

على انك اذا قرأت « سيد قريش » للاستاذ معروف الارناؤوط عضو المجمع العلمي العربي في دمشق لا تلبث ان تقع على تاريخ صحيح أسبغ عليه الاستاذ ثوب القصص ، بقدر ما يحتاج اليه التاريخ ليكون قصة تستهويك الى متابعة القراءة ، من غير ان تخلى ذهنك من الوقائع التاريخية . غير ان اين ما تستبينه عن هذا التاريخ القصصي البديع ، تلك الخلافات التي قامت بين المناذرة احلاف الفرس في العراق ، وبين الغساسنة احلاف الروم في سوريا . لان هذا الخلاف ليس الا

حلقة من حلقات كثيرة ظلت طوال ايام العرب تتواصل غير متدبرة ولا مفصومة على ان هذا كله لم يكن الا مقدمة لظهور محمد بن عبدالله ليربط بين كلمة العرب فتتحد وتلقى بكل قواها على امبراطوريتين مزقت احدهما المطامع وهي امبراطورية كسرى، وافسدت الثانية الروح اللاهوتية واحتكامها في سياسة الامم وتقرير مصائر الشعوب وهي امبراطورية بيزنطية . بيد ان العجب العجيب ليس في هذا . بل العجب في ان العرب بعد ان يدوخوا العالم كله ويفتحوا المعمور من الارض ، لا يلهيهم هذا النصر المبين عن خلافاتهم الموروثة ولا تؤثر فيهم معجزة القرآن الا الى حين ، فيعودون دراكا الى منافساتهم القديمة ، فتأكلهم وما حصدوا نيرانها المتلظية

ولم ينس الاستاذ مؤلف الرواية ان يذكر نابورقة بن نوفل وسطيح وبحيرا الراهب وعلاقة هؤلاء الثلاثة بتاريخ نشأة النبي العربي العظيم . اما سطيح فليس له من الاثر الا اثر التنبؤ بظهور نبي جديد بين العرب يجمع كلمتهم ويثأر للعرب من جيرانهم الفرس والروم . اما الاثر الذي تركه ورقة بن نوفل حكيم قريش وبحيرا راهب الشام ، فلا اظن انه ضئيل . والدليل على هذا مادي ثابت . فان كل الروايات التي ذكرت في القرآن عن عيسى او قل اهمها قد اخذت من الكتب التي اعتبرت الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة فالمعجزة التي رواها القرآن مثلا وفيها يتكلم عيسى عن نفسه بقوله « واني اصنع من الطين كهيأة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بأمر الله » ورواية النخلة عندما وضعت مريم عيسى فقال لها « وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا » — الى غير ذلك كلها مسطورة في الكتب المحذوفة . فالرواية الاولى تجدها في اول انجيل توما ، والثانية في اول انجيل متى المحذوف . وكلاهما اعتبر في الكنيسة الرومانية من الكتب المحذوفة . ولكن الواقع ان لهذه الكتب مدارس ايديتها في الشرق وعلى الاخص بعد انفصال اليعاقبة والنساطرة عن الكنيسة وانتشارهم في غرب آسيا وشمال جزيرة العرب وبهمم التعاليم التي خرجوا من اجلها على الكنيسة النصرانية . ولا يبعد مطلقا ان يكون ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب من رواة هذه الاحاديث . على ان الثابت تاريخيا ان ورقة بن نوفل كان من حكماء العرب ومن اعرفهم بتاريخ الاديان ومبادئها وانه من اقارب خديجة بنت خويلد اول زوجات النبي العربي وانه كان يساكنها ، وانه كان موضع سرها وموئلاها عند طلب النصيح والارشاد . بل كان ممن يسمع لهم في عكاظ وانه كان احد رجال الندوة المعروفين لاقريش وحدها بل في جزيرة العرب من شمالها الى جنوبها

وانت ان تصفحت تاريخ العرب يبادر الى ذهنك معنى الصحراء والجفوة والغلظة . فاذا قرأت سيد قريش وقفت على ما كان للعرب من ضلع في المدنية وعلى الاخص في العراق وفي الشام ، واستروحت شيئا جديدا يوقفك على ان العرب لم يكونوا بعيدين عن المدنية



توفيق مفرج
مؤلف كتاب «آلام واحلام»

باب مكتبة المقتطف

مقتطف يونيو ١٩٣٢

الآ بنشأتهم الاولى في جوف تلك الصحراء المترامية الاطراف وانهم كانوا على علم بما تأتي به المدنية من النظريات التي طمعوا فيها واستغلوها اوسع استغلال بعد ان جمعت كلمتهم على القرآن والرواية من اولها الى آخرها عبارة عن قصة منسجمة مؤلفة، ان نقصها من شيء فاضطراب في الاسلوب يكفر عنه جمال الوضع وتألف العناصر التي تكون هيكلها

ولقد مر بذاكرتي عند ما بدأت اقرأ هذه الرواية الممتعة كنهلورث وايقانوه وعروس لممرور لسير وولتر سكوت . فهذا احيا من تاريخ الايقوس في اشخاص فرسانهم ومؤلفنا العربي احيا من تاريخ العرب في اشخاص النعمان بن المنذر والحارث بن جبلة وابن الايهم وعنترة العبسي والمنذر بن الحارث وقابوس بن النعمان . ونحن لدى الواقع احوج ما نكون الى القصص التاريخي . فان مفاتيح اوربا كادت تخدمنا عن ميراثنا النبيل . ولا شك مطلقاً في ان هذا الميراث الخالد اول ما يحرك في النفوس النخوة القديمة ، وان فيها منها لبقية ، وان شئت فقل حشاشة تسوق بنفسها . فاذا فرخت هذه الحاجة مرة اخرى فلا اظن ان الغرب الا مطأى لها الرأس احتراماً

اسماعيل مظهر

آلام وأحلام

آلام وأحلام ... لفظتان شعريتان ، هما بحران من عالم الحياة تتقاذف فوق لجتيهما قلوب ويحويان من اسرار ذلك المعنى الكبير (الحياة) ما هو عميق لا يدرك فنظل واقفين امامه في شوق الى ادراكه لا نحول عنه رغم المحاولات الضائعة ، وما هو بسيط العمق يدرك لكنه ساحر يأخذنا في محيطه فنصبح اسراراً والغازاً

وآلام وأحلام ... هو كتاب ، او هو صورة مصغرة لهذه الحياة . هو كتاب الفن الذي تحف به الادب العربي الاستاذ توفيق مفرج فاذاه في جبين العربية درة تتألق ، درة لامعة في معانيه وألفاظه ، درة لامعة في اتقان طبعه وحسنه ، ولم ار في تاريخ الطباعة العربية سحراً يلمس الا في كتاب (شاعر في طيارة) لفقيد الادب المرحوم فوزي معلوف ، وكتاب « آلام وأحلام » الذي نتكلم عنه

هو مجموعة قصائد ومقالات من الشعر المنشور . او هو مجموعة من النغم السامي التقطها الاستاذ توفيق من سماء الالهام فأسمعها اهل الارض الذين يصك مسامعهم دوي الآلات ورنين الذهب ، وعويل المنازعات المختلفة ... نشرها في المقتطف والهلال وبعض المجلات العربية والانكليزية في موضوعات مختلفة مثل : مصر . الحب حتى الموت . عواطف ام . راسم . يحيا نعد . المثل الاعلى . على الارض السلام . على ضريح من احب . الى التي احب الخ فقطعته « مصر » التي اقترحت مجلة الجرافيك ، التي تصدر في لندن عليه ان ينظمها هي احرى بأن تلقى في مدارسنا لاطفالنا يحفظونها ككلمة عمرو بن العاص التي كتبها عن مصر فهي نشيد كلما

قرأته شعرت بعظمة تحملني على اجنحتها الى عوالم السموات التي عاش فيها اجدادنا وسنعيش فيها باذن الله كذلك تلك القطعة التي تحمل الفاظها روح الحنان الخالص الذي لا تشوبه شائبة ، والتي وسماها بعنوان « الحب حتى الموت » فصور فيها حنان الأم اجل تصوير حتى لم اكد اتم قراءة هذه الجملة التي تخاطب بها الام خيال الموت وهي تتبعه فداءً عن ولدها « سر ايها الخيال وأسرع فحياة الطفل رهينة الموت ، عجل لنصل الى ابواب الابدية قبل ان تطلب حياة الطفل من ملائكة سواك ، اسرع لكي تتمكن الأم من التضحية بنفسها فداءً عن ابنها » لم اكد اتم قراءتها وأنا الى جانب امي حتى اخذت يدها فغمرت بها بقبلات باردة انحدرت بعدها دمعتان من عيني تجلت لي من خلالهما تلك العظمة المقدسة التي جعلت المؤلف يهدي كتابه الى التي أحبها كثيراً ، الى امه

وظللت ألتهم بقية موضوعات الكتاب فكنت أشعر بلذة تغمرني وتحملني معها على اجنحة سحرية وأنا مأخوذ بسحرها ورقتها حتى اذا انتهيت أخذني سحر آخر ، وفتنة أخرى هي جمال الكتاب وما ازال اذكر تلك الوقفات الجميلة التي كنت اقفها عندما أتم موضوعاً كاني أمام جدول ماسي بديع يجري في وسط مروج خضراء تحت ظل الشفق الاحمر الفتان فأشكر الاستاذ مفرج على إتحافه عشاق الادب بهذه الباقية الجميلة ، واستحلفه بتلك التي يجبها كثيراً ان لا يدع المشاغل المالية تحرمانا من تحفه ، وان لا تنسيه قراءه الذين سينتهون من قراءة هذا الكتاب لينتظروا منه غيره وغيره

حسن كامل الصيرفي

وادي نظرون ورهبانه وادي رته

Etude sur le Wadi Natroun, ses Moines et ses Couvents
Alexandrie 1931

لصاحب السمو الامير عمر طوسن ولع بالدراسات والابحاث التاريخية والاجتماعية وخصوصاً ما يتعلق منها بتاريخ مصر فتراه لا ينفك عن معالجة المخطوطات والمؤلفات من قديمة وحديثة ليستوضح منها ما غمض من تاريخ البلاد أو ليوجه الانظار الى حقائق جديدة بالاعتبار . فبالامس اصدر كتابه عن مالية مصر من عهد الفراعنة الى الآن وهو ترجمة الكتاب الذي الفه سموه عن ذلك الموضوع باللغة الفرنسية وامامنا الآن بحث في « وادي نظرون » كتبه سموه بالفرنسية ايضاً ترى اذا ما قلبت صفحات هذه الرسالة ان البحث يقسم الى ثلاثة اقسام فالاول يتعلق بجغرافية وادي النظرون الواقع على بعد ثمانين كيلومتراً عن القاهرة من طرفه الجنوبي الشرقي وعلى بعد خمسة وثمانين كيلومتراً عن الاسكندرية من طرفه الشمالي الغربي . والقسم الثاني يتناول رهبان وادي نظرون قبل الفتح الاسلامي العربي وبعده . والثالث يبحث في اديرة وادي نظرون فيتناول الاديرة المختلفة ويروي اخبار مؤسسيها ويذكر التغيرات التي

طُرأت عليها في مختلف العصور فيبين لنا ان هنالك اربعة اديرة في ذلك الوادي في الوقت الحاضر وهي عامرة ومأهولة وحوها انقاض ثلاثين من الاديرة التي كانت عامرة في مختلف العصور المسيحية السالفة وانه ليعجبك في ابحاث سمو الامير الجليل تلك الدقة التي يجب ان ترافق كل بحث . فما تجده في كتاب مالية مصر من الرجوع الى المصادر الاصلية والاستناد الى اهم الثقات تراه في هذا البحث ايضاً . ولا يكتفي سموه بذلك بل تراه تارة ينتقد ما ورد في بعض تلك الاصول والمراجع واخرى يستعملها للاستدلال على حقائق جديدة وحسبك ان تقرأ صفحة ٣١ من رسالته هذه عن كيفية اكتشافه لدير الانبا زخريا بين انقاض تلك الاديرة لتحقيق ذلك او ان تقرأ عن انتقاده لما ورد في المقريري بان عدد الرهبان كان سبعين الفاً في ايام عمرو بن العاص ورجوعه الى ما رواه الذين عاشوا في القرن السادس واستنتاجه ان عدد الرهبان لم يكن اكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة بل اقل من ذلك

والرسالة محلاة بالصور الجلية الواضحة التي اخذها الدكتور بوي هويير في اثناء رحلتيين التي قام بهما صحبة سمو الامير والاستاذ بريتشيا في ربيع عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١ . ونحن اذا ابدينا اعجابنا بمؤلفات صاحب السمو الامير عمر طوسن وبالابحاث التي يحمل نفسه مشقة القيام بها فاننا نفعل ذلك باسم البحث والعلم والحقيقة

رام الله (فلسطين)

جورج حداد

كتاب الصحة والحياة

هذا كتاب مفيد . يجب ان يكون في كل بيت يتكلم اهل العربية ويقرأونها . وفائدته آتية من ناحية جمعه لاهم الحقائق عن بناء الجسم ، ووظيفة كل عضو من اعضائه ، وتضمنه الارشادات اللازمة التي يجب على كل انسان ان يجري عليها للمحافظة على سلامة الاعضاء . وهذه المباحث تستغرق من فصوله خمسة عشر فصلاً تملأ ١٠٦ صفحات . اما فصوله الباقية وهي ٢٣ فصلاً تملأ ١٧٤ صفحة فقد خصصت لوصف الامراض التي يكثر تفشيها ، واماطة اللثام عن اساليب المعيشة الصحية ، وما يلزم من العلاجات الضرورية التي تدفع بها غوائل هذه الامراض

مؤلف هذا الكتاب يدعى الدكتور سلمون (Selmon) ولا ندرى من هو ، وباية لغة الف كتابه اولاً ولكن ناشري الترجمة العربية يقولون انه صدر من نحو عشر سنوات فترجم الى عشرين لغة ولهجة مختلفة وذاع في الصين والهند واليابان وغيرها عدا ظهور خمس طبعات منه بالانكليزية . وانما الامر الذي يهمننا انه كتاب مفيد وان ترجمته متينة العبارة ، قريبة التناول ، وطبعه بالغ حداً بعيداً من الاتقان . فنسدي الشكر الى مترجمه « الزهرة » (اوليفيا عويضة) ولناشريه اعضاء « جمعية المطبوعات العربية ببيروت » ولطابعيه اصحاب مطبعة دار الايتام السورية في القدس الشريف

لبشر فارسي

رسالة باريس

تأليف المستشرقين

تهافت التهافت لابن رشد

(المطبعة الكاثوليكية ببيروت)

Tahafot at tahafot — Beyrouth (Imprimerie Catholique)

ليس حديثي هنا عن مذهب ابن رشد فكنا يعلم ان الرجل الف كتابه ليرد على الغزالي ويدفع اقواله في « تهافت الفلاسفة ». وكلنا يعلم انه نهج في ذلك منهجاً سديداً اذ جعل يقلب مصنف الغزالي ظهراً لبطن فتارةً يسلم بصحة فقرة من فقره وطوراً يطعن في اخرى معتمداً في ذلك على شدة عارضته راجعاً الى منطق القويم . وكتاب ابن رشد من اركان الحكمة العربية والدليل على ذلك ان الفرنجة اقبلوا عليه فنقلوه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن الثاني عشر على أن حديثي هنا عن كيفية ابراز هذا الكتاب . فاعلم ان الاب اليسوعي (بويج) عني بنشره وذهب في التثبت والاستقصاء الى الغاية . ذلك بأنه اعتمد على عشر نسخ مخطوطة بعضها عربي وبعضها عبري وبعضها لاتيني فعارض بينها جميعاً ليستخلص منها الصحيح وينبذ الفاسد والموضوع . فجاءت طبعته خيراً من طبعة مصر

ثم ان الناشر عمد الى الاسلوب الحديث الذي يعتمد اليه رجال دار الكتب في مصر فأشار الى النسخ في كل صفحة من صفحات الكتاب ليتدبر القارئ عمله . ثم انه ترك الكتاب على شكله ابتغاء المحافظة على الاصل فأبى أن يقسمه الى اقسام يجعل لكل منها عنواناً يهتدي به القارئ . غير انه جعل لكل فقرة رقماً ثم اثبت الرقم في أعلى الصفحة واذاف اليه مجمل الفقرة باللاتينية وكان جديراً به ان يردفه بترجمة له عربية ثم انه جعل في نهاية الكتاب فهرس تقرب منال فوائده : فهرست للاسئلة وآخر لنصوص الغزالي التي يتدبرها ابن رشد وآخر لاسماء الاعلام وآخر لعناوين التصانيف وآخر لفقهِ اللغة ثم فهرست للاصطلاحات الفلسفية . وكان حقيقاً بالاستاذ ان يثبت في هذا الفهرست ما يرادف تلك الاصطلاحات باللغة الفرنسية وليس ذلك بالمتعذر عليه

وختاماً في اخبرك وملء جوانحي الفرح أن الاستاذ بويج عاكف على ابراز اركان الحكمة العربية وهمه في ذلك الاستقصاء والتثبت . وعسى ان ينقلها الى الفرنسية فيطلع عليها طلاب

الفلسفة في الغرب ويفسحوا في تأليفهم وإبحاثهم مكاناً لحكمة العرب تلك الحكمة التي عول عليها خول المتكلمين الغربيين أيام العصور الوسطى مثل (دانس سكوت) Duns Scot ومارتوما St. Thomas d'Aquin وغيرهم

الشام في العصور الخوالي والعصور المتوسطة

La Syrie Antique et Médiévale Editions Geuthner, Paris.

ان الشام ظفرت بمظاهر المدينيات التي ما انفكت تقوم بالتتابع حوالها . والسبب في ذلك ان اهل تلك المدينيات غلبوها على امرها تارةً وانصرفوا اليها اخرى لطيب صعيدها وصلاح اقليمها خلوا بها واقاموا . وان ننس لا ننس انها كانت طريق القوافل بين مصر وفارس وان سواحلها كانت تجمع جمّاً غفيراً من الاسيويين والافريقيين واوروبي الجنوب

ولم يكن الشاميون ليعرضوا عن الفن فانهم اقبلوا عليه وزادوا فيما انتهى الى ايديهم وحلوه ثم انصرفوا الى البناء بالحجر وافتنوا فيه واختصوا به . ثم ان ورعهم وولعهم بالدين صرفا همهم الى مظاهر من الفن جديدة

ومما لا يخفى على الناس ان الفرنسيين لا يدخرون جهداً في التنقيب عن جمع تلك الآثار . وقد وقفوا الى عدة مكتشفات وهام اليوم يذيعون بين الخلق كتاباً ضخماً يدرجون في اطوائه صوراً فوتوغرافية لبنانيات أثرية وبعض تماثيل وادوات فنية يقف عهدها عند الحروب الصليبية . الا ان الرهط الذين عنوا بآراز الكتاب اضافوا اليها قصرين احدهما بيت العظم في دمشق والآخر قصر بيت الدين ببلنان وقد رموا في ذلك الى ان يثيروا الى تأثير الفن اللبناني في هذا والفن التركي في ذاك

وفي هذا الكتاب آثار لفنون السومريين (الشمرين) والمصريين والحثيين والاشوريين والبابليين المتأخرين والفرس واليونان والرومان والروم والمسلمين والفرنجية . وعندى ان فن التزيين ملعوس في التماثيل والادوات التي بعث بها المصريون الى الشاميين قديماً فحذا الشاميون حذوهم فيها . واما الابهة فبسوطة على بنيات اليونان والرومان واما الدقة ففي الرسوم التي تعلو الجدران البيزنطية واما الجلال فستو على جنبات الجوامع واما العزة فقيمة في القلاع والمرباط التي شيدها الصليبيون

فمثل هذا الكتاب يعرض عليك من الوان الفن ما يسحر عينيك . الا اني كنت اود لو اسهب مبرزوه في التعليق على الصور فيبسطون لنا فوق ما بسطوا من شرح وتقد لان الصور ليست بشيء اذا لم يكتنفها احاديث واخبار لاتقف عند الايماء

امثال مطوية لعجائز مراکش

Proverbs inédits des vieilles femmes marocaines

Edition Geuthner Paris

هذه مجموعة امثال يضربها اهل مراکش ولا سيما عجائزهم في دورهن . وترمي العجائز في ضربها الى تأديب بناتهن وكنائنهن وإمائهن وكثيراً ما تتم هذه الامثال على اختبار حق . وفيها حكم على شاكلة حكم اهل الجاهلية . على ان طائفة منها قريبة المنال لبساطة عبارتها على حين ان غيرها بعيدة المعنى بل مقفلة لغموض فيها أو لاشارتها الى حادث غاب بين طيات الزمان وقد نقل هذه الامثال الى الفرنسية احد المترجمين الجزائريين المعهود اليهم في التراجم الرسمية . وقد فطن ان يعلق على كل مثل فيشرحه ولربما عارضه بآية أو حديث أو بيت شعر أو حكمة بل ربما قابله بمثل فرنسي . ولكنه لم يوفق الا قليلاً في المقابلة ولا سق اليك بعض هذه الامثال :

« جا من برا وعا ما طراً » والمعنى : غريب يحدثنا عن بلدنا
« خلى هو بالساس ومشايحقر على دا الناس . أي خلف همه علانية وانطلق ينقب عن هموم الناس »

« فلس في الجيب احسن من ميا بالغيب » ويقابله عندنا : عصفور في اليد ولا عشرة عالشجره
« كل خنفوس عندمو غزال » . ويقابله عندنا : الإرد في عين أمه غزال
« نشم يدي ونشبع » . يقوله من أرى ثم افتقر
« صنعه فعمى المؤذن اذا ما ادن يحنحن » . والمعنى أن عمي المؤذن لا ينفك يتنحنج
اذا لم يؤذن . ويقابله في امثال المولدين : العادة توأم الطبيعة (راجع الميداني ج ١ ص ٥٨ : طبعة مصر)

هذا وليس اثبات هذه الامثال الدارجة لوناً من الوان اللهو بل ضرب من ضروب العلم الذي يسميه الفرنجة Folk-lore (معرفة الامم) . وهو فن يبحث عن احوال العامة او اغانيهم وآدابهم . وبودي لو ينهض أحد من المصريين فيجمع امثالنا الحلوة الخفيفة الظل المملوءة سخراً ورشاقة في آن . واني اذكر ان الاديب نجيب نجم كرم عرض لهذا العمل فألف كتاباً لسنة مضت فيه بعض امثال مصرية بامثال سورية ولكن مؤلفه غير واف وان كان نفيساً

بَابُ الْإِخْبَارِ الْعِلْمِيَّةِ

السكر ومكروب النزلة الصدرية

التربة التي تكثر فيها المواد النباتية المنحلة كائنات دقيقة تولد « أنزيماً » له هذا الفعل . وقد تناولوا فعلاً هذا الانزيم وحقنوا به فئراناً مصابة بالنزلة الصدرية فشفيت . ووجدوا كذلك ان حقن الفئران بهذا الانزيم يقيها من فعل مكروبات النزلة الصدرية الفائعة مع ان هذه المكروبات تमित في الحال فئراناً اخرى لم تحقن بهذا الانزيم . وفعل الانزيم حل السكر الذي يتكون منه غلاف المكروب فيسهل على حماة الجسم مهاجمته والفتك به . فالشفاء اذاً رهن وجود هذا الانزيم ومقدرة الجسم الدفاع عن نفسه

سرعة الافاعي

الشائع ان الافاعي تمر امام الناظر مرور البرق الخاطف . على ان الدكتور ولتر موزور (Mosauer) العالم بالحيوان والاستاذ بجامعة كاليفورنيا الاميركية استعمل ادق الوسائل في قياس سرعة الافاعي المختلفة فوجد ان اسرعها لا يقطع اكثر من ميلين ونصف ميل في الساعة . وان ذبوع الاعتقاد بسرعتها العظيمة وهم ذهني سببه خوف المشاهد والافعى معاً وتلوي الافعى في اثناء زحفها

تلا الدكتور أوزولد ايثري (Avery) احد اطباء المستشفى التابع لمعهد ركنفلر الطبي في مجمع كلية الجراحين الاميركي رسالة قد تكون فاتحة عهد جديد في مكافحة النزلة الصدرية وما اليها من الامراض التي يحدثها المكروب المعروف بالنوموكوك Pneumococcus . قال ان للنوموكوك غلافاً لا يستطيع المكروب ان يغزو الجسم ويحدث فيه المرض مجرداً عنه ، اذ يسهل حينئذ على البلعومات Phagocytes ان تفتك به . والراجح ان هذا الغلاف مكوّن من صنف خاص من السكر يركبه المكروب نفسه . ولكل صنف من « النوموكوك » صنف خاص من السكر . وهذا الغلاف السكري ليس ساماً — في الراجح — على مثال الغلاف السكري الذي يحيط بمكروب الدفتيريا ولكنه يعيق الشفاء او يمنعهُ لانه يحول دون وصول المواد المكافحة للمكروب في الدم الى البقع المصابة فيتعذر عليها مكافحة المكروب في موطنه

وقد وجد الدكتور ايثري واعوانه ان الجسم لا يولد « أنزيماً » يحل هذا السكر المعقد التركيب وانما يوجد في بعض انواع

قياس عوامل الوراثة

استعمل الاستاذ اوزولد بلاكوود الاستاذ في جامعة بتسبرج الاميركية اشعة اكس لقياس عوامل الوراثة فوجد ان طول العامل الواحد نحو ٨٠ انجستروماً (او ٣٢ جزءاً من الف مليون جزء من البوصة)

أفعل مبيد للحشرات

« الروتون » مادة فعالة في مكافحة الحشرات و ابادتها تستخرج من جذور بعض النباتات الاستوائية في جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا . وقد جاء في انباء اميركا العلمية ان ثلاثة كيميائيين من وزارة الزراعة الاميركية فازوا بمعرفة تركيبها الكيميائي ، فاذا هي مركبة من ثلاثة عناصر : — الكربون والايدروجين والاكسجين بنسبة ٢٣ للاول و ٢٢ للثاني و ٦ للثالث . أما بناء ذرات هذه العناصر في الجزيء الواحد فمعقد كل التعقيد . والغرض من عناية الكيميائيين بمعرفة البناء الكيميائي لاية مادة طبيعية هو استعمال هذه المعرفة في صنع المادة بالتركيب بنفقة اقل من نفقة استخراجها من مصادرها الطبيعية . والعلماء الذين كشفوا عن تركيب « الروتون » الكيميائي معنيون الآن بدراسة بعض مركبات يرجح انها تقضي الى مادة جديدة مماثلة للمادة الطبيعية وانما تفوقها في شدة فعلها وقد تعلم البيض استعمال « الروتون » من سكان جزائر الهند الشرقية وجنوب اميركا الاصليين ، اذ رأواهم يسمون الاسماك بالنباتات التي تحتوي على هذه المادة ، ثم

ياكلونها من دون ان يصابوا بفعل السم . فخرّب بعضهم فعل النبات في الانسان مباشرة فوجد انه لا يسم الانسان قط ، فلما جرب فعله بالحشرات وجد انه يفتك بها فتكا ذريعاً

نظير جديد للنحاس

الرصاص الذي ينشأ من انحلال الراديوم يشبه الرصاص العادي في كل خواصه الطبيعية والكيميائية وانما يختلف عنه في وزنه الذري . وهذا هو « الايسوتوب » او « النظير » . وقد استنبطت طريقة في جامعة الاباما الاميركية اسمها الطريقة « المغناطيسية البصرية » Magneto - optic للبحث عن العناصر المجهولة ونظائر العناصر المختلفة . فاكشف بها العنصران اللذان يقابلها رقم ٨٥ و ٨٧ في جدول موزلي ودعيا « فرجينيوم » « والابامين » . وقد استعملت هذه الطريقة نفسها للبحث في نظائر النحاس فاكشفت بها نظير جديد له . والنحاس عنصر معدني وزنه الذري ٦٣.٥٧ ولكن بحث الاستاذ استن الانكليزي المعروف « باي النظائر » اثبت ان للنحاس نظيرين كلاهما يشبه النحاس في خواصه الطبيعية والكيميائية وانما يختلف عنه في الوزن الذري فاحدها وزنه الذري ٦٥ والاخر ٦٣ . اما النظير الجديد وهو الثالث فلا يعلم عنه حتى كتابة هذه السطور اكثر من ان وزنه الذري اقل من ٦٣ ولعله يكون ٦١ تحقيقاً لما تنبأ به الاستاذ يوري Urey احد اساتذة جامعة كولومبيا

احوج ما يحتاج اليه العالم

يرى المستر اورفيل ريط احد مستنبطي الطيارة ان رضاء الانسانية يزيد بزيادة القوة المحركة ورخصها وعليه فاعظم المستنبطات التي يحتاج اليها الناس هو محرك يحول الطاقة الكامنة في المادة الى قوة محركة او محرك يستطيع ان يتناول القوة مباشرة من اشعة الشمس

ويظن الدكتور لي ده فرست مستنبط الانبوب المفرغ المستعمل في المخاطبات اللاسلكية ، ان الاستنباط العظيم التالي هو التلفزة (الرؤية عن بعد) العملية الواسعة النطاق . ولكنه مع هذا يرى ان احوج ما نحتاج اليه مصادر لا تقنى من القوة الرخيصة الثمن فنستطيع ان نقلب بها احوال العمل والمعيشة واساليهما

وعنده ان مصادر هذه القوة كائنة تحت قشرة الارض على عمق بضعة اميال من سطحها . وابناء الجيل القادم لن يحفروا المناجم في الارض لاستخراج الفحم والمعادن بل لاستخراج الحرارة بطريقة يمكننا مثلاً من ازال الماء الى الاعماق واخراجه بخاراً وبهذا البخار نولد القوة الكهربائية فنستعملها في تدفئة بيوتنا وتبريدها ، وتنقية الهواء ، وتسيير المركبات بل في كل شؤون المصانع والبيوت ويرى الدكتور إليهو طمسن احد كبار المهندسين الكهربائيين في اميركا ان اعظم المستنبطات التي يحتاج اليها العمران هو طريقة

لتحويل طاقة اشعاع الشمس الى تيار كهربائي عالي الضغط ، تحويلاً مباشراً

سرعة الضوء

اصدر الميسوغوري ده براي Gheury de Bray رسالة موضوعها سرعة الضوء سرد فيها كل التجارب التي جربت لقياسها من دومر (العالم الدنماركي الذي قاس سرعة الضوء برصد خسوف اقمار المشتري سنة ١٦٧٥) الى ميكلسن (العلامة الاميريكي الذي توفي في العام الماضي) وقد اورد في رسالته نتائج ٢١ تجربة جربت لهذا الغرض اولها تجربة فيزو Fizeau سنة ١٨٤٩ وآخرها تجربة ميكلسن التي اتما قبيل وفاته . وبعد البحث الدقيق قال ان التجارب التي يصح الاعتماد على نتائجها سبع قسمها الى قسمين الاول التجارب التي جربت لقياس سرعة الضوء على مسافة لا تتجاوز اربعة كيلو مترات وهي

العالم الشهر السنة السرعة بالكيلومترات

ميكلسن ١٨٧٩ ٥ ٢٩٩٦٩١٠

نيوكم ١٨٨٢ ٧ ٢٩٩٦٨٦٠

ميكلسن ١٨٨٢ ٨ ٢٩٩٦٨٥٣

ثم التجارب التي جربت لقياس سرعة

الضوء على مسافة ٢٣ كيلو متراً او اكثر وهي

العالم الشهر السنة السرعة بالكيلومترات

كورني هلمير ١٨٧٤ ٨ ٢٩٩٦٩٩٠

بروتان ١٩٠٢ ٤ ٢٩٩٦٩٠٦

ميكلسن ١٩٢٤ ٦ ٢٩٩٦٨٠٢

» ١٩٢٦ ٠ ٢٩٩٦٧٩٦

طريقة عجيبة لقتل المكروبات

الصوت امواج . وكلما ارتفع الصوت قصرت الامواج واسرع تواليها ولكن اذا قصرت الامواج عن حد معين عادت الاذن البشرية لا تحسها . على ان هذه الامواج نفسها لها فعل غريب في الاحياء . فالدكتور لسلي تشمبرس والدكتور نيوتن جاينز من اساتذة جامعة تكساس المسيحية قد اثبتا ان تعريض اللبن الى آلة خاصة تخرج امواجاً صوتية متناهية في القصر افضى الى قتل ٨٠ في المائة من البكتيريا التي في اللبن وقد كان الاستاذ ود الاميركي من اوائل الذين عنوا بهذه المباحث . وقد خلصنا تجاربه في مقال اخاذ بغرابته في مطلع مقتطف مايو سنة ١٩٢٧ ومن اهم الحقائق التي اثبتتها انه كان يبحث في طريقة لتوليد امواج صوتية قصيرة سريعة لا تسمعها اذن الانسان فيستعملها لاكتشاف غواصات الاعداء وهي غائصة في الماء . واذ هو يجرب التجارب بهذه الامواج في حوض اتفق انه شاهد سمكة في الماء تتجه نحو المنطقة التي تخترقها الامواج ثم لم تلبث ان انتفضت وعامت على وجه الماء فاقدة الحياة . فمد يده الى الماء ليعلم سبب ذلك فسحبها حالاً لانه لم يستطع ان يتحمل ما شعر به من الالم الذي اخترق لحمه الى العظم وشعر كأن يده تنحل انحلالاً ووالى ود تجاربه بعد الحرب فاثبت ان صغار السمك وزرعاً من الحيوان المكروبي

المعروف بالبراميسيوم تموت كلها اذا سلطت عليها هذه الاشعة . ثم اثبت انه اذا عرض دم الانسان اليها نقص عدد كرياتة الحمراء ولما جرب تجاربه في نبات السبيروجيرا وهو مائي يكثر في المادة الخضراء التي تغطي برك الماء الراكد قتلت خلايا النبات قتلاً . ولما بقيت الخلايا نحو خمس دقائق ونصف دقيقة معرضة لهذه الامواج باد منها العين والاثر ولما امتحن الماء بالمكروسكوب لم يجد من آثار الخلايا النباتية الا خيوطاً دقيقة

علاج بسيط لتصلب الشرايين

يرى الدكتور پلش J. Plesch استاذ الطب الداخلي في جامعة برلين ان تصلب الشرايين ليس مرضاً بل وسيلة الطبيعة للدفاع عن الشرايين ومنع انفجارها وانه ليس حالة خاصة بالمتقدمين بالسن وانه قابل للشفاء . والطريقة التي وصفها لعلاجها في مجلة اللانست الطبية ، تقوم اولاً على ازالة اسباب ضغط الدم العالي ولا يكون ذلك بتناول العقاقير التي ترخي الاوعية الدموية بل بالجري على نظام غذائي معين . وهذا النظام الغذائي اساسه الامتناع يوماً كل أسبوع وثلاثة اسابيع متوالية كل سنة عن المأكّل التي تحتوي على النتروجين (البروتينات) والملح (كلوريد الصوديوم) . يضاف الى ذلك وجوب المعيشة في الهواء الطلق والبعد عن كل هم فكري وتصلب الشرايين نفسه مظهر من مظهر مرض يصيب بنية الانسان اذ تضعف العضلات

في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك سنة ١٩٢٣ واكتشف نودك Noddack وتاك عنصري الموزيوم (٤٣) والرينيوم (٧٥) في برلين سنة ١٩٢٥ واكتشف هيكز الاميركي عنصر الالينيوم (٦١) سنة ١٩٢٦ في جامعة الينوي الاميركية وكلهم جروا على طريقة موزلي في اكتشاف هذه العناصر (راجع مقالة موزلي كشف خريطة العناصر مقتطف يونيو ويوليو ١٩٣١). اما الدكتور أليسُن فقد اكتشف العنصرين الجديدين بطريقة ابداعها حديثاً ودعاها الطريقة المغنطيسية البصرية وهي اشد احساساً من طريقة موزلي المبنية على اشعة اكس القبة والطير

بعد نشر مقال القبة والطير جاءتنا من مدام دفونشير الكلمة الآتية :

جاءني ايضاً من جناب مسيو راينو عن هذا الموضوع ان كتاب «كلستان» لسعدى به فقررة تشير الى هذا الطير وقد عثر عليها في ترجمة هذا الكتاب للسرد اردوين ارنولد ص ١٠ وهي بالمعنى الآتي «واذ لم يكن هناك الطائر الحامي الذي يقوم على حراسة الملوك»

« اتظن ان يكون هذا سبباً لتلمس الناس السلامة تحت «اجنحة البوم» وقد رأيت ان الحق مقالي بهذه التكملة فيما يتعلق بالبحث عن الاصل في اتخاذ هذا الطير من شعار الملك

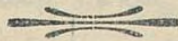
وقد ورد في سياق الكلام عن الملك المؤيد في ذلك المقال ان اسمه «شيخو» والصواب «شيخ» كما لا يخفى على فطنة القارئ

الناعمة وغيرها من الانسجة المرنة في جدران الاوعية الدموية عن مقاومة سير الدم فتعتمد الطبيعة الى ترسيب الجير في جدران الشرايين حيث يشتد ضغط الدم لتقوية هذه الجدران ومنع الانفجار الدموي . ويؤكد پلش ان تصلب الشرايين ليس خاصاً بالمقدمين في السن بل يصيب الاحداث كثيراً وينكر انه اذا ظهر لا بد من اطراد تقدمه وان شفاءه متعذر آخر العناصر المجهولة

في رسالة بعث بها الاستاذ أليسُن احد علماء المعهد البوليتكنيك في ولاية الاباما الاميركية ، الى الجمعية الكيميائية الاميركية اعلن انه اكتشف آخر العناصر المجهولة وهما العنصران اللذان يقابلهما في جدول موزلي الرقمان ٨٥ و ٨٧ فدعا الاول «الابامين» نسبة الى الولاية الاباما التي يشتغل فيها ودعا الثاني «فرجينيوم» نسبة الى الولاية فرجينيا التي ولد فيها. ولا يخفى على قراء المقتطف ان العالم الروسي مندليف تنبأ ان العناصر المادية التي تتركب منها كل المواد المعروفة اثنا وتسعون عنصراً رتب المعروف منها في جدول يعرف في علم الكيمياء بالجدول الدوري Periodic Table وترك فيه مواقع العناصر المجهولة وتنبأ بصفاتها من موقعها وعلاقتها بالعناصر المجاورة لها. وقد اكتشف معظم هذه العناصر في اثناء حياة مندليف وبعد وفاته ، وخصوصاً بعد ما اخرج موزلي جدولاً رتب فيه العناصر من ١ - ٩٢ بحسب اوزانها الذرية فاكتشف هيسي وكوستر عنصر الهفنيوم (رقم ٧٢)

الجزء الاول من المجلد الحادي والثمانين

صفحة	
١	دارون ومذهبه. لفؤاد صرؤف (مصورة)
٩	مصير العالم الاقتصادي
١٤	مصير الاسرة الشرقية. للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٢٠	ميزة الحضارة الغربية. للاستاذ سامي الجريديني
٢٥	الديمقراطية في الازمات
٣٠	العوامل الوراثية والغدد الصماء. للدكتور شريف عيران
٣٦	مملكة الخيال (قصيدة). لبدوي الجبل
٤١	رسالة من رومية الى بغداد. ب. ج.
٤٦	القبة والطير. للمسر. ر. ل. ديقولشير (مصورة)
٥٢	الميكروكسمس. ليوسف شلحت
٥٧	نيقولاي لينين. لاسماعيل مظهر (مصورة)
٦٥	كيف خلق الله المرأة. لتوفيق مفرج
٦٧	بحث في « الدبلوماسية ». لفؤاد جميل
٧٥	تأثير انتشار الاوبئة في نفسية المجتمع. لابراهيم مراد ديان
٧٨	القاهرة تخاطب لندن والعالم (مصورة)
٨٥	انطاكية ومشاهدها الفاتنة. لنقولا شكري (مصورة)
٩٠	ريان. لاميل لدوج
٩٤	الاخطل الصغير. لمحمود ابو الوفا
٩٩	صور جديدة من الادب العربي. للدكتور طه حسين



١٠٢	باب الزراعة والاقتصاد * تقدير ايجار الاطيان
١٠٧	باب التعاون والاقتصاد الزراعي * التعريف الجركية او طلمس الرخاء المزيف
١١١	مكتبة المقتطف * الرسائل الضائعة ورسائل اخرى. آلام واحلام (مصورة) سيدقريش. وادي نظرون ورهبانه وادبرته. كتاب الصحة والحياة. تمهات التهافت لابن رشد الشام في المصور الخوالي والصور المتوسطة. امثال مطوية لمجائز مراکش
١١٩	باب الاخبار العلمية * وفيه ١١ نبذة